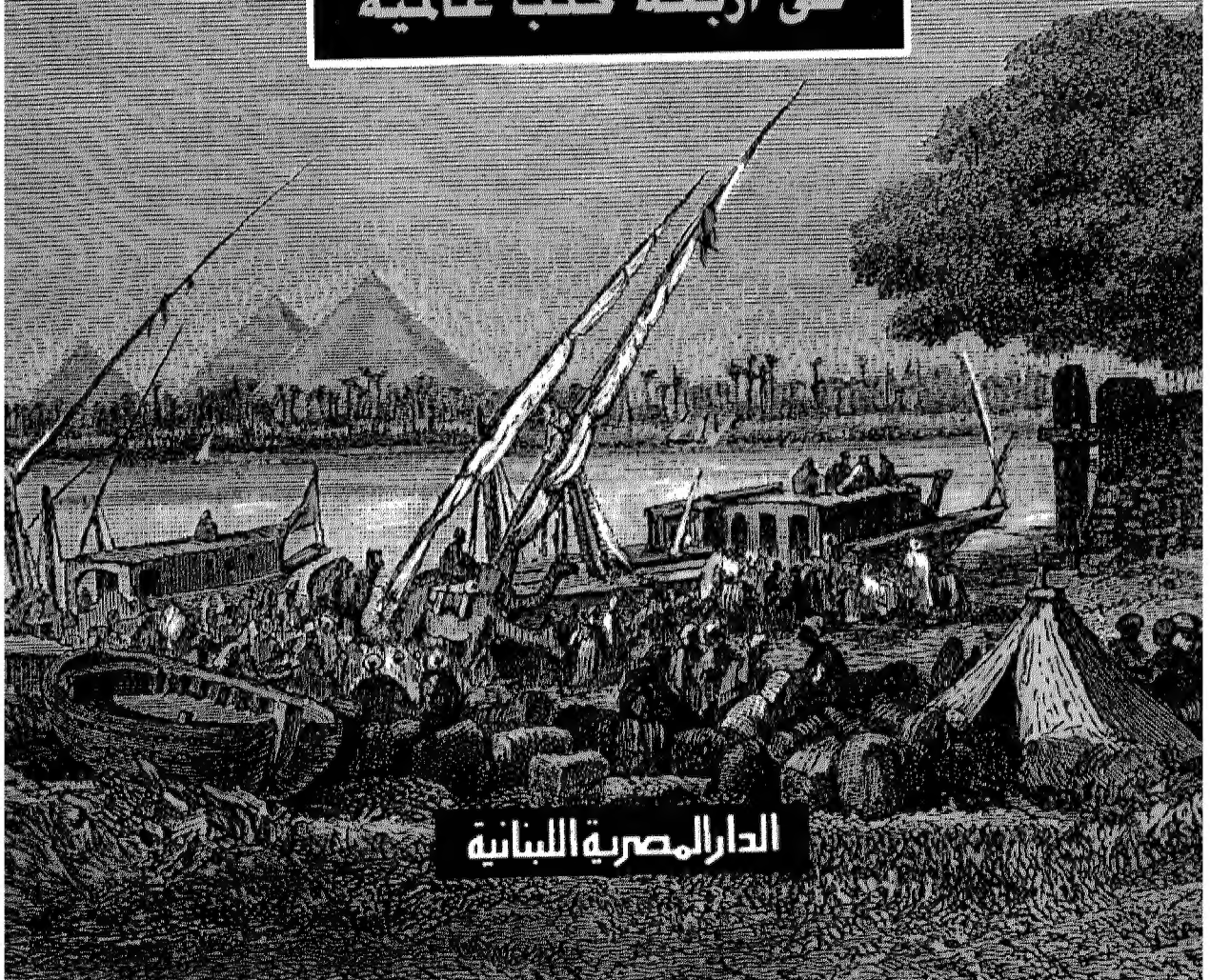


مختار السويدي

# مصر والنيل

في أربعة كتب عالمية

الدار المصرية اللبنانية





# مصر والنيل

في أربعة كتب علمية

**الناشر : الدار المصرية اللبنانية**

١٦ ش عبد الحالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ٩٦ / ٤٨١٠

الترقيم الدولي : 4 - 275 - 270 - 977

**جمع وفصل ألوان وطبع : عربية للطباعة والنشر**

العنوان : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٢٥١٠٤٣ - ٣٢٥٦٠٩٨

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الطبعة الثانية : ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثالثة : ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

الطبعة الرابعة : ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

تصميم الغلاف : محمد حجي



مختار السويفس

# مصر والنيل

في أربعة كتب عالمية

- النيل : النهر والناس
- مشرق القوّة
- رمسيس الأكبر.. سيد العالم
- المؤسسة العسكرية المصرية
- في عصر الامبراطورية

الناشر  
دار المصرية اللبنانية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

أَفْتَرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①  
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②  
أَفْتَرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي  
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ  
مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤

صدقت الله العظيم

## هذا الكتاب :

عرض تفصيلي حر  
للكتب الأربعة التالية :

1. NILE
2. SUNRISE OF POWER
3. RAMSES THE GREAT
4. OFFICERS AND OFFICIALS  
IN THE NEW KINGDOM

## تقديم الطبعة الأولى

بقلم : الاستاذ / محمد العزب موسى

كان من الممكن ألا يصدر هذا الكتاب لو كنا نستورد الجديد المتنوع من الكتب الاجنبية ، ونتيحها للقراء والمثقفين الراغبين في الاطلاع على كل جديد .

فهذا الكتاب قراءة في بعض الكتب العالمية التي تتحدث عن « مصر » و « النيل » ، أى تتحدث عنا .. عن حضارتنا العظيمة وتاريخنا المجيد ، وعن نيلنا الرائع الذى هونسيج وحده بين أنهار الدنيا ، كما أن حضارتنا نسيج وحدها بين حضارات البشرية .

وللأسف ، فإن محتويات هذه الكتب متاحة لكل القراء في مختلف البلاد ، ابتداء من انجلترا الى اليابان ، ومن سكنديناوا الى استراليا ، الا القراء المصريين ، فنحن قد نستورد أرقى العطور الباريسية ، وافخر الفراء النمساوى ، واجود الكافيار الروسى وأغلى الويسكى الانجليزى ولكننا لانستورد أحدث الكتب ، خاصة إذا كانت تتحدث عنا .. عن حضارتنا وتاريخنا وبلادنا !

ولولا معرض الكتاب الدولى الذى يعقد بالقاهرة سنويا في اواخريناير من كل عام لكانت مصر قد انقطعت تماما عن مجرى الثقافة العالمية الزاخرة المتجددة .

وحتى الكتب القليلة التي يجرى استيرادها ، نجد أن معظمها من الكتب العلمية في فروع الطب والهندسة والكمبيوتر والاحصاء وما أشبه ، ومعظم باقيها من القواميس والاطالس والكتب الدراسية وما أشبه . أما كتب الثقافة الانسانية الرفيعة فهي أندرفى سوق الكتاب المصرى من بيضة الديك !

ومن الطبيعي أن هذا الوضع يستفز جمهور المثقفين المصريين ، وبالذات مثقفاً من طراز مختار السويفى درج على التغذى بأحدث ثمار الفكر الانسانى ، فاذا وقع على ثمرة منها كان حريصاً غاية الحرص على أن يذيق منها الآخرين .

والصديق مختار السويفى ، الى جانب هوايته للقراءة ، يهوى شيئاً آخر هو السفر والترحال بين جنبات هذا الكوكب الضيق جداً المسمى بالأرض ، وهو من سفر ياته هذه الكثيرة يأتي محملاً بالكتب ، تأخذ من حقيقته مكان الملابس ، ومن محفظته مقابل الوزن الاضافى .

زرتة يوماً فى منزله بعد عودته من احدى هذه الرحلات ، فوجدته غارقاً بين عشرات من الكتب الأجنبية الجديدة ، جميعها أو معظمها من الوزن الثقيل .. حجم كبير ، غلاف مقوى ، ورق سميك مصقول ملئ بالصور الملونة الرائعة . وبالتالى لابد أن تكون غالية الثمن جداً .

سألته : كيف نقلت كل هذه الكمية من الكتب ؟

فضحك وهويتذكر الموقف ، وقال : عادى .. فى الحقايب .. المهم ان أنقلها إلى القراء .. !

ومختار السويفى كما قلت من أشد الناس حرصاً على اشراك الآخرين فيما لديه من معلومات ، انه يعتبر الثقافة أخذاً وعطاء ، فلا يكتمل لديه ما يأخذه من الثقافة إلا إذا أعطاه لغيره .

وقد اختار مختار السويفى أربعة من هذه الكتب العالمية ليقدمها للقراء .

الكتاب الأول هو « النيل .. النهر والناس » من تأليف بارتون ورثنجتون ، وهو رحلة عبر المكان والزمان مع نهرنا الخالد ، قام فيها المؤلف بمتابعة نهر النيل العظيم من عند مصبه فى الدلتا حتى منابعه العليا فى بحيرة فيكتوريا ونهر كاجيرا وجبال القمر . مع إطلالة على تاريخه القديم والحديث ونظامه المائى البالغ التعقيد وتاريخ الجهود البشرية للسيطرة عليه . كما يقدم المؤلف دراسة مختصرة للانسان والحيوان والنبات والحضارات التى قامت على شطآنه .

والكتاب الثانى هو « مشرق القوة » من تأليف جويس ميلتون ، وهو كتاب بالغ الاهمية والتشويق ، ويمكن أن نطلق عليه عنواناً آخر هو « كيف تقرأ تاريخ مصر »

إذ يتتبع هذا الكتاب مراحل التاريخ المصرى من عهد مينا حتى «صهوة الموت» فى العصر الصاوى أو الفصل الأخير فى تاريخ الحضارة الفرعونية .

ومن أبداع اجزاء هذا الكتاب الجزء الخاص بالامبراطورية المصرية التى أسسها أحسن طارد المكسوس ، إذ يتناول فى عرض مختصر شيق تاريخ ملوك الاسرة الثامنة عشرة العظام .. امنحتب الأول ( العادل ) وتحتمس الأول ( المحارب ) وتحتمس الثانى ( المتأنق ) وحتشبسوت ( سيدة النساء ) وتحتمس الثالث ( الامبراطور ) وامنحتب الثانى ( الرياضى ) وتحتمس الرابع ( الدبلوماسى ) وامنحتب الثالث ( ملك الملذات ) واخناتون ( أول الموحدين ) وأخيرا توت عنخ آمون ( أشهر الملوك ) .

ويقول مختار السويفى عن الحضارة المصرية القديمة :

« من بين جميع الحضارات الانسانية التى ظهرت واندثرت عبر آلاف السنين من التاريخ المكتوب أو المعروف تبوأ الحضارة المصرية مكان الصدارة واعتبرت بكل المقاييس العلمية حضارة رائدة أنارت الطريق أمام الانسان الحى ليلبغ أقصى درجات الرقى ، وليس من قبيل المبالغة أن بعض المؤرخين الغربيين يطلقون على الحضارة المصرية القديمة اسماً شهيراً هو «أم الحضارات» .

وهذه شهادة لا يسطرها إلا محب للحضارة المصرية وعالم بها ، وهما صفتان يتمتع بهما مختار السويفى .

فاذا انتقلنا الى الكتاب الثالث وهو «رمسيس الأكبر .. سيد العالم» من تأليف وليم ماكويتى قرأنا صفحات مشرقة مضيئة عن تاريخ هذا الملك العظيم الذى هز الدنيا والتاريخ ، والذي لم يكن مبالغاً أو مدعياً حين أمر النقاشين أن ينقشوا على مسئلة القائمة الآن فى ميدان « الكونكورد » بباريس هذه الكلمات :

« رمسيس .. قاهر كل الشعوب الأجنبية .. السيد على كل من لبس تاجاً .. المحارب الذى هزم الملايين من الخصوم والاعداء .. الذى خضع العالم كله لسلطانه معترفاً بقوة التى لا تقهر» .

انجازات رمسيس الثانى فى مجال الحرب والقتال لم يكن يعادلها سوى ما أنجزه فى مجال التشييد والبناء ، فقد ترك هذا الفرعون اكبر مجموعة من المنشآت — معابد وتمائيل ومسلات ولوحات تذكارية — فى كل أنحاء مصر من الجندل الثانى جنوباً حتى الدلتا

ومصب النيل ، حتى صار من حقه ان يوصف « بسيد البنائين » . و يتحدث الكتاب عن هذا الجانب أيضا من نشاطات رمسيس بدقة وافاضة .

فاذا وصلنا الى الكتاب الرابع والأخير من هذه المجموعة المنتقاة وجدناه مختلفا عن الكتب الثلاثة السابقة فى شىء هام ، هو أن مؤلفه ليس أجنبياً ، وانما هو الاستاذ الدكتور احمد قدرى رئيس هيئة الآثار المصرية ، وهو كتاب « المؤسسة العسكرية فى عصر الامبراطورية من عام ١٥٧٠ الى ١٠٨٧ ق . م »

ومع ذلك فان هذا الكتاب يتفق مع الكتب الاخرى التى تضمها المجموعة فى عنصرين : الأول ان مؤلفه وضعه باللغة الانجليزية فقد كان الرسالة العلمية التى نال بها الدكتور احمد قدرى درجة الدكتوراة فى التاريخ من جامعة بودابست بالمجر . والثانى ان الكتاب فى حد ذاته على نفس المستوى العالمى للكتب الاخرى من حيث أصالة البحث ودقة المعلومات وجودة المحتوى ، مما يجعله متسقا من حيث الشكل مع كتب المجموعة .

أما من حيث الموضوع فرمى يكون كتاب الدكتور أحمد قدرى اكثر اهمية من الكتب السابقة ، إذ انه يتناول موضوعاً بالغ الاهمية والغموض حتى بالنسبة للقارئ المتخصص فى التاريخ المصرى القديم . هذا الموضوع هو الجيش المصرى الذى بنى الامبراطورية فى عهد الدولة الحديثة ، وهى الاسرة الثامنة عشرة وماتلاها من عصر الرعامسة ، فنحن نعلم بوجود هذا الجيش وفتوحاته ولكننا لانعرف الكثير عن تكوينه والقابله وخطته ورجاله ودوره الهائل فى السياسة المصرية ، فيأتى كتاب الدكتور قدرى ويحل كل ذلك بوضوح واقتدار ويركز بالتحديد على نشأة وتطور المؤسسة العسكرية كظاهرة جديدة فى السياسة المصرية بدأت على يد أميس العظم بعد طرد الهكسوس وحاجة مصر الى وجود جيش دائم يحمى حدودها ويرد عنها غائلة الطامعين والمعتدين .

ويتتبع الدكتور أحمد قدرى نشاط طبقة العسكريين فى السياسة المصرية ، حربا وسلماً ، منذ عهد اميس وتحتمس الثالث الى أزمة العمارنة فى عهد اخناتون ، الى حرب قادش فى عهد رمسيس الثانى . وكيف تمكنت هذه الطبقة فى النهاية من « عسكرة » الحياة المصرية وتسقلت الى المراكز المدنية والكهنتوية حتى سيطرت على البلاد سيطرة فعلية ، ثم سيطرة رسمية بانقلاب الجنرال الكاهن حريمور .

وللدكتور أحمد قدرى نظرات جديدة فى هذا المجال تعارض ما استقرت عليه الآراء من قبل ، من ذلك مثلاً تصحيح نظرتنا التقليدية الى علاقة اخناتون بالجيش ، فخلافاً لمعظم الباحثين الذين يرون ان الاتجاهات السلمية لـ اخناتون جعلته يهمل الجيش يرى الدكتور



قدرى ان اخناتون كان من اكثر الفراعنة استعانة بالجيش واعتمادا عليه ، ان لم يكن لشيء فن أجل ضرب طبقة كهنة آمون . ومنذ عهد اخناتون بدأ الجيش يلعب دورا فريداً في السياسة الداخلية بدليل بروز القادة الثلاثة آى وحورحوب ورمسيس الأول .

وهذا الجيش المصرى يعد أول جيش نظامياً منظماً فى تاريخ العسكرية ، وأول ما استحدث من الاستراتيجية والادارة والتقسيم الى قلب وجناحين ، وكان مكونا من عدة أسلحة منها الفرسان والمركبات والمشاة والإمداد والتموين تجمعها « هيئة اركان حرب » عليا ، وبعض الخطط التى طبقها هذا الجيش أوحى لبعض كبار القواد العسكريين فى العصر الحديث بمضاهاتها .

تقول موسوعة كامبردج عن هذا الجيش : « كان جيشاً وطنياً هائل الحجم ، يتألف معظمه من جنود محترفين سواء من الجنود العاملين فى الخدمة العسكرية أو جنود الاحتياط ويقوم على قيادته وتدريبه ضباط محترفين مدربون على أعلى مستوى ويؤدون وظائفهم وواجباتهم الحربية فى ادارة الفرق والاسلحة المنوطة بهم قيادتها بشكل منظم ومنسق ودقيق .. وكان المصريون هم أول من كون (هيئة الضباط ) أو (هيئة اركان الحرب ) التى تؤدى وظيفة العقل الادارى والتنظيمى والحربى فى الجيوش الحديثة الآن » .



أقول ، ربما لو كانت هذه الكتب متاحة للقارىء العام لما ظهر هذا الكتاب ، ولكن هل الأمر فعلا كذلك ؟ لا اعتقد ، فهذا الكتاب الذى يقدمه مختار السويفى يظل مع ذلك محتفظاً بقيمته ، كيف ؟

ان هذا الكتاب خلاصة جيدة للكتب الاربعة المشار اليها ، ويمكن أن يغنى عنها جميعا ، فهو يقدم كل أفكارها الرئيسية بأسلوب أدبى راق ، وفى عرض متناسق بديع ، بحيث تصبح قراءة هذا الكتاب متعة فى حد ذاتها حتى لمن سبق له قراءة الكتب الأصلية .. انها اضافة الفنان .

أما بالنسبة للقارىء الذى ينظر بوجل الى ميزانيته — وأغلبنا هذا الرجل — فلا بد أن يستشعر الرضا بحصوله مقابل جنهات قليلة يدفعها ثمنا فى هذا الكتاب على ما قيمته عشرات الجنهات تتكلفها تلك الكتب الأصلية .

ومن ناحية أخرى ، فإن هذا الكتاب يقدم مادته باللغة العربية ، في حين ان الكتب الاصلية باللغة الانجليزية بما فيها كتاب الدكتور احمد قدرى [ الذى ترجم الى العربية أخيراً ] مما يجعل قراءته متاحة لجميع قراء العربية بعكس اللغة الانجليزية التى لا يقرأها الكثيرون .

من أجل ذلك يظل هذا الكتاب محتفظاً بقيمته في جميع الأحوال .. سواء أتيحت الكتب الأصلية في الاسواق أم لم تتح ، وسواء أكان القارئ يجيد الانجليزية أو يقتصر على قراءة العربية ، وسواء أكانت محفظته متخمة بأوراق النقد أم لا تحوى سوى القليل .

ولا يسعنا في النهاية إلا أن نقدم الشكر للكاتب الصديق الاستاذ مختار السويفى على ما بذله من جهد وعناية في نقل هذه الكتب العالمية الى اللغة العربية ، وأن نتمنى للقارئ سياحة مفيدة .. لذيدة .. في صفحات هذا الكتاب .

أول مايو ١٩٨٦

محمد العزب موسى

## تقديم الطبعة الثالثة :

بقلم الأستاذ / سامح كريم

من الكلمات الماثورة للفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون قوله : « هناك كتب تستحق أن يذوقها القارىء ، وأخرى تستحق أن يلتهمها ، وثالثة تستحق أن تمضغ وتهضم » .

وهذه الكلمة توحى بأن الكتب درجات ومراتب من حيث ما تتضمنه من الفائدة والمتعة . وإذا نظرنا إلى الفائدة كمعيار نحكم به على قيمة الكتاب في زماننا ، لسبق هذا الترتيب الذى اختاره ليكون كتباً أخرى لا تحقق فائدة ولا متعة . وأعنى بها الكتب التى إذا رجع إليها الانسان بددت وقته .

ولو عاش بيكون إلى أيامنا هذه ورأى بعينه ما تقذف به المطابع من ثمرات فاسدة أحيانا أو غير ناضجة أحيانا أخرى ، لأعاد النظر في عبارته فيبدو أن الكتب على زمان بيكون كانت من الجودة التى لا تسمح للكتاب الردىء بالمرور .

في زماننا أصبح العثور على كتاب يتسم بواحدة من هذه السات التى أشار إليها بيكون أمراً عسيرا . وهو ما يجعل المرء يهجع أحيانا إلى كتب أزمنة أخرى غير زمانه . ومع وجود هذا النوع من الكتب الرديئة لا يخلو الأمر من كتب لها قيمة ومستوى حيث تحقق الفائدة والمتعة .

وفوق راحة اليد الآن كتاب لعله بما حقق لى من فائدة وممتعة يمكن وضعه بين الكتب المميزة فى زماننا الذى تسود فيه البضاعة الرديئة لتكون هى الرائجة .

الكتاب الذى حقق لى فائدة وممتعة عنوانه : « مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية » وواضح من العنوان أن هذا الكتاب يتحدث عن حضارة مصر والنيل ، وأنه يحتوى على أربعة كتب ، وأن هذه الكتب بلغات عالمية ، وأنه يتطلب ترجمة إلى العربية . قام بها الأستاذ مختار السويفى .

ونظرة إلى صفحات الكتاب توضح أن المترجم قد أجهد نفسه فى اختيار هذه الكتب لهؤلاء المؤلفين الأربعة . كما أجهد نفسه حين ربط فيما بينها فى وحدة عضوية تحمل عنوانا واحدا . وهذا الجهد سبقه بالطبع جهد الترجمة الذى يفوق جهدها التأليف أحيانا . ففيها يكون المترجم مقيدا بما يكتبه المؤلف . وإذا خرج عن الحدود أصبح خائنا للأمانة . ولذلك قالوا أن التأليف أسهل من الترجمة .

والحق أن الأستاذ السويفى قد كابد كل ذلك ليقدم فى النهاية عملا صالحا يفيد الآخرين . ونظرة متأنية إلى ما تتضمنه صفحات الكتاب تغلن عن هذا الجهد المبذول . فالكتاب يحتوى على ما يشتمل عليه أربعة كتب أولها « النيل النهر والناس » تأليف الكاتب الانجليزى بارتون ورثجتون . وهو عبارة عن رحلة فى المكان من مصب هذا النهر إلى منبعه ، وعبر الزمان منذ آلاف السنين . راصدا فى هذه الرحلة عادات وثقافات وأعمال وإنجازات الناس وهو ما ترجمه كلمة الحضارة على ضفاف هذا النهر العظيم . والكتاب الثانى « مشرق القوة » وهو تحديد لجوانب الحضارة المصرية من وجهة نظر مؤلف أجنبى هو « جويس ميلتون » . تابع فيه مراحل هذه الحضارة مؤكدا أنها تبوأ مكان الصدارة حتى أصبحت أم الحضارات . والكتاب الثالث « رمسيس الأكبر سيد العالم » وفيه يرصد مؤلفه « وليم ما كويتى » الكثير من إنجازات هذا الملك العظيم فى ميادين التشييد والبناء ، وحروبه وانتصاراته على الأمم والممالك حيث كان يقول « سأدخل بجلالتي على جيش المخشثين هؤلاء ، وسوف أشبعهم قتلا وذبحا ، وسوف أطرحهم أرضا ، وأدخل فى قلوبهم الرعب فردا فردا » .

أما الكتاب الرابع « المؤسسة العسكرية المصرية » فمن عجيب أمره أنه وهو باللغة الانجليزية فإن كاتبه مصرى ، هو الدكتور أحمد قدرى ، حيث كان قد قدمه

إلى جامعة بوادبست بالمجر للحصول على الدكتوراه . ولعل تيسير قراءتنا لهذا الكتاب بالذات يمثل فضيلة من فضائل الترجمة التي لا يقتصر دورها على مد الجسور إلى الثقافة العالمية ، وإنما يمتد إلى فكرنا العربى حين يصبح فى دائرة إهتمام الأوساط العلمية والثقافية فى العالم . إننا نعرف من خلال هذا الكتاب ما نجهله عن عبقرية مصر العسكرية وعن ريادتها فى حروب التحرير ، وسبقها فى اكتشاف الاستراتيجية العسكرية . . إلى آخر هذه الموضوعات التي لا تتسیر لنا ، وتلقى أضواء على تاريخنا فى الأوساط العالمية .

إن كتابا مترجما يتضمن هذه الكتب الأربعة يستحق كل التقدير . . يا ليت دور النشر تهتم بهذا النوع من الكتب .

**سامح كريم**



## مقدمة الطبعة الثالثة

بقلم : مختار السويفى

لهذا الكتاب قصة لا بأس من ذكرها . . ففى أوائل الثمانينيات تولى صديق العمر الأستاذ الكبير محمد العزب موسى [ رحمة الله وأكرم مثواه ] الاشراف على تحرير ملحق جريدة « الأخبار » القاهرية الذى كان يصدر فى تلك الأيام متضمنا ثلاث صفحات تلحق بالجريدة بصفة أسبوعية كل يوم ثلاثاء .

وكانت الصفحة الأولى من هذا الملحق تتناول موضوعات عن عديد من « الشخصيات العالمية » التى تصنع أحداث العالم أو تؤثر فيها . . وكانت الصفحة الثانية تتناول موضوعات عن أهم « الأحداث العالمية » التى وقعت خلال الأسبوع السابق لصدور الملحق . . أما الصفحة الثالثة فكان عنوانها « كتاب يقرأه العالم » وكانت تعرض بعض الكتب ذات الطابع السياسى الدولى .

وقد عُرف الأستاذ محمد العزب موسى بثقافته الموسوعية الواسعة ، وبدقته الشديدة فى البحث والدراسة وبأسلوبه المتمكن الرصين فى الصياغة والكتابة .

وكم كنت أراه منكبًا على تصحيح وإعادة صياغة مآكثبه الكتاب والصحفيون نشره فى هذا الملحق الذى يشرف على تحريره . وكان يحرص دائما على إثراء القارىء بالمعلومات الجديدة ، وإغراء القارىء بهذا الأسلوب السهل الجذاب .

وذات يوم عرض على رغبته فى تطوير وتجديد الصفحة الخاصة « بكتاب يقرأه العالم » . . وإنه رأى تمهيز هذه الصفحة تمهيزاً خالصاً . . وأن تخصص هذه

الصفحة لتعميق إحساس القارئ المصرى بتاريخه التليد وحضارته العظيمة فى مختلف العصور التاريخية من فرعونية وبطلمية ورومانية وقبطية وإسلامية . .  
وسألتنى : أليس هذا أفضل بكثير من تزويد القارئ بمعلومات قد لا تهتمه عن الأحوال السياسية فى بعض دول العالم المعاصر . . ؟  
قلت له : إن تزويد القارئ بأحوال السياسة العالمية له شأن لا يغفل . . ولكن تبصير القارئ بالتاريخ المصرى والحضارة المصرية يعتبر رسالة وطنية لها الأولوية المطلقة .

قال وهو يشير إلى عشرات الكتب الحديثة المرصوفة على رفوف مكتبى والتى كتبها علماء محدثون فى علم « المصريين » : كم أود أن نزود القراء بما تتضمنه هذه الكتب التى تتناول تاريخ مصر ، وتثريهم بتلك المعلومات الضافية التى ظهرت حديثا فى علم التاريخ وعلم الآثار .

وهكذا بدأنا سوياً فى اختيار بعض الكتب العالمية التى تتناول موضوعات عن جذور مصر الضاربة فى التاريخ القديم ، والمتشعبة فى الروابى الخضر على ضفاف النيل العظيم الذى يشقها من الجنوب إلى الشمال ، والممتدة إلى أعماق القارة الأفريقية باعتبار مصر عاصمة لأفريقيا كلها .

لم تكن العملية سهلة ولا هينة ، فقد كان من العسير غاية العسر أن يتم عرض وتلخيص أى كتاب من هذه الكتب القيمة فى صفحة واحدة من صفحات الجريدة ، الأمر الذى اضطررنا معه إلى عرض الكتاب الواحد فى عدة حلقات تنشر أسبوعياً حتى يمكن أن يتزود القارئ بمشتملات فصول الكتاب من مادة علمية لا تخفى أهميتها .

وكانت الخطة التى اتبعناها هى الالتزام بتقديم ملخص وافٍ للكتاب المعروض ، يغنى القارئ بقدر الإمكان عن قراءة الكتاب الأصيل إذا تسنى له الحصول عليه . وكانت النتيجة أن عرض الكتب بهذه الطريقة أعطانا مطلق الحرية فى إعادة صياغة فصول الكتاب بأسلوب بسيط يتمشى مع قدرات واحتياجات القارئ العام ، مع الالتزام ألا يخل هذا التلخيص والعرض المبسط بالمادة العلمية التى يشتمل عليها الكتاب المعروض .

وقد تتابع اختيارى لمجموعة من الكتب العالمية التى صدرت حديثاً ، وعرضتها



على صفحات جريدة الأخبار عرضاً مسبهاً واقياً لكل ما ورد بها من موضوعات عن مصر والنيل وأفريقيا . وأشير فيما يلي إلى أهم هذه الكتب :

- ARCHAIC EGYPT- CULTURE AND CIVILIZATION IN EGYPT FIVE THOUSAND YEARS AGO.  
BY : W.B. EMERY .
- ISLAND OF ISIS  
BY : WILLIAM MACQUITTY
- WARRIOR PHARAOHS  
BY : P.H. NEWBY
- RAMSES THE GREAT  
MASTER OF THE WORLD  
BY : WILLIAM MACQUITTY.
- OFFICERS AND OFFICIALS  
IN THE NEW KINGDOM  
BY : DR. AHMED KADRY
- SUNRISE OF POWER  
BY : GOYCE MILTON
- RELIGIONS OF AFRICA  
BY : THOMAS LAWSON
- AFRICA- A SOCIAL GEOGRAPHY.  
BY : ANTHONY SILLERY.
- THE ART OF BENIN  
BY : PAULA BEN- AMOS.
- VODOO - AFRICA'S SECRET POWER.  
BY : GERT CHESI.
- THE NILE  
BY : E. BARTON WORTHINGTON.
- BLACK AFRICAN KINGDOMS AND EMPIRES.  
BY : JUAN JOSEPH.

ويعون من الله وفضله وتوفيقه ، فقد وجدت هذه الدراسات قبولاً حسناً ومشكوراً لدى القراء ، تمثل في عشرات الخطابات التي كانت تصلني مرسلة على

عنوان جريدة الأخبار بمؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة . وقد شجعنى هذا الإقبال على مواصلة عرض المزيد من هذه الكتب العالمية التى تهم القارئ المصرى والقارئ العربى بصفة عامة .

وقد اقترح على الأستاذ محمد رشاد مدير عام الدار المصرية اللبنانية أن أقوم بتجميع عروض بعض هذه الكتب التى تتناول موضوعات عن « مصر والنيل » لإصدارها فى كتاب واحد يحمل نفس العنوان . واخترنا أربعة من الكتب التى أشرنا إليها مسبقا ، وهى على وجه التحديد :

- النيل : النهر والناس .

- مشرق القوة .

- رمسيس الأكبر : سيد العالم .

- المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية .

وهكذا صدر كتاب « مصر والنيل » . . وبين يدي القارئ الآن الطبعة الثالثة منه فى ثوب جديد يختلف إلى حد ما عن الطبعتين السابقتين .

ولا يسعنى إلا أن أتقدم بكل الشكر والتقدير لروح الصديق الكريم الأستاذ محمد العزب موسى ، فهو صاحب فكرة نشر عروض حرة لهذه الكتب الحضارية بجريدة الأخبار . . ولروح الأستاذ الكبير موسى صبرى رئيس مجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم ورئيس تحرير جريدة الأخبار الذى كان يحثنى باستمرار على مداومة عرض هذه النوعية من الكتب . . وللاستاذ الكبير سامح دريم المشرف على صفحة الأدب بجريدة الأهرام والذى تفضل مشكوراً بتقديم هذه الطبعة الثالثة من كتاب مصر والنيل . . وللناشر الكبير الأستاذ محمد رشاد صاحب الفكرة التى كانت وراء هذا الكتاب حتى صدرت طبعته الثالثة بهذه الصورة .

وكل التوفيق فضل من الله

مختار السويفى

كورنيش النيل : القاهرة

أول يناير ١٩٩٦



النيل : النهر والناس

## 1. THE NILE

BY: E. BARTON WORTHINGTON.



## المؤلف .. والكتاب

- دكتور بارتون ورثنجتون .. من أكبر خبراء علوم البيئة .
- تولى رئاسة لجنة بحوث المياه بالمجمع الدولي للاتحادات العلمية .. ومنصب كبير العلماء بمنظمة صيانة الموارد الطبيعية بالمملكة المتحدة .
- قام بمجموعة عديدة من الرحلات العلمية في مختلف قارات ومناطق العالم .. وألف العديد من الكتب والبحوث العلمية عن أشهر أنهار العالم وبحيراته العذبة ..
- وكتابه عن « نهر النيل » عبارة عن تسجيل لرحلة صاعدة في مجرى النهر، تبدأ شمالاً من أقصى مناطق الدلتا ومنافذها .. إلى الجنوب حتى منابع النيل العليا في بحيرة فيكتوريا ونهر كاجيرا وجبال القمر ..
- وتتناول الرحلة أهمية نهر النيل في التاريخ القديم والتاريخ الحديث .. وطبيعة تكوين النهر ونظامه المائي البالغ التعقيد .. وتاريخ الجهود البشرية في السيطرة على النهر وتنظيم إمداداته بالمياه للمناطق التي يجري فيها .
- كما يتناول الكتاب دراسة ملخصة عن طبيعة الحياة التي يتيحها النهر للإنسان والحيوان والنبات على ضفافه وعلى طول الوادى الذى يصنعه ..
- كما يشير إلى دراسة بيئية موجزة عن المشاكل الحديثة للشعوب التي تعتمد على نهر النيل في حياتها ، مع التركيز على مشاكل الانفجار السكاني ومشاكل السيطرة على الموارد الطبيعية .

## • تقديم

في صيف كل عام ، يحتفل المصريون — قداماؤهم ومُخذثوهم — بعيد وفاء النيل ، نهرهم الخالد الذى وهبهم الأرض التى يعيشون عليها ، ومهد أمامهم سبيل الحياة ، ومنحهم القدرة على إرساء أعظم حضارة فى تاريخ الإنسان ..

وكان الاحتفال بوفاء النيل حتى عهد قريب ، من أكثر الاحتفالات شعبية وصدقاً . ولكن أصابه الإهمال ضمن ما أصاب ، فانزوى العيد الشعبى وتقلص ، وأصبح عيداً من الدرجة الثانية لا تعطل فيه المصالح والدواوين .

وفى إحدى هذه الاحتفالات منذ نصف قرن من الزمان ، تساءل « شوقى » غاطباً النيل فى مجراه : من أى عهد فى القرى تندفق .. وبأى كف فى المدائن تغدق .. ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقق .. ؟ !

هذه التساؤلات التى أطلقها « شوقى » تمجيداً للنيل .. كانت صدى للتساؤلات المماثلة التى طالما ترددت فى شمال الوادى عبر آلاف السنين .. وما هذه الاحتفالات الشعبية التى كانت تقام كل عام عبر أكثر من سبعين قرناً من الزمان ، إلا اعتراف من المحتفلين بفضل النيل عليهم ، حين يفيض و يفى بالخيرات على كل من الأرض والناس ..

وعبّر المصرى القديم عن عرفانه بمجائل النهر وفضله العظيم على الأرض المصرية والإنسان المصرى .. وأطلق عنان بهجته فى تعبير شعرى جميل :

« هو النيل .. يفيض على الأرضين [ الوجه القبلى والبحرى ] .. فتمتلىء مخازن الحبوب .. وتزدحم المستودعات .. وتتوافر حاجات الفقراء ..

إنه النيل .. لأبنائه جميع النباتات .. وإذا هولم يطعم الناس .. هجر النعم المساكن .. وأصبحت الأرض بالاضمحلال .. !! » .

هو النيل إذن .. أعظم أنهار الدنيا .. وعلى ضفافه الشمالية ، نشأت أعظم حضارة صنعها الإنسان ..



هو النيل .. يفيض على الأرضين .. فتمتلئ مخازن الحبوب ..  
وتزدحم المستودعات .. وتتوافر حاجات الفقراء ..

## ● رحلة النهر.. عبر المكان..

كان هناك لقاء عظيم تم منذ نحو (٥٤) مليون سنة .. التقى مجرى النيل الأزرق هابطاً من مرتفعات الحبشة إلى سهول السودان .. بالنيل الأبيض القادم في بطء وجلال عبر رحلة طويلة من منطقة البحيرات بوسط أفريقيا ..

ومنذ كان هذا التلاقى بين النيلين واتحادهما في نيل واحد ، اندفع النهر نحو الشمال ليخترق رمال الصحراء فيقسمها إلى صحراوين شرقية وغربية .. ويفرش أرض الوادى الخصيب بصنوف من الخيرات لا تقع تحت حصر ..

ويقطع النهر العظيم رحلة هائلة تمتد نحو (٦٦٤٠) كيلومترا ، منذ أن يخرج من أقصى منابعه بوسط أفريقيا ، حتى يصب في البحر المتوسط .. ماراً ورباطاً بين تسع دول أفريقية [ حسب النظرية الحديثة لتحديد منابع النيل ] هي : مصر والسودان وإثيوبيا وكينيا وأوغندا وتانزانيا وزائير ورواندا وبوروندى ..

هذه الرحلة الطويلة تتفاوت فيها المناطق المناخية من النقيض إلى النقيض .. فبينما يبلغ مستوى هبوط الأمطار في مناطق المنابع إلى أعلى من « ألف » ملليمتر في السنة ، فلا يزيد هذا المستوى في وادى النيل المصرى عن « عشرة » ملليمترات في السنة ..

ولذلك فلم تكن هناك مشكلة مياه في المناطق الجنوبية للنهر ، بينما كانت المشكلة الحقيقية في رحلة النهر نحو الشمال من وادى حلفا حتى أطراف الدلتا ، حيث لا يمكن الاعتماد على المطر إطلاقا في عمليات الزراعة ، وحيث تصبح السيطرة على مجرى النيل وعلى مياهه ، أمراً واجباً وحيوياً إلى أقصى حد .. ولذلك فقد كان لابد على المصريين الأوائل أن يتعلموا الحساب والكتابة والهندسة ليتفهموا النهر أكثر وأكثر ، وليشتركوا معه في تقدم الحضارة الإنسانية على وجه العموم ..

## ● المنبعان .. الأزرق والأبيض ..

والنيل الأزرق والنيل الأبيض نهرا من طبيعة مختلفة .. ولكن عليهما معاً يعتمد النيل الرئيسى في الحصول على مائه وقت الفيضان وطوال أيام السنة .



والمجرى الذى شقه النيل الازرق منذ خروجه من بحيرة «تانا» بمرتفعات الحبشة حتى ملتحقه بالنيل الأبيض عند الخرطوم ، ظل على درجة كبيرة من الثبات والاستقرار النسبى عبر ملايين السنين ..

أما النيل الأبيض ، فقد تعرض عبر هذا الزمن لعدد من العوامل الجيولوجية التى جعلته يغير مجراه عدة مرات .. فقد حدثت بعض الانكسارات فى القشرة الأرضية بوسط افريقيا ، وتكون الأخدود الافريقى العظيم ، وتكون بسببه الوديان الصدعيان بوسط القارة ، كما تكونت المساحة الهائلة التى تشغلها الآن بحيرة فيكتوريا ..

وبعد استقرار القشرة الأرضية على هذا النحو ، أخذت الكثير من أنهار المنطقة تشق طريقها نحو البحيرة لتزويدها بالمزيد من المياه ، كما أخذت بعض الأنهار والنهيرات الأخرى تشق طريقها خارجة من البحيرة .

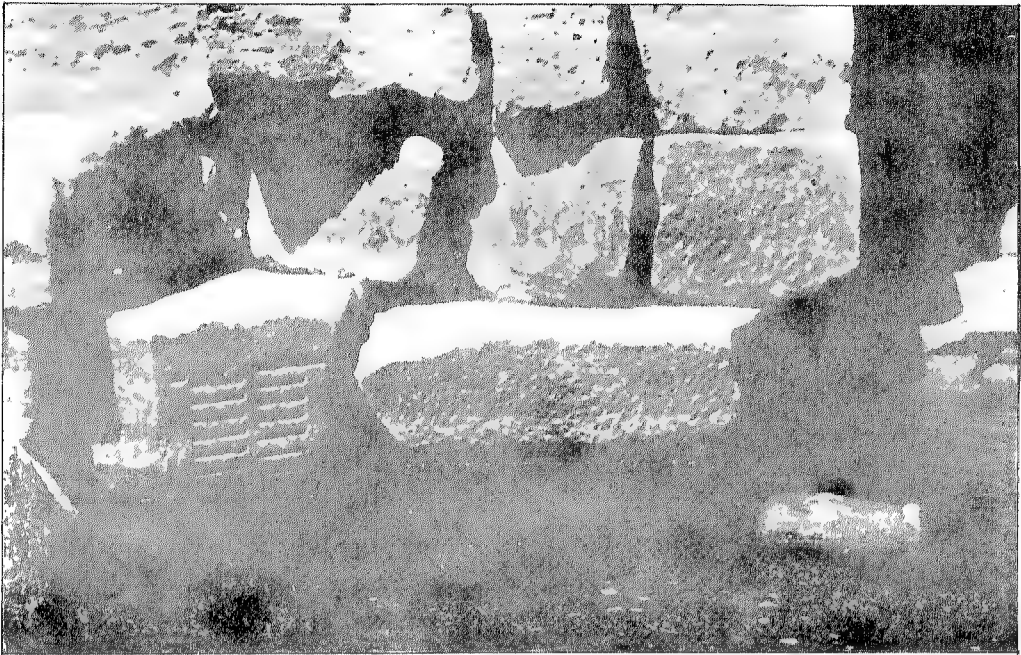
والمجموعة المائية التى نطلق عليها اسم النيل الأبيض تبدأ فى هذا المكان ، عند خروج نيل فيكتوريا من بحيرة فيكتوريا .

إلا أن هناك نظرية حديثة تُرجع منابع النيل العليا إلى منطقة «بوروندى» Burundi عند الحدود الشمالية لبحيرة تنجانيقا ، على النحو الذى سنعرضه تفصيلا فيما بعد .. وعلى أية حال فيمكن القول بصفة عامة أن مساحة المناطق التى يحصل منها النيل على مائه ، تبلغ نحو ثلاثة ملايين كيلومتر مربع .. أى نحو عُشر مساحة قارة افريقيا بأكملها .

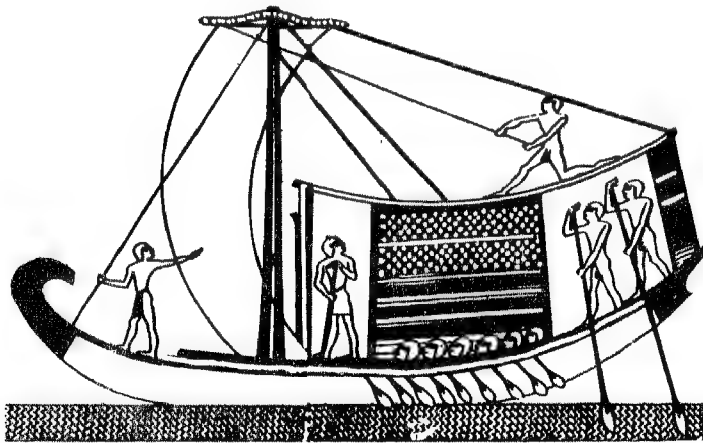
## ● معروف فى الشمال .. مجهول فى الجنوب ..

عندما شق النيل واديه فى شمال شرق افريقيا ، تجمع الإنسان حول شاطئيه على طول المجرى وفى مناطق دلتاه . وبدأ يتعايش مع النهر ، ويصنع حضارة مستقرة تقوم على العلوم الرياضية والهندسية ، بعد أن علمه النهر كيف يمسك بالإزميل ليحفر على الحجر ، أو يمسك بالقلم ليخط على الورق .

حتى أكثر الآثار الموهلة فى القدم والتى تركها لنا أوائل قدماء المصريين كانت لا تغفل النهر أبداً . وفى الغالبية العظمى للنقوش التى تم العثور عليها ، حرص المصرى



من أقدم مقاييس النيل .. بناء المصريون القدماء  
على الصخور الجرانيتية بجزيرة إلفنتين بأسوان



كان لدى المصريين القدماء عدة آلاف من السفن الشراعية التي  
كانت تدرع النيل جيئة وذهاباً

القديم على رسم النيل وقواربه وسفنه وأحراشه ونباتاته وزراعاته وأسماكه وحيواناته . كما أن نمط الحياة المصرية السائد في مصر القديمة ومصر الحديثة على السواء ، يدل بصفة قاطعة على أن المصريين يعرفون نهرهم تماماً ، وأنهم درسوا أحواله دراسة مستفيضة متأنية ، استمرت منذ الزمن القديم حتى أيامنا هذه .

ومن الغريب حقاً ، أنه بالرغم من بلوغ سكان شمال وادى النيل أعلى مراتب الحضارة المعروفة منذ آلاف السنين ، إلا أن قدماء المصريين لم يعرفوا « على وجه اليقين » من أين يأتى النهر بمائه ، ولا أين تقع منابعه الحقيقية . وأثبتت الآثار التى تركوها أنهم كانوا يقومون برحلات مستمرة إلى الجنوب الداخلى وراء النوبة . واستكشفوا النهر من جنوب الخرطوم حتى منطقة السدود العظمى . وهناك استحال عليهم التقدم صاعدين إلى منابع النهر فى المنطقة الاستوائية .

ومن الأغرب أن هذه المناطق التى تقع جنوب التقاء النيلين الأبيض والأزرق ، ظلت من المجهل طوال ذلك التاريخ الطويل ، اللهم إلا منذ نيف ومائة عام فقط ، حين استكشفت تلك المناطق ووضعت لها الخرائط الصحيحة لأول مرة .

## ● نحو الجنوب .. صعوداً مع النهر.

وبمنظرة خاطفة على برنامج الرحلة النيلية التى يتضمن الكتاب وصفاً تسجيلياً لها ، نرى أن طبيعة المناطق التى سنزورها ، سيتحتم علينا استعمال العديد من سبل المواصلات ، كالطرق البرية والسكك الحديدية والصعود فى مجرى النهر بالقوارب والبواخر النيلية الشهيرة ، وفى بعض مناطق الرحلة لن نجد أمامنا إلا امتطاء ظهر الحيوان .

ولأن الرحلة ستكون صعوداً من الشمال إلى الجنوب ، فسوف نبدأ أولاً بدلتا النيل التى يصب فرعها « الباقيان » فى البحر المتوسط . وستأكد من أن الدلتا عبارة عن بقعة هائلة من النباتات الخضراء ، تحيط بها الصحارى من الشرق والغرب ، كما تحيط الصحارى والمناطق الجبلية بالنهر وضافه والأراضى الزراعية التى تعتمد عليه .. وسنرى وادى النيل من مفرق الدلتا حتى السد العالى جنوب أسوان ، عبارة عن شريط أخضر ضيق ، وسط أراض صفراء قاحلة تحف به من الجانبين .

وبعد أن نترك بحيرة السد العالى للدخول إلى وادى حلفا ، سنرى بطاحاً شاسعة من الأراضي المشققة ، تنبت فيها أعشاب مختلفة ونباتات شوكية .. فيا عدا منطقة الخرطوم وأم درمان وأرض الجزيرة .

وكلما توغلنا نحو الجنوب .. تحول النهر إلى مستنقعات ومساحات مائية تمتد من الأفق إلى الأفق ، مغطاة بأدغال كثيفة من نبات البردى « بابيروس » Papyrus وهو النبات الذى استخدمه المصريون القدماء كورق للكتابة ، والذى أعطى للورق اسمه الأجنبى « بيبير » Paper

ثم ندخل بعد ذلك منطقة واسعة من الغابات المدارية والغابات الاستوائية التى تنمو فيها أعشاب كثيفة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة أمتار ، وحيث يسقط عليها المطر بأعلى منسوب ..

وإذا واصلنا الطريق صاعدين فى مجرى أحد روافد النيل التى تنبع من جبال رونزورى « جبال القمر » سنرى هناك غابات الخيزران على ارتفاع نحو ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر . وفى هذه المنطقة سنرى مساحة جبلية هائلة يجلب قممها جليد لا يذوب أبداً .

وفى خلال رحلتنا سنرى مئات من أنواع الحيوان ، منها الصغير ومنها الكبير ومنها الضخم كالأفيال والجاموس وفرس النهر « سيد قشطة » والأسود .. والزواحف كالتماسيح وثعابين الأصلة التى تصل فى طولها نحو ستة أمتار ، وبعض أنواع السحالى التى يزيد طولها على متر ونصف متر ..

وفوق المسطحات المائية الشاسعة سنرى ملايين من الطيور الصغيرة والضخمة ، أغلبها يجيد صيد الأسماك . وفى كل مناطق النيل عبر مجراه الطويل تعيش عشرات ومئات الأنواع من الأسماك النهرية التى تعيش فى المياه العذبة . وبعض هذه الأنواع يعتبر أسماكاً نيلية ليس لها مثيل فى أى نهر أو أى مكان آخر من العالم ، مثل سمك الفريخ النيلى الذى يتضخم حتى يزن بعضه نحو ١٣٦ كيلوجراماً . وسمك النمر النيلى بأسنانه الحادة المتوحشة .

أما الأجناس البشرية التى سنصادفها خلال تلك الرحلة ، فتبدأ بالمصريين — المحدثين والقدماء — وأغلبهم من الجنس الحامى ذوى البشرة القمحية أو البنية الخفيفة . ثم نجد فى جنوب الوادى المصرى مجموعة من النوبيين ذوى البشرة السمراء الداكنة . وعندما



أفراس النهر «سيد قشطه» .. من أشهر الحيوانات النيلية ..  
يقضى النهار في الماء، ويخرج ليلاً للبحث عن الطعام



«مالك الخزين» يقلع طائراً .. وهو من أشهر الطيور صائدة الأسماك بمنطقة السدود



أحد ملاك القطعان .. ينتمى إلى قبائل الدنكا التى تعتبر من أشهر  
الشعوب النيلية بمناطق جنوب السودان

نتوغل جنوباً سنرى شعوباً نيلية أخرى أهمها الشيلوك والدنكا الذين يعيشون على صيد السمك ورعى القطعان . وسنعجب من طريقة وقوف الراعى فى تلك المنطقة لساعات طويلة على ساق واحدة ومستنداً إلى رمحہ .. تماماً مثلما يقف طائر اللقلق المنتشر فوق وحول المسطحات المائية ..

وأخيراً عندما نصل إلى أقصى منابع النيل جنوباً ، سنرى قبائل وشعوب البانتو .. والقاسم المشترك الأعظم بين هؤلاء الملايين من البشر بأجناسهم المختلفة ، هو اعتمادهم جميعاً على النيل .. زراعة ورعىً وصيداً وطاقة ..

## ● رحلة النهر .. عبر الزمان ..

ولنهر النيل ذاتية خاصة أعطته معالم شخصية يتميز بها عن غيره من الأنهار الكبرى فى العالم . فهو يمتد من الجنوب إلى الشمال فى استقامة غير عادية من الناحية النسبية ، رغم وضوح عدد من ثنيات النهر فى السودان ومصر .

وجريان النيل على هذا النحو من الجنوب صوب الشمال يعطيه صفة فريدة بين أنهار العالم الكبرى التى تجرى غالباً من الغرب إلى الشرق والتى تقع غالباً فى منطقة مناخية واحدة .. أما النيل فيبدأ رحلته عند خط عرض ٣,٥ درجة جنوب خط الاستواء ، وتستمر رحلته عبر ٣٤ درجة من الخطوط العرضية حتى تنتهى عند المصبين فى خط عرض ٣١ درجة شمال خط الاستواء .

هذه الرحلة الطويلة أعطت للنيل صفة جوهريّة أخرى يتميز بها ، وهى مروره على مناطق مناخية مختلفة ، تبدأ بالمناخ الاستوائى فالمدارى فالصحراوى وتنتهى بمناخ البحر المتوسط . وكل منطقة من هذه المناطق لها طبيعة نباتية وبشرية تميزها عن بقية المناطق الأخرى ، ومع ذلك فهى تشترك جميعاً فى رباط واحد ، هو هذا النهر العظيم الذى يتيح لسكانها الحياة ، متمثلة فى الماء والطعام ..

وقد قطع النيل هذه الرحلة الطويلة عبر ملايين السنين حتى وصل إلى شكله وتركيبه الحالى .. ومن الحقائق الجيولوجية أن النهر لم يكن دائماً فى شكله النهائى الذى نراه الآن .. بل غير النهر من شكله عدة مرات ..

ومنذ ملايين السنين لم يكن النيل نهراً واحداً متصلاً ، وإنما كانت هناك ثلاثة نظم نهريّة مستقلة عن بعضها تماماً : أولها النظام النهري في الهضبة الاستوائية ، وثانيها النظام النهري في الهضبة الحبشية ، وثالثها النظام النهري في مصر والنوبة .

ونتيجة لحدوث سلسلة مستمرة من التغيرات الجيولوجية في تلك المنطقة متمثلة في الانكسارات التي أدت إلى ارتفاعات وانخفاضات وتشققات هائلة ، وإلى تكوين البحر الأحمر ومرتفعاته ، وإلى تكوين عدة بحيرات عذبة في وسط القارة ، كما أدت أيضاً إلى حدوث اتصال مباشر بين النظم النهريّة الثلاثة ، وتكوين نهر عظيم واحد يمتد من وسط إفريقيا حتى أقصى شمالها الشرقي ..

### ● نيل غريب .. اسمه النيل الليبي !

وقبل حدوث هذا الاتصال بين النظم النهريّة الثلاثة ، كان هناك نظام نهري غريب يقع في منطقة مصر والنوبة .. كان هناك ما يسمى « النيل الليبي » وهو نهر قديم جداً ولا يمت إلى نهر النيل الحالي بأدنى صلة .

كان هذا « النيل الليبي » ينبع من الجنوب الشرقي والغربي لمناطق النوبة الصحراوية التي كانت في عصره من المناطق غزيرة الأمطار والنباتات وتصلح تماماً للسكنى البشرية . وكان هذا النهر يسير في مجرى متعرج حتى يصل إلى دلتاه التي كانت تقع شمال منطقة الفيوم الحالية .. حيث عثر على آثار من ترسيب هذا النهر القديم يصل سمكها إلى ( ١٥٠ ) متراً .. كما عثر على بقايا حيوانات ثديية ضخمة وأشجار ضخمة متحجرة .. غير أن البحوث الخاصة بتتبع المجرى القديم لهذا النهر وتحديدده ، تتطلب المزيد من الوقت والجهد والتمويل .

وعلى أية حال فإن التغيرات التي حدثت في القشرة الأرضية والتي أشرنا إليها سابقاً ، قد ساهمت بالإضافة إلى التغيرات التي حدثت في الظروف المناخية ، في زوال النيل الليبي ونشأة ونمو نظام نهري آخر ليجرى في النوبة ومصر يختلف تماماً عن النظام النهري القديم .

ولذلك يقال إن النيل المصري الذي يبدأ من جنوب النوبة حتى شمال الدلتا يعتبر من أحدث أجزاء نهر النيل تكويناً من الناحية الجيولوجية .. بالرغم من أن ضفافه كانت موطن أقدم حضارات الإنسان وأكثرها تقدماً وتنظيماً وتمديناً ..



## ● هل مصر حقاً .. هبة النيل .. ؟ !

لا يكاد يخلو كتاب يبحث في شئون النيل من ذكر هذه الجملة المشهورة : « مصر هبة النيل » .. وهكذا فعل الكتاب الذى نقوم بعرضه .. وقد ظل صدى هذه الجملة يتردد منذ أن قالها « هيرودوت » حين زار مصر في ثلاثينات القرن الخامس قبل الميلاد وحتى اليوم .. ولكن ما هو مدى الحقيقة في هذه الجملة .. ؟ !

لا شك أن النيل كان ومازال له أكبر الأثر في حياة المصريين .. بل ولولا لما وجدت مصر بتاريخها وحضارتها ولما وجد المصريون الذين عمروا هذا الوادى لآلاف طويلة من السنين ..

ولكن النيل وحده لا يعدو أن يكون نهراً مثل غيره من الأنهار الكبرى ، التى نشأت على ضفافها الحضارات القديمة الأخرى .. فإلى هو السر الذى ميز حضارة وادى النيل المصرى بصفة خاصة ، وأعطاه هذا القدر المعروف من العراقة والتقدم والتفوق على الحضارات الأخرى التى عاصرتها ؟ !

هناك مجموعة أخرى من العناصر التى اشتركت في صنع الحضارة التى نشأت على ضفاف النيل المصرى القديم .. عناصر بيئية ومناخية ومكانية [ موقع مصر الجغرافى بين قارتين ] . بالإضافة إلى عنصر سكانى هام يتمثل في طبيعة الشعب الذى صنع هذه الحضارة .

هذه العناصر — وأهمها النيل بطبيعة الحال — هى التى أعطت للحضارة المصرية طبيعة الاستقرار ، وهى التى مهدت لها التقدم والتفوق والازدهار .. فبعد أن تجمع أوائل المصريين ليعيشوا على ضفاف النهر وعلى أراضى الدلتا .. بدأوا يزرعون الأرض وبدأوا في الوقت نفسه يكيّفون حياتهم طبقاً لطبيعة النهر وطبيعة الظروف البيئية والمناخية .

وحين كان يفيض النهر على ضفتيه ، كان يفرق الأرض ويزيل البيوت .. لذلك فقد كان هؤلاء الأوائل من المصريين يواجهون خطراً عاماً مشتركاً ، لم يكن بد من أن يتضافروا معاً في اتقائه .. وقد أملت الظروف عليهم أن ينشؤوا بيوتهم وقراهم على روابى عالية وأكوام طينية وحجرية يصنعونها بأنفسهم في عجل جماعى متضافر .. وبهذا حلت الوحدة القروية أو المدنية محل الوحدة القبلية التى كانت تميز الجماعات الإنسانية المتنقلة غير المستقرة في أرض بعينها .. وهكذا كان الإحساس بالوحدة والاتحاد والتكامل

الاجتماعى هو الطابع الذى ميز وادى النيل المصرى ، رغم انقسام مصر نفسها — بحكم الطبيعة — إلى وجه قبلى ووجه بحرى ..

هذا الإحساس المميز بالوحدة هو الذى أوجب على المصريين توحيد الوجهين وإنشاء الدولة .. ومن المعلومات المشهورة أن الملك مينا أول ملوك الأسرة الأولى وابن الوجه القبلى ، هو الذى وحد الوجهين فى مملكة واحدة وذلك نحو عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد .. ولكن البحوث التاريخية الحديثة ، أثبتت أن عملية الوحدة التى فرضها الوجه القبلى كانت مسبقة بعملية توحيد فرضها الوجه البحرى فى زمن يرجع إلى ما قبل عصر مينا بنحو ألف عام ، وأعلى وجه التحديد سنة ٤٢٤٠ قبل الميلاد .. وذلك حين قام ملوك مقاطعة الصقر « حورس » من عاصمتهم « دمنهور » الحالية ، ووحّدوا القطرين واتخذوا عاصمتهم فى منطقة أون « عين شمس وهليوبوليس » .

وعلى أية حال فإن « الدولة » التى قامت على ضفاف النيل المصرى قد قامت أولاً وأخيراً بفضل النيل وفيضانه .. ولكنها ما كانت تقوم لولا أن أنشأها السكان المتميزون الذين كانوا يعيشون على ضفاف النيل ودلتاه .. والذين كانوا أصحاب الفضل الأكبر فى الحضارة الإنسانية ...

وبعد هذا المسح السريع لطبيعة النهر وتكوينه وتاريخه ، أصبحنا مستعدين لرحلة الصعود فى النهر من مصبه حتى منابعه ، فى سياحة علمية تسجيلية لا تخلو من طرافة ولنبدأ الآن سياحتنا البديعة فى النيل المصرى كما سجلها « بارتون ورثجتون » فى كتابه عن « نهر النيل » ..

### ● اسمها باليونانية : دلتا .. !

التعريف العلمى للدلتا أنها بقعة طينية تتكون عند مصب النهر عندما يقوم النهر بترسيب كميات كبيرة من الطمي والغرين لا تستطيع تيارات المد — أو غيرها من العوامل — إزالتها . وقد أطلق الإغريق اسم الدلتا على دلتا نهر النيل حين رأوها تشبه فى شكلها الحرف الرابع من أبجديتهم ، وهو حرف « الدال » الذى يكتب على شكل مثلث ..

والسبب فى اتخاذ دلتا الأنهار هذا الشكل ، يرجع إلى أن عملية الترسيب الأولى فى مجرى النهر الأدنى ، تؤدى إلى تفرع المجرى الرئيسى وانسيابه فى عدة فروع تأخذ شكل

المروحة أو المثلث .. وفي جميع الأحوال تتميز دلتا الأنهار بالخصوبة وبالتالي تزدهم بالسكان .. كدلتا نهر النيل وأنهاره وانجھو والجانب والمسيبي والبراهما باترا .

ومنذ سنوات قليلة مضت ، كانت سواحل البحر المتوسط القريبة من فرعى دلتا النيل تتميز بعكارة المياه ، حيث تتحول زرقة مياه البحر غالباً إلى لون يميل إلى البنى .. وكان السبب في ذلك مايقذفه النيل من الطمي والغرين في جوف البحر .. وبعد بناء السد العالي جنوب أسوان ، احتجز الطمي أمام السد واختفى بالتالي اللون البنى الذى كان يميز مياه النيل المصرى وقت الفيضان .

وبالقرب من مخرجى فرعى الدلتا عند رشيد ودمياط ، يقع أهم مينائين في مصر ، بورسعيد شرقا ، والاسكندرية من ناحية الغرب .. ومن الاسكندرية سنبداً سياحتنا في وادى النيل ..

## ● .. كانت منارة العالم !

تقع مدينة الاسكندرية على شريط ضيق من الأرض بين مياه البحر المتوسط ومياه بحيرة مريوط ، وهى بحيرة ضحلة من الماء المالح .. واسم المدينة يفوح منه عطر التاريخ .. فقد بناها الاسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد . وظلت المدينة منذئذ ولقرون طويلة ، أهم مركز ثقافى وتعليمى في العالم القديم كله . وكانت بالتالى على درجة من الرقى والحضارة والجمال المعمارى بشكل لم تسبقها إليه أية مدينة أخرى .

وقبل مولد المسيح بعقود قليلة ، كانت الاسكندرية مرتعاً لغراميات « كليبواترا » مع يوليوس قيصر ومارك أنطونيواً واحداً بعد الآخر .. إلى أن كانت نهايتها التراجيدية منتحرة بلدغة الحية .. وابتدأ عندئذ عصر الحكم الرومانى في مصر .

ثم قام العرب بفتح مصر في عام ٦٤١ ميلادية ، ومنذ هذا التاريخ تقلصت أهمية الاسكندرية كمدينة مصرية مزدهرة ، بعد أن بدأت في الظهور مدن داخلية أخرى قرب النيل ، وقبيل مفرق الدلتا ، كانت أكثر أهمية لنظام الحكم الجديد [ الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ] .

وقد تعرضت الاسكندرية لسلسلة فظيعة من المآسى والنكبات ، فقد سقطت مناراتها التى كانت إحدى عجائب الدنيا السبع ، وقيل أن الكتب والمخطوطات التى كانت

تتضمن ذخائر العلوم والمعرفة الإنسانية ، كانت تستعمل وقوداً لتسخين المياه في الحمامات الشعبية ..

ومع ذلك فقد بقيت حتى العصر الحديث مجموعات أثرية نفيسة من مختلف العصور الماضية ، يتم العثور عليها في الحفريات بين حين وآخر .. ولعلّ مِسَلَّتَى كليوباترا خير شاهد على تلك الحضارة الماضية .. وقد نقلت المسلتان وأعيدت إقامتها في مكانين بعيدين تماماً عن وادى النيل .. حيث أقيمت الأولى على ضفاف التيمس بلندن ، وأقيمت الثانية بمدينة نيو يورك .

ومنذ الخمسينات بدأت عملية استصلاح واستزراع الأراضى الصحراوية المتاخمة للحدود الغربية لدلتا النيل جنوب الاسكندرية حتى مشارف القاهرة من جهة « مديرية التحرير » . وهكذا امتدت الشرايين من النيل لتروى أراضى لم يكن من الممكن زراعتها لولا وفرة المياه التى يأتى بها هذا النهر العظيم ..

### ● اختراق الدلتا .. مكانا وزمانا ..

والسفر بالسكك الحديدية من الاسكندرية إلى القاهرة عبر خط يأخذ في عمومها اتجاهها جنوبياً شرقياً ، مخترقاً دلتا النيل بين أهم مناطقها .

وتعتبر الدلتا من أكبر المناطق كثافة سكانية في مصر بل وفي افريقيا كلها .. وبقليل من الملاحظة نجد أن المصريين قد استغلوا كل مساحة متاحة من الأرض في الأعمال الزراعية .. وأن مياه الري متوافرة بشكل منتظم جداً طوال السنة .. ولذلك نجد على امتداد البصر وفي مختلف أوقات السنة ، الحقول وقد حفلت بالمحاصيل الزراعية ، وعلى وجه الخصوص الذرة والقمح والأرز والقطن والبرسيم ..

ومن الغريب أنه بالرغم من هذه المساحات الشاسعة من الحقول والأراضى الزراعية الجيدة ، فإن مصر تستورد ملايين الأطنان من القمح من دول وقارات أخرى .. وكانت مصر في التاريخ القديم تنتج من القمح والحبوب ما يكفي حاجة جميع الناس حتى أفقر الفقراء .. ثم يتم تخزين فائض المحاصيل في آلاف الصوامع والمخازن والمستودعات .. وكان الرصيد المخزون في بعض الأحيان يكفي الحاجات الاستهلاكية لعدة سنوات مقبلة .. وكان الشاعر المصري القديم يقول متغزلاً في النيل حين كان يروى حقول القمح :

« لو أن ماتعجنه يدك كان ذهباً .. أو قوالب من الفضة .. لما



لو أن ماتعجنه يدك كان ذهباً .. أوقوالب من الفضة .. لما أكله الناس .. لأنهم  
لا يأكلون الذهب ولا الفضة ، وإنما يأكلون القمح .. وهو أفضل من الأحجار الكريمة .. !!

أكله الناس .. لأنهم لا يأكلون الذهب ولا الفضة وإنما يأكلون القمح .. وهو أفضل من الأحجار الكريمة .. !!»

وبقليل من الملاحظة أيضا نجد أن دلتا النيل ، وإن كانت تتكون أساساً من فرعى رشيد ودمياط ، إلا أن هناك المئات من القنوات المائية العذبة التي تحمل مياه النيل إلى كل البطاح ..

وتعتبر هذه المسارات المائية جزءاً لا يتجزأ من أعرق نظم الري التي أنشأها الإنسان ذلك النظام الذى يقوم أصلاً على السيطرة على مياه النيل والاستفادة بها إلى أقصى حد مستطاع ، حيث حفر الترع والرياحات والقنوات الفرعية ، وأنشئت القناطر والسدود والجسور .. ومازالت حتى الآن تلك الوسائل البدائية التي ابتدعها الفلاح المصرى القديم ، مستعملة في إحكام السيطرة على المياه وتوجيهها إلى الانتاج الزراعى حسب القدر المحسوب .. ولعل آلاف السواقي والشواذيف التي مازالت تستعمل في رفع مياه النيل من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى ، خير شاهد على تغلب الفلاح المصرى القديم على تلك المشكلة قبل اختراع الطلمبات الموتورية بآلاف السنين .

ومن المشاكل التي كانت لدلتا النيل حتى زمن قريب ، مشكلة انخفاض مستوى الأرض عن مستوى النيل ، الأمر الذى كان يمثل خطراً يهدد بإغراق أغلب المناطق إذا فاض النهر فيضانا عالياً ، ولم تكن على النهر كل تلك التحصينات والجسور والإنشاءات التي ظل المصريون يقيمونها عبر تاريخهم الطويل .. ولكن هذه المشكلة قد انتهت الآن تماماً بعد إنشاء السد العالى الذى أصبح يتحكم في فيضان النهر مهما كان عالياً ..

ومن الحقائق الجيولوجية المعروفة عن تاريخ دلتا النيل ، أنها كانت في الأصل خليجاً بحرياً قام النهر بردمه بما يرسبه فيه من بلايين الأطنان من الطمي والغرين في كل عام وعلى مدى ملايين السنين .. وأن الدلتا كانت تتكون في بعض الأزمان من تسعة فروع تقلصت فيما بعد إلى سبعة ثم إلى خمسة فثلاثة .. ثم لم يبق منها في هذه الأيام إلا فرعان اثنان هما رشيد ودمياط .

ومن الحقائق المعروفة أيضاً أن رأس الدلتا ، أى حين يتفرع النيل من مجراه الواحد إلى الفروع التي تتكون منها الدلتا ، كان في موقع يقابل مدينة القاهرة منذ نحو خمسة آلاف سنة .. ثم تحرك هذا الرأس شمالاً وأصبح الآن على بعد نحو (٢٣) كيلومترا عند القناطر الخيرية ..

ولعل من الطريف أن نذكر أن متوسط عرض المجرى الرئيسى للنيل المصرى يبلغ نحو (٧٥٠) مترا .. وإن كان يضيق أويتسع فى بعض مناطق المجرى من أسوان حتى القاهرة .. وحين يتفرع المجرى داخلاً إلى الدلتا بذراعى رشيد ودمياط ، فإن المجرى يحتفظ بمتوسط عرضه ، ولكنه يقسم هذا المتوسط إلى قسمين .. فتوسط عرض فرع رشيد يبلغ نحو (٥٠٠) مترا ، ومتوسط عرض فرع دمياط يبلغ نحو (٢٧٠) مترا .. !

## ● عاصمة النيل ..

يقول المؤلف : حين تقترب رحلة القطار من نهايتها ، و يكاد ينتهى الخط عند مداخل القاهرة ، فإن هذه المداخل إلى تلك المدينة الكبيرة تعطى تأثيراً مؤلماً لمشكلة الفقر وتزايد السكان .. والمؤلف لا يقول ذلك — وهو محق فى قوله — من باب المعايير أو الشماتة ، وإنما يقوله وهو يقدر أن المدينة العريقة التى يتحدث عنها لا تعتبر عاصمة لمصر فحسب ، بل هى أيضاً « عاصمة النيل » باعتبارها أكبر مدينة فى حوض النهر وأكثر مناطقه تحضراً وتمديناً ، بل وباعتبارها أيضاً عاصمة لافريقيا وأكبر مدينة فيها .

وقد أدهشت المؤلف بحق حركة المرور الساخنة التى تمتد وتشتد فى جميع شوارع المدينة ، ومئات وآلاف الأتوبيسات واللوارى وأنصافها والتاكسيات والسيارات الخاصة ، وهى تشق طريقها فى فوضى وبراعة بين عشرات من خطوط الترام ومئات من العربات الكارو والحناطير والموتوسيكلات والتريسيكلات .. وفى وسط هذا الحشد الهائل من المركبات ، يحتشد فى الشوارع — جيئةً وزهاً — مئات الآلاف من الناس الذين يبدو أغلبهم بلا عمل رغم حسن الملابس والهندام !

ويسجل المؤلف ماتحفل به المدينة من المدارس والجامعات والمصانع الكبيرة والصغيرة ودور السينما والنوادر والمحلات التجارية .. كما يقوم بجولة سريعة فى مناطق القاهرة الإسلامية أو القاهرة القديمة ذات الأحياء والشوارع والحارات والدروب التى تحكى مراحل التاريخ الإسلامى فى مصر فى هذه المنطقة ، منذ إنشاء مدينة الفسطاط فى بداية الفتح العربى حتى الآن .. وسجل على وجه الخصوص النشاط التجارى والصناعى والبراعة الحرفية فى أحياء الموسيقى والغورية والصاغة والنحاسين .

والقاهرة مدينة عريقة يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف عام .. أقيمت قرب شاطئ النيل وقبيل مفرقه عند الدلتا بعدة كيلومترات .. وبالتدريج حلت هذه المدينة الجديدة

محل مدينة الاسكندرية وأصبحت عاصمة للديار المصرية ، بعد أن أدت الاسكندرية هذا الدور لمدة أكثر من ١٣٠٠ سنة قبل بناء القاهرة نفسها .. ويكاد تاريخ بناء القاهرة يتعاصر مع تاريخ غزو النورماندين لانجلترا في أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر الميلاديين ..

ومن فوق جبل المقطم يمكن مشاهدة أكبر مساحة من المدينة ، حيث تظهر بوضوح مآذن الجوامع وقبابها والبيوت والعمارات الشاهقة الممتدة حتى خط الأفق الغربى حيث تظهر أهرامات الجيزة .. و يظهر النيل مخترقاً تلك المدينة في مجارى مزدوجة تشق طريقها بين مجموعة بديعة من الجزر النهرية أهمها « الجزيرة » و « جزيرة الروضة » ..

ولم يشر المؤلف إلى الإهمال الشديد الذى تعاني منه شواطئ النيل في منطقة القاهرة الكبرى .. وهى شواطئ تتميز بجمال خاص لا مثيل له لو أخذت قدراً من العناية وصحة التخطيط .. إنما أشار المؤلف إلى الانطباع العام الذى تركته في نفسه عاصمة النيل .. حيث لخص ذلك كله في جملة قال فيها أنها مدينة ضخمة مشوشة التخطيط والمواصلات تزدهم شوارعها بناس كثيرين يبدوون كما لو كانوا بلا عمل على الإطلاق .

و يشير المؤلف إلى ثورة يوليو ١٩٥٢ التى رفعت مستوى الملايين من الطبقات الفقيرة والفلاحين المصريين و حيث أصبح هؤلاء الآن أقل فقراً مما كانوا عليه قبل الثورة .. ولكن مشكلة الفقر الحقيقية تتجسم في المدن المصرية ، وهى مشكلة سكانية واقتصادية يحتاج حلها إلى زمن طويل وجهود ضخمة واعتمادات طائلة .

## ● حين كان الهرم .. يطل على النيل .. !

بدأ عصر بناء الأهرام منذ أكثر من ستة وأربعين قرناً من الزمان .. وهو عصر يقدم أدلة قاطعة على بلوغ سكان النيل المصرى أعلى مراتب الحضارة والتنظيم .. وأنهم قد أمسكوا فعلاً بالنواحي الأساسية لعلوم الهندسة والحساب وفنون المعمار .

ومن المعروف أن النيل قد غير مجراه عدة مرات بفعل عاملى النحر والترسيب .. وأن المجرى الرئيسى للنهر زمن بناء الأهرام كان أكثر قرباً نحو حافة الصحراء الغربية .. وكانت رأس الدلتا أيضاً تقع في مكان أقرب مما هى عليه الآن .. وكانت مياه النيل — خصوصاً وقت الفيضان — تصل إلى حافة هضبة منف التى أقيمت فوقها الأهرام .



وغنى عن الذكر هنا وصف هذه الأهرام بالتفصيل .. ولكن المؤلف يشير إلى الدلالة التاريخية التي تؤكد التفوق العلمى والحضارى لإنسان النيل الذى عاش فى واديه الأدنى منذ آلاف السنين .. ويشير المؤلف إلى بعض المعلومات والإحصائيات الطريفة عن الهرم الأكبر فيقول إن وزن الأحجار التى استخدمت فى بناء هذا الهرم يبلغ نحو (٦) مليون طن جاءت معظمها من الضفة الأخرى للنهر كما جاءت الأحجار الجرانيتية من محاجر أسوان فى أقصى جنوب النيل المصرى .. وأن المصريين القدماء قد استخدموا السفن والزحافات والدرايفيل فى تحريك هذه الكيات الهائلة من كتل الأحجار .. وإذا احتجنا للقيام بعملية نقل مماثلة فى هذه الأيام ، فلا بد لنا من استخدام (٦) آلاف قطار يقوم كل منها بنقل ألف طن .. !

وقد قام علماء الحملة الفرنسية الذين قدموا مع نابليون حين غزا مصر بعمليات حسابية مقارنة ، كان من نتائجها الطريفة ، أن الأحجار التى استخدمت فى بناء الأهرام الثلاثة تكفى وحدها لعمل سور حجرى ارتفاعه عشرة أمتار ويحيط بفرنسا كلها .. !

### ● الزراعة .. دون الاعتماد على المطر !

هناك خط حديدى يربط القاهرة بأقصى الصعيد فى مصر العليا .. وهو خط طويل يمتد أكثر من ألف كيلومتر ، ولذلك فإن قطاراته مزودة بعربات للنوم .. وهناك أيضا خط طيران داخلى حتى الأقصر وأسوان وأبى سمبل فى أقصى الجنوب ..

ولكننا سنرحل مصعدين فى النهر على متن باخرة نيلية ، وهى رحلة لا يمكن أن تنسى على مدى العمر كله .. ففضلاً عن المتعة التى توفرها هذه الرحلة سنلمس بأنفسنا المنشآت التى أقامها المصريون للسيطرة على النهر وترويضه وللسيطرة أيضا على مياهه وتوزيعها على الحقول النائية طبقاً لنظام من أقدم وأضبط نظم الري التى عرفها الإنسان .. كما سنرى القناطر العديدة التى تعترض مجرى النهر لإعادة توزيع مياهه .. وما يتفرع عن هذه القناطر من ترع عظيمة تمتد عبر مئات الكيلومترات ، لتشارك مع المجرى الرئيسى للنهر فى ري ملايين الأفدنة حيث تزرع الخضراوات والفواكه والبقول .. هذا فضلاً عن المتعة الثقافية التى يسعى إليها آلاف السياح لزيارة الآثار الرائعة المذهلة التى تركها قدماء المصريين الذين عاشوا على ضفاف وادى النيل فى مصر العليا ..

ولكن ما هو الانطباع الذى يعطيه النيل لأحد علماء الهيدرولوجيا .. أى العلوم والدراسات التى تبحث شئون المياه وطبيعة وتكوين الأنهار والمجارى المائية ؟

أول استنتاج يستظهره هذا العالم أن نهر النيل فى واديه المصرى ، نهر قد تم ترويضه واستئناسه ، ووضع تماماً تحت المراقبة والسيطرة ، بواسطة ناس يعرفونه جيداً ويحفظون أحواله عن ظهر قلب .. وأن هذه المعرفة الممتازة بالنهر وأحواله تمتد جذورها فى جوف التاريخ بآلاف عديدة من السنين ..

وبهذه المعرفة ، يتميز النيل المصرى عن غيره من أنهار العالم الكبرى ، بأنه نهر معروف وواضح تماماً ، وأن المعلومات المتوافرة عنه — سواء فى التاريخ القديم أو التاريخ الحديث — لا تتوافر بهذا القدر عن أى نهر آخر فى قارات العالم ..

ومنذ أكثر من خمسة آلاف سنة أقام المصريون المقاييس النيلية لقياس منسوب النهر سواء فى موسم الفيضان أو فى خلال بقية فصول السنة .. وكانت هذه القياسات تسجل وتدون لإجراء الدراسات المقارنة بين المناسيب وبعضها .. لمعرفة أحوال النهر وتقنين القواعد .. وما زالت آثار بعض هذه المقاييس النيلية القديمة باقية حتى الآن ..

وقد استخدم المصريون القدماء « الذراع » كوحدة لقياس عمق المجرى أو ارتفاع المياه .. وطول هذا الذراع عبارة عن المسافة بين كوع الرجل العادى وطرف أصبعه الوسطى .. وكان أهم « مقياس نيلى » فى ذلك الزمن هو المقياس المقام فى جزيرة إلفنتين فى أقصى جنوب الصعيد .. وكانت التسجيلات اليومية لهذا المقياس تبلغ يومياً وأولاً بأول إلى كل النواحي والأقاليم المصرية فى طول البلاد وعرضها حتى أقصى مناطق الدلتا .. وذلك حتى يستعد المصريون جميعاً لاستقبال الفيضان الجديد ، وهم على علم مسبق بأنه فيضان عال أو متوسط أو منخفض .. وعلى هذا الأساس يدبرون أنفسهم وحياتهم .

ومن خلال هذا التدبير وانتظام مراقبة النهر وأحواله ، استطاع المصريون أن يقرنوا عملية فيضان النهر فى كل عام بالدراسات الفلكية التى برعوا فيها .. واخترعوا للبشرية فكرة التقويم السنوى وتقسيم السنة إلى (٣٦٥) يوماً وربيع يوم ، وهو التقويم الذى مازالت تقاس به حياة الإنسان فى عالم اليوم ..

وبالنسبة لقياسات النيل فى فصول الفيضان ، كانت القاعدة أنه إذا وصل منسوب المياه إلى (١٢) ذراعاً ولم يتجاوزه ، فإن معنى ذلك القحط وقلة المحاصيل وحدوث المجاعة



الساقية والشادوق: من أقدم الوسائل التي  
استخدمها المصريون في السيطرة على مياه النيل ..

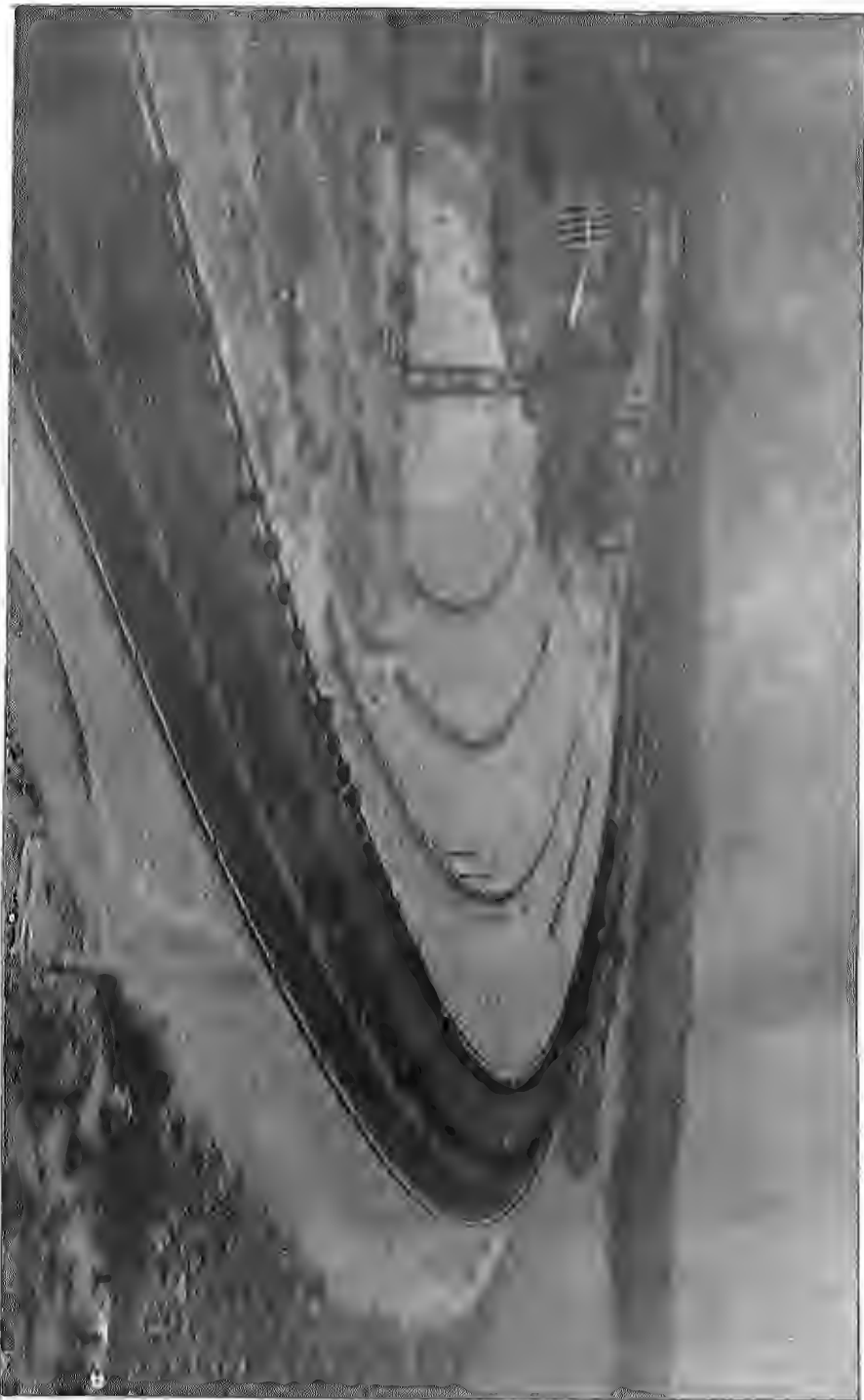




فيضان النيل : علم المصريين القدماء الحساب  
والهندسة .. [ صورته لأقدم المعادلات الرياضية  
الصعبة ، مكتوبة على بردية يرجع تاريخها إلى عصر  
الأسرة الخامسة عشرة ، وهي منقولة عن أصل يرجع  
إلى عصر أقدم ] .



حاملات البباليص باحدى قرى جنوب الصعيد .. من أقدم وسائل نقل ماء النيل إلى البيوت .. وكادت هذه الصورة تختفى الآن بعد إدخال مياه الشرب النقية إلى معظم القرى المصرية ..



السد العالي .. انتهى بناؤه سنة ١٩٧١ .. ساهم في زيادة إنتاج الطاقة الكهرومائية في مصر .. وتجزأ أمامه أكبر بحيرة  
من المياه العذبة من صنع الإنسان ..

إذا لم يكن هناك مخزون فائض وكاف من محاصيل سابقة .. وإذا وصل المنسوب إلى (١٤) ذراعاً فسيستوفر الطعام للجميع .. أما إذا وصل إلى (١٦) ذراعاً فسيعم الخير وتمتلىء المخازن والمستودعات بالحبوب كذخيرة للمستقبل .. ولكن إذا تخطت المياه هذا المنسوب ، فهذا فيضان خطر تجرى من أجل اتقائه جميع الاحتياطات في جميع أنحاء القطر المصرى بوجهيه القبلى والبحرى ..

## ● الرى بالحياض .. وعلم قياس الأرض ..

وكان المصريون القدماء يتبعون نظام الرى بالحياض .. حيث تغمر مياه الفيضان جميع الحقول والأراضى الزراعية ، وتتم عملية تخصيب الأرض بترسيب الطمي والغرين ، ثم تنحسر المياه عن الحقول بعد ذلك لتبدأ عملية الزراعة على الفور.

ونظراً لأن الحقول تكون قد اختلطت بغيرها نتيجة لعملية الغمر التى كانت تزيل الحدود بين مساحات الأرض وبعضها ، فإن الأمر كان يتطلب إعادة عملية قياس الأرض ووضع الحدود بين المساحات .. ولهذا اخترع المصريون القدماء علم « الجيومترى » .. أى علم قياس الأرض ..

أليس معنى هذا أن النيل المصرى هو الذى أتاح الفرصة لظهور حضارة أعطت لإنسان اليوم أسس قياس المسافات وقياس الزمن .. كما أن نبات البردى الذى كان ينمو على ضفافه ، كان الورق الذى دونت عليه الكتابات والدراسات التى تركوها بعد أن اكتشفوا فكرة اللغة وفكرة الكتابة نفسها ..

وقد ظلت طريقة « الرى بالحياض » سائدة فى الزراعة المصرية طوال آلاف السنين إلى أن اختفت تماماً باكتمال بناء السد العالى سنة ١٩٧١ حيث حلت محلها طريقة « الرى الدائم » . ويمكن الآن إتاحة مياه الرى طوال فترات السنة ، وليس فى خلال موسم الفيضان وحده .. وهذا أمكن استنزاع الأرض بأكثر من محصول فى خلال السنة الواحدة ..

## ● تخزين المياه .. لم يعد مشكلة ..

لم يكن من المستطاع إحلال طريقة الرى الدائم بدلاً من طريقة الرى بالحياض

إلا بعد تنفيذ مجموعة متكاملة من المنشآت الهندسية الكبرى التي أقيمت على مجرى النيل للتحكم في المياه وللسيطرة على النهر نفسه طوال السنة ..

ولكن المشكلة في طريقة الري الدائم هي ضرورة إنشاء شبكة عميقة بالغة التعقيد لصرف أملاح التربة بعد القيام بعملية الري .. وثمة طريقتان لإجراء عملية الصرف ، هما : الصرف المكشوف والصرف المغطى الذي أخذت شبكته في الانتشار السريع لخدمة الزراعة في حقول الوجهين المصريين القبلي والبحري ..

وحتى نتفهم عملية تنظيم الري في وادى النيل المصرى وفي النيل السودانى أيضا .. فإن علينا أن نتصور الحقائق العلمية التالية :

إن النيل المصرى يحصل على مياهه من مصادر رئيسية ثلاثة هي — على الترتيب من الشمال إلى الجنوب — نهر عطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض .. والنهران الأول والثانى ينبعان من هضبة الحبشة ، أما النهر الثالث فتمتد منابعه إلى جوف منطقة البحيرات الافريقية العظمى عند خط الاستواء .

و يعتبر النيل الأزرق أهم هذه المصادر جميعا حيث يبلغ ذروة فيضانه في خلال شهرى أغسطس وسبتمبر من كل عام ، وحيث يصل منسوب مياهه إلى عشرة أضعاف ما كان عليه في خلال شهرى ابريل ومايو ..

أما نهر عطبرة فيبلغ ذروة فيضانه أيضا في نفس الفترة التى يفيض فيها النيل الأزرق ، إذ يقوم النهران معاً بتصريف كميات الأمطار الكثيفة الهائلة التى تسقط على هضبة وجبال الحبشة في هذا الموسم .. ولكن الظاهرة المميزة بالنسبة لنهر عطبرة ، هي أن مجراه يكاد أن يجف تماماً من نوفمبر حتى يوليو من العام التالى ..

أما النيل الأبيض فتختلف طبيعته تماماً عن طبيعة هذين النهرين .. فهو يتدفق بمنسوب يكاد أن يكون ثابتا طوال العام ، حيث أن النهر يحصل على مياهه من عشرات الروافد والأنهار الصغيرة بمنطقة البحيرات والمياه المستديمة بأفريقيا الاستوائية ، وعلى وجه الخصوص من بحيرة فيكتوريا ..

وهكذا نرى أن مشكلة نهر النيل في واديه عبر السودان ومصر تتلخص في ضرورة تخزين المياه التى تتدفق بالأنهار الثلاثة وقت فيضان نهري عطبرة والنيل الأزرق ، وذلك للاستفادة بها بعد انحسار الفيضان وحتى الفيضان التالى ..



ولم يكن هناك بد من إنشاء مجموعة من السدود الكبرى على مجارى الأنهار الثلاثة لوقف تدفق المياه وقت الفيضان ثم تصريفها بانتظام على مدى السنة .. تماما كما لو كانت مثل الصنابير العملاقة تغلق وتفتح وقت اللزوم ..

و يتم التحكم والسيطرة على مياه النيل في كل من مصر والسودان على أساس متكامل بطبيعته وبحكم الضرورة .. وعلى ذلك فقد تم إنشاء مجموعة متكاملة من السدود الضخمة لتخزين المياه .. اثنان منها على النيل الأزرق ، واثنان آخران على النيل الأبيض ، وواحد على نهر عطبرة .. ثم اكتملت المجموعة بإنشاء « سيد » السدود جنوب أسوان ، الذى يقوم بتخزين مياه الأنهار الثلاثة فى أكبر بحيرة من المياه العذبة صنعها الإنسان .. وهذا تمت السيطرة على مياه النيل لتتاح للرى على مدى أيام السنة ..

وبالإضافة إلى هذه الوظيفة الأساسية للسدود والخزانات التى أنشئت على نهر النيل ، فإن لها وظيفة أخرى على أكبر نحو من الأهمية ، وهى توليد الطاقة الكهربائية على أوسع نطاق ..

## ● الانفجار السكاني .. مشكلة المشاكل ..

وإذا كان الرى الدائم يؤدى حتما إلى وفرة وزيادة وتنوع المحاصيل الزراعية ، كما أن استغلال الطاقة الكهربائية فى التصنيع يؤدى إلى زيادة الإنتاج .. فقد كان من المتوقع بالتالى زيادة معدلات التنمية فى كل من مصر والسودان .. إلا أن هناك مشكلة جوهرية تجعل الوصول إلى تلك النتيجة أمراً بالغ الصعوبة .. وهى مشكلة الزيادة المُطَرَّدة فى السكان .

وتوصف المشكلة السكانية فى مصر بحق بأنها « انفجار سكاني » بالغ الخطورة والتأثير فى معدلات التنمية الإنتاجية .. ولنا أن نتصور أن علماء الحملة الفرنسية كانوا قد قدروا تعداد الشعب المصرى فى سنة ١٨٠٠ م بنحو (٢,٥) مليون .. ثم ارتفع هذا التقدير إلى (٥) مليون فى سنة ١٨٥٠ م .. ثم بعد ذلك عمل أول إحصاء سكاني على الأسس العلمية الحديثة فى سنة ١٨٩٧ م حيث تبين أن عدد السكان قد قفز إلى (٩,٧٥) مليون .. ثم وصل العدد بعد ذلك إلى (١٩) مليون سنة ١٩٥٠ ثم إلى (٣٠) مليون سنة ١٩٦٦ ثم إلى (٣٦) مليون سنة ١٩٧٦ .. إلى أن وصل الآن إلى نحو (٥٣) مليون !!

ومعنى هذا أن الشعب المصرى يتضاعف عدده كل نصف قرن ، وهو معدل مروع ومخيف ، وإن كانت قد زادت حدته أكثر من ذلك فى السنوات الأخيرة .. !! .. هذه هى بحق المشكلة الأساسية التى تواجه معدل التنمية الإنتاجية فى مصر ..

وقبل أن نترك النيل المصرى لنواصل رحلتنا نحو الجنوب .. نشير إلى الآثار الرائعة الضخمة التى تركها قدماء المصريين على ضفاف النيل ذخراً للإنسانية ، وشاهدًا على ما حققوه من نبوغ فى العلم والحضارة .. وقد كان من المتصور يوماً أن هذه الآثار البديعة ستختفى تحت مياه بحيرة السد العالى .. إلا أن العالم كله متمثلاً فى منظمة اليونسكو قد سارع لإنقاذ جميع المعالم الأثرية التى كانت منتشرة جنوب أسوان وأهمها معابد فيلة وكلابشه وأبوسمبل .. وهو أضخم وأفخم المعابد التاريخية على الإطلاق ..

ونوشك الآن على الخروج من حدود مصر الجنوبية متجهين صوب السودان .. لنرى اللقاء العظيم بين النيلين الأزرق والأبيض ..

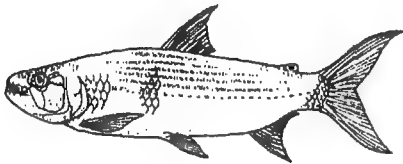
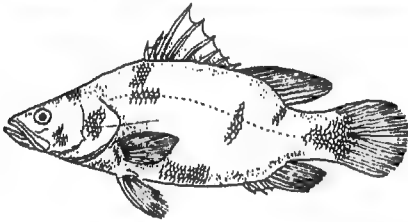
### ● مخزن البروتين .. غير المستغل ..

ومن أسوان سنصعد فوق ظهر إحدى البواخر النيلية لنجتاز بحيرة السد ، التى أصبحت الآن أكبر بحيرة لتخزين المياه العذبة من صنع الإنسان ، حيث تمتد جنوباً بغرب نحو (٥٠٠) كيلومتراً ..

وفضلاً عن مساحات الأراضي الصالحة للزراعة التى يمكن أن يتيحها وجود البحيرة فى الأراضي الصحراوية المحيطة بها .. فإن البحيرة نفسها تعتبر — بالمقاييس الاقتصادية — أكبر مخزن للبروتين الغذائى الذى يمكن أن يعتمد عليه شعب مصر وشعب السودان ..

وقد بدأت بالفعل عملية استغلال البحيرة لصيد الأسماك وتصديرها إلى المدن المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى .. إلا أن الاستغلال الأمثل والممكن لأسماك البحيرة لم يحدث حتى الآن .. وربما تكون هناك مشروعات لإنشاء أسطول صيد كبير، وإنشاء ثلاجات التخزين والتوزيع ، وتدعيم مرافق النقل الصالحة لنقل البضائع المجمدة .. ولا شك أن مثل هذا المشروع الكبير لو اكتمل لأمكن حل جزء كبير من مشاكل نقص البروتين — اللحم والطيور والأسماك — لملايين من السكان فى مصر والسودان ..

والحقيقة أن نهر النيل بأكمله يعتبر مصدراً غذائياً للشعوب التى تعتمد عليه وتعيش على ضفافه ، بما يتضمنه من مئات الأنواع من الأسماك الكبيرة والمتوسطة والصغيرة



هناك عشرات الأنواع من الأسماك  
النيلية أشهرها [ من أعلى إلى  
أسفل وحسب متوسط الطول ] :  
سمك الفرخ ١٠٠ سم - سمك  
النمر ٥٠ سم - سمك القبط  
٥٠ سم - سمك رثوى ١٠٠ سم .



حريرة المسح بالمراب ,, حيث الصخور الحجرية لأهل المكان الأقباط ..



حديقة النباتات بأسوان .. من أجمل حدائق النباتات في العالم .



ملاح نوبی قرب آسمان

والصالحه كلها للاستهلاك الآدمي .. وأهم هذه الأسماك البلطي والمكرونه وسمك الفريخ الذى يصل طوله نحو متر، وسمك القط [ السَّلُور — بفتح وتشديد حرقى السين واللام ] الذى يصل طوله نحو نصف متر، وأنواع أخرى من أسماك الثعابين والأسماك الرئوية التى يمكن أن تتنفس الهواء وتعيش مدفونة فى الطين دون حركة لفترة طويلة ..

## ● النوبيون .. فى مصر والسودان ..

هذه المسطحات المائية الواسعة التى تترامى إليها أطراف البحيرة ، كانت مأهولة من قبل القبائل النوبية .. وهم عناصر حامية قديمة اختلطت بالعرب من قديم الزمان ، وكانت تعيش على ضفاف النيل ومناطقه الجبلية والصحراوية ، فى منطقة واسعة من الأرض المصرية السودانية .. وكانت هذه المنطقة تنقسم إلى « النوبة السفلى » التى تمتد من أسوان حتى وادى حلفا ، و« النوبة العليا » بداخل الأراضى السودانية ..

وقد تمت عملية تهجير هائلة لجميع تلك القبائل قبل أن تبدأ عملية حجز المياه أمام السد لتكوين البحيرة .. ومن أجل ذلك خصصت مساحة كبيرة من الأراضى الزراعية بمنطقة « كوم امبو » الواقعة قرب أسوان لتوطين النوبيين الذين كانوا يعيشون فى النوبة المصرية ، كما خصصت مساحات مماثلة على ضفاف « نهر عطبرة » لتوطين النوبيين الذين كانوا يعيشون فى النوبة العليا بالأراضى السودانية ..

ومن الغريب أن جميع هذه القبائل النوبية قد احتفظت بلغتها الأصلية التى تسمى « الرطان » إلى جانب استخدامها للغة العربية ..

ونهر عطبرة هذا يعتبر من أهم روافد نهر النيل .. وينبع من شمال غرب الهضبة الحبشية ، ثم يمتد مجراه عبر مسافة قدرها ( ١١٢٥ ) كيلومترا بشمال شرق السودان إلى أن يتصل بالنيل جنوبى مدينة عطبرة و يصب مياهه فيه .. ويعتبر نهر عطبرة من أكثر الأنهار الحبشية طمياً ، وذلك بسبب كميات المياه الهائلة التى يجرى بها فى موسم فيضانه ..

وينحنى النيل فى المسافة بين الخرطوم وأسوان عدة انحناءات تجعله يأخذ شكل حرف « S » فى اللغة الانجليزية .. ويهبط النيل فى المسافة بين هاتين المدينتين نحو ( ٢٨٣ ) متراً فى سلسلة متعاقبة من المندفعات والجنادل التى يطلق عليها خطأ اسم الشلالات .. وعددها ستة جنادل ..

## ● عاصمة النيلين ..

علينا إذن أن نركب أحد قطارات السكك الحديدية لنواصل الطريق صاعدين نحو الخرطوم حيث يلتقى النيلان الأبيض والأزرق ..

والخرطوم مدينة حديثة أنشأها المصريون في سنة ١٨٢٢ م على الضفة اليسرى للنيل الأزرق عند ملتقاه بالنيل الأبيض ..

ورغم حداثة عهد المدينة، إلا أنها شهدت أحداثاً تاريخية كبيرة .. كما كانت تعتبر محطة القيام بالرحلات الاستكشافية المتكررة التي تمت في النصف الأول من القرن التاسع عشر لاستكشاف منابع النيل الاستوائية ... وقد خربت المدينة تماماً أثناء الثورة المهدية، حيث قام أنصار المهدي بالهجوم المباغت على جيش الاحتلال البريطاني وقتلوا الجنرال «جوردون» على سلام قصره في سنة ١٨٩٥ .

وقد أعيد تخطيط و بناء مدينة الخرطوم من جديد في سنة ١٨٩٩ حيث قامت قوات الاحتلال البريطاني بقيادة «اللورد كتشنر» بالقضاء على الثورة المهدية، وكان «ونستون تشرشل» مشتركاً في تلك المعركة كجندى صغير .. وقيل إن كتشنر قد رسم للمدينة تخطيطاً كروكياً على ظهر ظرف خطاب كان قد وصله .. وأنه أعطى للمدينة شكل العلم البريطاني بصلبانه المتقاطعة .. وهو المنظر الذي يمكن مشاهدته ليلاً من الطائرات التي تستعد للهبوط بمطار الخرطوم، حيث تتلأأ مصابيح الشوارع المضاءة في خطوط تشكل خطوط العلم ..

## ● مع النيل الأزرق حتى تانا ..

ومن الخرطوم علينا أن نتجه يساراً لنتتبع مجرى النيل الأزرق [حوالى ١٥٢٠ كيلومتراً] من ملتقاه بالنيل الأبيض حتى منابعه من بحيرة «تانا» بمرتفعات الحبشة ..

وقد أطلق على هذا النهر الهادر اسم النيل الأزرق بسبب صفاء المياه الرائقة في خلال فترة انخفاض النهر من شهر مارس حتى شهر يونيو من كل عام .. أما في بقية أيام السنة — خصوصاً عندما يبلغ النهر ذروة فيضانه في شهرى أغسطس وسبتمبر — فإن مياهه تتحول إلى اللون البنى المائل للاحمرار، وذلك بفضل ملايين الأطنان من الطمي والتربة الجبلية التي ينحتها النهر خلال اندفاعه الهادر من المرتفعات الحبشية ..



وعلى امتداد نحو (١٥٠) كيلومتراً صعوداً مع النيل الأزرق نصل إلى واد مدنى .. والأراضى الواقعة فى المسافة بين الخرطوم وواد مدنى والممتدة يساراً حتى يجدها النيل الأبيض تسمى « أرض الجزيرة » وهى من أخصب الأراضى الزراعية بالسودان .. ويزرع أغلبها بالقطن الذى يعتبر من المحاصيل الاقتصادية الرئيسية التى يصدرها السودان إلى مختلف دول العالم ..

ثم نصل بعد ذلك إلى « سنار » حيث شيد سد هائل للتحكم فى مياه النيل الأزرق وتوزعها على الترع والقنوات التى تروى أراضى الجزيرة ..

وبعد نحو (٢٥٠) كيلومتراً أخرى نصل إلى سد « الروصيرص » .. وهو الخزان الثانى والأخير على النيل الأزرق ، الذى يساعد كثيراً على التحكم فى فيضانات النهر، خصوصاً حينما تأتى عالية غزيرة .. وتتكون أمامه بحيرة واسعة ومستطيلة تمتد حتى حدود الحبشة ..

ومن هنا يصبح الصعود مع النيل الأزرق مشقة بالغة الصعوبة .. فالنهر يشق مجراه نحتاً فى صخور الجبال والمرتفعات .. ولذلك فالجرى عبارة عن منحدرات نهريّة سريعة ضيقة تحيط بها من الجانبين ضفاف عالية وأراض جبلية مغطاة بأعشاب كثيفة .. وهنا تكثر الحيوانات النيلية والأفريقية الشهيرة كأفراس النهر والتماسيح والأفيال والأسود والفهود ..

يمتاز النيل الأزرق فى هذه المنطقة بكثرة التعرج والمنحنيات التى تساعده على تجميع المزيد من مياه الهضبة الحبشية عن طريق الروافد والأنهار والنهيرات الصغيرة التى تمتد هنا وهناك متخللة سفوح الجبال ووديانها .. وأهم روافد النيل الأزرق نهر الدندر ونهر الرهد ..

وأخيراً نصل إلى المنبع الرئيسى للنيل الأزرق .. بحيرة « تانا » أو « تسانا » .. وهى أكبر بحيرات الهضبة الحبشية وترتفع عن سطح البحر بنحو ألفى متر، وتحيط بها سلاسل جبلية تعلو إلى ضعف هذا الارتفاع .. وتتجمع بها سيول الأمطار الغزيرة جداً التى تتساقط على المنطقة صيفاً ..

وتصب فى بحيرة تانا مجموعة كبيرة من الأنهار والنهيرات القصيرة التى تتميز بغزارة المياه .. وأهمها أنهار: ماجتسش .. ودامبرا .. ورب .. وجومارا ..

وتبلغ مساحة البحيرة نحو ٣٦٤٠ كيلومتراً .. كما تتميز بجزرها العديدة ..

أما النيل الأزرق فيخرج من جنوبها ، ولكنه يحمل اسماً محلياً هو « نهر أباي » ..  
وتحتفل الطبيعة بخروج النيل الأزرق من بحيرة تانا احتفالاً صاخباً .. فتسقط مياه النهر  
من ارتفاع شاهق عند حافة البحيرة وشلالات « تسيسات » .. وتسيسات معناها « النار  
الهادرة » باللغة المحلية .. وهو اسم مناسب تماماً لواحد من أعنف الشلالات في العالم ..  
ومن هنا يبدأ النيل الأزرق رحلته الطويلة عبر مرتفعات الحبشة وسهول السودان لتصل  
مياهه إلى أقصى مناطق شمال الدلتا حتى البحر المتوسط ..

## ● مع النيل الأبيض حتى منطقة السدود ..

علينا أن نعود مرة أخرى إلى الخرطوم لنبدأ رحلتنا صاعدين جنوباً مع « النيل  
الأبيض » .. ووسيلة رحيلنا ستكون إحدى البواخر النيلية الشهيرة المجهزة بالرفاصات  
الجانبية الكبيرة والمغطاة بأكملها بشبكة مانعة لدخول الناموس والحشرات الطائرة القارصة  
الأخرى ..

وعلى بعد نحو (٥٠) كيلو متراً بعد مغادرة الخرطوم سنصل إلى سد « جبل  
الأولياء » .. وهو سد منخفض لأن الأرض أمامه منبسطة وقليلة الانحدار .. وتمتد المساحة  
التخزينية لهذا السد نحو (٥٠٠) كيلومتراً حتى يلتقى النيل الأبيض بنهر « السوبات » ..  
وهذا النهر يعتبر من روافد نهر النيل حيث يده بحوالى ١٤,٥ ٪ من حجم تصرف مياه النيل  
عند الخرطوم .. ويمتد السوبات نحو (٧٥٠) كيلومتراً حتى يصل إلى منابعه في المناطق  
المجاورة لبحيرة « رودلف » في شمال كينيا .

وفي عصور ما قبل التاريخ ، كان نهر السوبات ينبع من بحيرة رودلف نفسها ، إلا أن  
التغيرات الجيولوجية والمناخية التي حدثت في مناطق وسط وشرق أفريقيا ، قد فصلت  
الآن تماماً بين نهر السوبات وبحيرة رودلف التي أصبحت بلا مخرج .. ولذلك فقد أخذت  
هذه البحيرة في التقلص ، كما أن مياهها تتميز بارتفاع نسبة أملاح الصبدا لدرجة يصعب  
معا تناولها كمياه صالحة للشرب ..

وبعد التقاء نهر السوبات بالنيل الأبيض تبدأ منطقة السدود .. وهي أكبر عقبة في  
مجرى النيل ، حيث تترامى مساحات شاسعة جداً من المستنقعات والمسطحات المائية التي  
تتبدد فيها كميات هائلة من المياه القادمة من منابع النيل الاستوائية ..

وتقع منطقة السدود بحوض بحر الجبل وبحر الغزال .. وأرضها شديدة الاستواء ، الأمر الذى يساعد المياه على الفيضان خارج مجارى الروافد والأنهار والنهيرات الكثيرة التى تمتد منطقة السدود بالمياه .. وظلت هذه المنطقة سداً منيعاً ضد تقدم أى مستكشف للمنايع الاستوائية للنيل منذ أيام قدماء المصريين حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ..

وهذه المستنقعات والمسطحات المائية ليست مكشوفة تماماً ، وإنما أغلبها مغطاة بمساحات هائلة من الجزر النباتية العائمة التى تطفو فوق سطح المياه بكثافة لانظير لها فى أى مكان آخر فى العالم .. لدرجة أن الحيوانات الضخمة والكبيرة تستطيع أن تمشى أو تعيش فوقها .. وتتكون هذه النباتات العائمة فى الغالب من البردى والبوص ونبات يسمى أم الصوف ..

وبرغم أن منطقة السدود تعادل فى مساحتها مساحة إنجلترا ، فإنها تتميز بقلّة السكان حيث تعيش فى نواحي متفرقة قبائل صغيرة من الشعوب النيلية التى تعتمد فى حياتها على صيد الأسماك والرعى ..

أما السكان الحقيقيون لهذه المنطقة فهم مجموعة هائلة من أنواع الحيوانات والزواحف والطيور .. وقد تكون هذه الحيوانات والزواحف محتفية داخل هذه الكثافات العشبية .. أما الطيور فهى أكثر ما يظهر من مظاهر الحياة فى تلك المنطقة ، حيث تعيش الملايين من الطيور المختلفة ، وأهمها اللقلق ومالك الحزين والبلشون الأبيض ( ابن الماء ) والغاق وهو طائر ضخم هم له جراب جلدى تحت منقاره يحفظ فيه ما يصيده من أسماك .. كما أن هناك العديد من أنواع البجع والتم والأوز العراقى ..

وكانت منطقة السدود مسدودة تماماً أمام أى شكل من أشكال الملاحة النهرية .. إلى أن تم اختراقها بتمهيد ممرات للمراكب ، وذلك بشق هذه الممرات أو بإحراق خط من الأعشاب يسمح بالمرور ..

وفى منطقة السدود تتبدد نسبة كبيرة جداً من مياه نهر النيل القادمة من المنايع الاستوائية .. فهى تمتص المياه كالإسفنج كما تقوم بتبخير المياه عن طريق تنفس النباتات والأعشاب التى تغطيها .. لذلك فإن شق قناة « جونجلي » يعتبر من أهم المشروعات الهندسية الكبرى للتحكم فى مياه النيل وإنقاذ المياه بإبعادها عن منطقة السدود .. وهذا يؤدى إلى توفير المزيد من مياه الرى لكل من السودان ومصر ..

ونظراً لأن السدود تقع بأكملها في المنطقة المدارية بافريقيا ، فإن الأراضي المحيطة بها تتميز بكثرة الأعشاب ويعيش فيها مئات الأنواع من الحيوانات وأهمها قطعان الأفيال والجاموس والخرتيت والكركدن وحيد القرن ، وأنواع كثيرة من الطباء والغزلان والزراف والقروود والبابون .. كما تنتشر بها أيضا بعض الوحوش كالأسود والنور والفهود الصيادة ..

## ● بحر الغزال .. بحر الزراف .. بحر الجبل ..

تحصل منطقة السدود على مياهها من مجموعة كبيرة من الروافد والأنهار والنهيرات القادمة إليها من كل اتجاه على نحو التقريب .

من الغرب يجرى إليها « بحر الغزال » .. وهو عبارة عن مجموعة نهرية تنحدر من خط تقسيم المياه بين نهري الكونجو والنيل .. وتجري في حوض تبلغ مساحته نحو (٥٢٦٠٠) كيلومتراً مربعاً .. ويطلق اسم بحر الغزال على مجرى النهر من مشروع الرق حتى يصب في بحيرة « نو » . ويتكون بحر الغزال من عدة روافد نهرية صغيرة أهمها : الرهل والمردي والجود والتونج واللول وبحر العرب ..

وفي حوض بحر الغزال يعيش شعب متميز من الشعوب النيلية ، يتكون في عمومها من قبائل الدنكا ، وهم عناصر [ زنجية — حامية ] تنتشر في حوض بحر الغزال وحتى المناطق الشرقية من ضفاف النيل الأبيض ، ويعيشون على رعى البقر ، ويتجولون بالقطعان في خلال فصل الجفاف في السهول المنخفضة .. وفي فصل الأمطار يتجمعون في الأراضي المرتفعة حيث يزرعون الذرة الرفيعة والسمسم والفول السوداني ، ويجمعون محصولاً كبيراً من عسل النحل والأخشاب ..

أما من جهة الشرق .. فيجرى « بحر الزراف » قادماً من الجنوب ، وموازي تقريباً لمجرى « بحر الجبل » الذي يقع على يساره ..

وبحر الزراف يعتبر من روافد النيل ، ويلتقي بالمجرى الرئيسى لنهر النيل شرق بحيرة « نو » .. و يبلغ طوله نحو (٢٩٠) كيلومتراً ..

أما « بحر الجبل » فهو جزء من المجرى الرئيسى لنهر النيل ، وهو الامتداد الجنوبي لمجرى النيل الأبيض ، ويطلق اسم بحر الجبل على مجرى النهر في طول المسافة منذ التقائه « بنهر السوبات » حتى « نيمولى » بأقصى الحدود الجنوبية للسودان .. ثم يستمر المجرى

الرئيسى بعد ذلك باسم « نيل ألبرت » الذى يخرج من بحيرة ألبرت ، ثم باسم « نيل فيكتور يا » الذى يخرج من بحيرة فيكتور يا ..

وبحر الجبل نهر يجمع بين صفة البطء فى الجريان إلى جانب صفة الجريان العنيف فى بعض مناطق ، حيث تكثر الجنادل والشلالات .. ولا يقتصر مجراه على مجرى واحد ، وإنما تتصل به مجموعة كبيرة من الروافد والنهيرات ، بعضها ماؤه دائم الجريان .. وبعضها لا يجرى فيه الماء إلا فى موسم الأمطار ..

## ● منابع النيل .. كانت أسراراً مغلقة ..

من أين يأتى النيل بكل هذه المياه .. ؟!

ظل هذا السؤال يتردد لآلاف السنين دون إجابة صحيحة مؤكدة .. ووصل الأمر إلى نسج الأساطير وإطلاق الخرافات .. فبعض الأساطير كانت تقول إن هذه المياه الوفيرة التى يجرى بها النهر ، هى دموع إيزيس التى تذرفها حزناً على مصرع أوزيريس زوجها الحبيب .. كما أن بعض الخرافات التى ذكرها هيرودوت — نقلاً عن أحد الموظفين المصريين المخرفين — تقول إن النيل ينبع من عين مجزيرة فيله بأسوان ، ويشق له مجرىين ، يتجه الأول شمالاً إلى الوجهين القبلى والبحرى ، ويتجه الثانى جنوباً إلى بلاد النوبة .. وهو رأى واضح الفساد ، لأن قدماء المصريين — ولهم فى ذلك إثباتات عديدة — يعرفون جيداً أن النيل فى بلاد النوبة يجرى من الجنوب إلى الشمال وليس العكس كما جاء بالخرافة التى ذكرها هيرودوت .

وقد سجل قدماء المصريين رحلاتهم صعوداً فى مجرى النيل حتى وصلوا إلى موقع التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق .. بل ووصلوا أيضاً إلى مناطق السدود بعد التقاء النيل بنهر السوبات .. حيث حالت المستنقعات دون تقدمهم بعد ذلك نحو الجنوب ..

وبعد نحو (٦٦) سنة من ميلاد المسيح ، أرسل الامبراطور الرومانى « نيرون » اثنين من ضباطه ليتتبعا مجرى النيل جنوباً حتى منابعه .. ولكن هذه الرحلة انتهت أيضاً عند منطقة السدود حيث يستحيل التقدم ..

ولكن المدهش هو العصور على خريطة قديمة للعالم يرجع تاريخها إلى عام (١٥٠) ميلادية .. رسم عليها نهر النيل من مصبه فى البحر المتوسط حتى منابعه فى أقصى الجنوب عند منطقة جبال القمر .. وهى « خريطة العالم لبطلميوس » ..

وبطلميوس هذا ليس واحداً من البطالمة الذين توارثوا حكم مصر بعد وفاة الاسكندر الأكبر، وإنما هو «كلوديوس بطلميوس» العالم اليونانى المصرى الذى ولد ونشأ بالاسكندرية فى القرن الثانى الميلادى .. وهو عالم فى الفلك والجغرافيا والرياضة والطبيعة والتاريخ .

وبطبيعة الحال لم تكن خريطة بطلميوس صحيحة أو مطابقة للخرائط الحالية المعمول بها الآن .. ولكن وجه الغرابة فى أنها أوضحت أن النيل يوغل فى أقاصى الجنوب حتى يصل إلى منابعه من «جبال القمر» التى تغطيها ثلوج لا تذوب أبداً .. وأن هذه الجبال مرسومة فى منطقة قرية جداً من «جبال رونزورى» الواقعة بين بحيرة ألبرت وبحيرة إدوارد .. كذلك أوضحت الخريطة أن النيل أيضا يتغذى بعدد كبير من الأنهار والروافد التى تصب فيه مياه البحيرات التى تنبع منها .. وهو أمر — من الناحية النظرية — شديد القرب للحقيقة ..

ومن المؤكد أن هذه الخريطة لا يمكن أن تكون اجتهاداً تخيلياً من بطلميوس ، بل لابد أنها ترجع إلى أصل أو أصول قديمة .. ورثها العصر البطلمى فى مصر من العصر الفرعونى الذى سبقه ..

## ● الذين وصلوا إلى منابع النيل ..

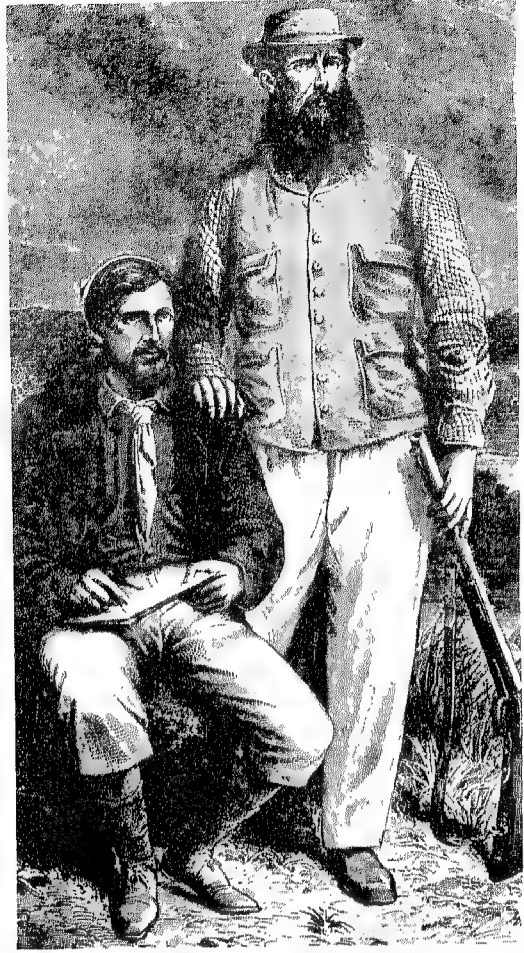
ومر نحو ١٧ قرناً من الزمان بعد أن رسم بطلميوس خريطته ، ظلت فيها منابع النيل الحقيقية من الطلاسم المغلفة التى لا يعرفها أحد ولم يتسَّع إليها أحد .. حتى عام ١٧٧٠ م حين اكتشف «جيمس بروس» منابع النيل الأزرق ..

وهو عالم آثار اسكتلندى تخصص فى فحص الآثار الرومانية الموجودة فى تونس وليبيا بشمال أفريقيا .. ثم جذبه سر النيل فسافر فى البحر الأحمر حتى «مصوع» ومنها اتجه إلى مدينة «غندار» التى كانت عاصمة للحبشة آنئذ .. ووصل إلى بحيرة تانا التى ينبع منها النيل الأزرق .. ثم انحدر هابطاً مع مجرى النهر الطويل حتى وصل إلى ملتقاه بالنيل الأبيض وانطلاق النيلين بعد ذلك شمالاً فى نيل واحد ..

أما النيل الأبيض ، فقد ظلت سدوده ومستنقعاته تحدياً يحول بين المستكشفين و منابعه حتى عام ١٨٥٧ م ، حين قام «سيرر يتشارد بيرتون» مع «كابتن جون سبيك» — وهما



أقدم خريطة لنهر النيل .. رسمها بطليموس الجغرافي سنة ١٥٠ م ،  
ويظهر فيها النيل من مصباته حتى منابعه في «جبال القمر» ..



من مستكشفى منابع النيل : جيمس جرانت  
[ جالساً ] وبجواره چون سبيك



سير ريتشارد بيرتون من مستكشفى منابع النيل .. فى  
هذا الزى تخفى وتسلسل إلى مكة سنة ١٨٩٥ م.



من المستكشفين الانجليز — بعمل رحلة تحاشيا فيها عبور منطقة السدود والمستنقعات ، فبدأها من شرق أفريقيا في اتجاه الغرب للوصول إلى وسط وقلب أفريقيا ...

وكانت هذه الفكرة نتيجة لما ذكره بعض التجار العرب في جزيرة زنجبار بشرق أفريقيا ، والذين كانوا يتوغلون غرباً في داخل القارة وفي قلبها الاستوائية بحثاً عن العاج .. فقد ذكر بعض هؤلاء التجار أنهم شاهدوا النيل ينبع من بحيرات واسعة جداً ومن جبال عالية جداً تغطيها الثلوج طول العام .

ووصل هذان المستكشفان إلى « بحيرة تنجانيقا » .. فاعتقد ريتشارد بيرتون أنها منبع النيل .. ولكن سبيك لم يوافقه على ذلك ، فافترقا عن بعضهما ، وعاد بيرتون إلى لندن ليقول إنه اكتشف منابع النيل في المنطقة الاستوائية .. أما سبيك فقد واصل الرحلة داخل أفريقيا وحده .. واتجه نحو الشمال حتى وصل إلى الحدود الجنوبية لبحيرة واسعة جداً سماها « بحيرة فيكتوريا » على اسم ملكة إنجلترا آنثو .. وصمم سبيك على أن هذه البحيرة هي منبع النيل الأول .. ولكن من أين يخرج منها النيل ويولد ؟ ! .. كان لابد لمعرفة ذلك من القيام برحلة أخرى لابد من تدبيرها على نحو أفضل ..

وفي لندن استطاع سبيك أن يدبر رحلة لكشف منابع النيل من بحيرة فيكتوريا ، اشترك معه فيها المستكشف « جيمس جرانت » .. وبعد مصاعب ومخاطر شديدة استطاع هذان المستكشفان أن يدورا حول البحيرة إلى أن عثرا على مخرج النيل منها هابطاً من شلال ، ومنحدرأ بعد ذلك في مجرى واسع سميها نيل فيكتوريا ..

وكان لهذا الاكتشاف صدًى في المحافل العلمية في لندن .. وقامت هذه المحافل بإعداد مناظرة بين « بيرتون » الذي يقول إن النيل ينبع من بحيرة تنجانيقا .. و« سبيك » الذي اكتشف أن النيل ينبع من بحيرة فيكتوريا .. ولكن سبيك لم يستطع حضور هذه المناظرة بسبب مقتله بالرصاص في إحدى الحوادث .. وأثبت الزمن أن نظرية سبيك هي الصحيحة .. وأن نظرية بيرتون قد جانها الصواب ..

## ● البحيرات الأفريقية العظمية ..

ها نحن أخيراً في منطقة منابع النيل الاستوائية التي ظلت من الجاهل المغلفة لآلاف السنين .. ولكنها الآن أصبحت معلومة تماماً وعلى اتصال مستمر مع العالم الخارجي ..

لقد تغير الحال كثيراً عما كان موجوداً أيام استكشاف تلك المناطق جغرافياً .. لقد انقسمت تلك المناطق الآن إلى دول إفريقية مستقلة هي : أوغندا وتنزانيا وكينيا .. وهى الدول التى تحيط ببحيرة فيكتوريا وحدها .. أما منطقة بحيرتى ألبرت وادوارد ونهر كاجيرا ، فتحيط بها زائير ورواندا وبوروندى ..

وشعوب البانتو التى تقطن هذه المناطق تطلق اسم « نيانزا » على كل بحيرة من هذه البحيرات .. فكلمة نيانزا معناها بحيرة .. ومن الطبيعى أن هذه البحيرات كانت مسماة بأسماء محلية قبل أن تطلق عليها أسماء فيكتوريا نيانزا وألبرت نيانزا وادوارد نيانزا إلى آخر أسماء بعض أفراد من العائلة المالكة البريطانية ..

وفى الفترة الأخيرة أطلق اسم الرئيس « موبوتو » على بحيرة ألبرت رغم أن نصف مساحتها فقط يقع فى حدود زائير ونصفها الآخر يقع داخل حدود أوغندا .. كما أطلق « عيى أمين » اسمه على بحيرة ادوارد .. ولاندرى بماذا سميت بعد الإطاحة بحكمه ..

وعلى أية حال فإن هذه البحيرات أو « النيانزات » الثلاث بالإضافة إلى بحيرة رابعة هى « بحيرة كيوجا » هى الخزانات الطبيعية الهائلة والمستديمة ، التى تغذى النيل بالمياه المتدفقة من قلب إفريقيا ..

وتبلغ مساحة فيكتوريا نيانزا حوالى (٧٠) ألف كيلومترا مربعا — أى نحو مساحة إيرلاندا بأكملها — وتعتبر أكبر البحيرات العذبة فى العالم بعد بحيرة « سوبير يور » الأمريكية التى تزيد عنها قليلاً من ناحية المساحة . ويبلغ طول البحيرة حوالى (٤٠٠) كيلومترا وعرضها حوالى (٢٤٠) كيلومترا وترتفع فوق سطح البحر بنحو ١١٣٦ مترا . ويخرج منها نهر النيل من شاطئها الشمالى باسم نيل فيكتوريا عند مدينة « جينجا » بأوغندا ، حيث أنشئ خزان هائل عند شلالات « أوين » يستخدم فى توليد الطاقة الكهربية التى تستهلكها أوغندا والتى تصدر الفائض منها إلى كينيا ..

معنى ذلك أن هذا النهر العظيم الذى يعطى الخيرات لكل الشعوب التى تعيش على ضفافه يثبت أنه منذ لحظة ميلاده فعال للخير قادر على العطاء .. فعلى هذه الطاقة الكهربية تعتمد أوغندا فى تصنيع منتجاتها الزراعية وأهمها القطن .. فقد أنشأت العديد من مصانع غزل ونسج القطن الأوغندى .. ومن قبل كانت هذه الأقطان تصدر خاماً إلى إنجلترا لتعود إلى أوغندا وغيرها فى شكل أقشة وثياب ..



سيدة من قبائل البانتو، بسوق للفواكه والخضروات قرب بحيرة فيكتور يا



بحيرة كيوجا..



صيد وفير من الاسماك النيلية .. على شواطئ بحيرة كيوجا ...

وتستمد بحيرة فيكتور يا مياهها من الأمطار المباشرة ومن العديد من الأنهار الصغيرة .. ولكن «نهر كاجيرا» يعتبر من أكبر الأنهار التي تصب مياهها في هذه البحيرة . ويبلغ طوله نحو ٦٤٣ كليومترا ، وينبع من الجبال والمرتفعات الواقعة غرب رواندا وبوروندى عند خط عرض (٤) جنوب الاستواء .. وهو بذلك يعتبر أبعد نقطة يستمد منها النيل مياهه .. ويستمر نهر كاجيرا في التدفق عبر أراضي تانزانيا حتى يصب أخيراً في الشاطئ الغربي لبحيرة فيكتور يا ..

ويخرج نيل فيكتور يا من البحيرة بعد سقوطه من شلالات أوين .. ثم يتسع مجراه رويداً إلى أن يدخل منطقة واسعة من المستنقعات والمسطحات المائية تسمى «بحيرة كيوجا» التي تكثر فيها التماسيح وأفراس النهر، والتي تعتبر أيضاً مخزناً هائلاً للثروة السمكية ..

ويواصل نيل فيكتور يا طريقه عبر بحيرة كيوجا ليخرج منها هادراً في عديد من المنحدرات النهرية السريعة التي تنتهي «بشلالات مرشيزون» .. ومن هذه الشلالات يخرج النيل ليواصل طريقه نحو الشمال .. ساقطاً من ارتفاع حوالى (٤٦) متراً ومن خلال فتحة جبلية ضيقة جداً يستطيع أحد الرياضيين أن يقفزها عابراً من شاطئ لشاطئ ..

وتعتبر شلالات مرشيزون حاجزاً طبيعياً يحول دون انتقال نوعيات الأسماك التي تعيش في بحيرة فيكتور يا وبحيرة كيوجا إلى البحيرات الأخرى [ألبرت وادوارد] وإلى مجرى النيل نفسه .. وهناك نحو ثمانين نوعاً من الأسماك الصغيرة والمتوسطة تعيش في بحيرتي فيكتور يا وكيوجا ولا يوجد مثيل لها في نهر النيل بل ولا في أى مكان آخر من العالم ..

ومن هذه الشلالات يستمر مجرى نيل فيكتور يا إلى أن يدخل بحيرة ألبرت .. ثم يخرج منها باسم آخر هو «نيل ألبرت» .. ويظل حاملاً نفس الاسم إلى أن يدخل حدود السودان الجنوبية عند نيمولى فيطلق عليه اسم بحر الجبل ..

وبحيرة ألبرت .. أو «ألبرت نيانزا» تعتبر «المحلى» الرئيسى لمياه منابع النيل الاستوائية .. ففيها تتجمع المياه الواردة إليها من بحيرتي فيكتور يا وكيوجا .. والمياه الواردة إليها أيضاً من بحيرة ادوارد والتي تتدفق إليها عبر مجرى نهر «سليكى» الذى يخرج من بحيرة ادوارد ويصب في بحيرة ألبرت منحدرأ نحو (١٠٠) متره فى الفرق فى الارتفاع بين

البحيرتين .. وتبلغ مساحة ألبرت نيانزا حوالى ٥٣٦٦ كيلومترا مربعا وترتفع عن سطح البحر بنحو ٨١٦ مترا ومتوسط عمقها نحو ١٢ مترا ..

أما بحيرة ادوارد .. أو «إدوارد نيانزا» فهي صغيرة لا تتجاوز مساحتها ٢٢٠٠ كيلومترا مربعا ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٩٢٦ مترا .. وينحدر منها نهر السليكى بطول نحو ٢٥٠ كيلومترا حتى يصب في بحيرة ألبرت ..

## ● النيل .. والإنسان الأول ..

والآن ونحن نقف عند المنابع الاستوائية لنهر النيل .. لتتخيل تلك الرحلة الشاقة الطويلة التى يقطعها هذا النهر العظيم حتى يصل إلى شواطئ البحر المتوسط بشمال شرق افريقيا .. حيث يعيش المصريون أصحاب أقدم وأضج حضارة عرفها العالم ..

وهناك حقيقة علمية مذهلة اكتشفت حديثا [ سنة ١٩٧٦ ] قد تؤدى إلى انقلاب فى النظريات العلمية التى تناولت نشأة وظهور الإنسان على وجه الأرض ..

فقد اكتشف أحد علماء الأنثروبولوجى — علم دراسات الإنسان — وهو الدكتور لويس ليكى ومعه زوجته مارى وابنه ريتشارد ، وهما من علماء الأنثروبولوجى أيضا .. تلك الحقيقة العلمية التى ستؤدى إلى إعادة النظر فى كثير من النظريات العلمية المستقرة .. فقد عثر هؤلاء العلماء على عظام بشرية متحجرة لإنسان ما قبل التاريخ .. وذلك فى مكان بجوار بحيرة رودلف بكينيا .. وهو مكان قريب جداً من منابع النيل الاستوائية ..

وبفحص هذه العظام بواسطة القياس الإشعاعى .. تبين أن عمر هذه العظام يرجع إلى نحو مليونين ونصف مليون سنة ! .. فهل معنى ذلك أن الإنسان الأول عاش وتطور فى هذه المنطقة .. ومنها خرج أبناؤه وأحفاده لينتشروا فى جميع أنحاء الأرض مكونين الأجناس البشرية المختلفة التى تعيش فى عالم اليوم ؟ .. !

هكذا تقول أحدث الأبحاث العلمية .. !

## ● تعقيب

وبعد هذا العرض المركز الذى أجملت فيه مختصراً لكل ماورد فى كتاب « الدكتور بارتون ورثنجتون » من معلومات عن نهر النيل .. أستأذن القارىء فى التعقيب بهذا البحث الطريف عن موضوع طريف يتعلق « بعروس النيل » .. فهل هى حقيقة كانت قائمة بالفعل .. أم خرافة جرت بها الأقوال وتسربت إلى كتب التاريخ والأساطير والحكايات الشعبية .. وهل كان المصريون حقاً يلقون بناتهم فى النيل .. ؟ !

نقول بداءة أنه مامن نهر فى الدنيا قامت بينه وبين الناس الذين يعيشون عليه علاقة حميمة كنهر النيل !

هذه العلاقة الغريبة بين الناس والنهر، كانت ذات طابع حضارى رفيع .. هو الوفاء المتبادل .. وفاء من النهر إلى الناس .. وفاء من الناس إلى النهر.

## ● النهر المعلم ..

منذ آلاف السنين .. حين سكن المصريون أرض شمال وادى النيل .. وهم يشتركون مع النهر فى صنع الحضارة .. وكان النهر هو معلمهم الأول ، وله عليهم كل الأفضال ..

النيل .. هو الذى علم المصريين معنى الاتحاد لمواجهة الخطر أو لاغتنام الخير .. علمهم معنى « الوحدة » والتماسك والتآزر كشعب متميز من الناحية الحضارية .. كما علمهم الزراعة التى كانت ومازالت أهم اكتشاف فى حياة بنى الإنسان .. ومن أجل الزراعة تعلم المصريون الكتابة والحساب والهندسة والفلك وعلم قياس الأرض ..

وفىضان النيل هو الذى علمهم أن السنة تتكون من ٣٦٥ يوماً وربع يوم .. وأنها مقسمة أيضاً إلى فصول ثابتة تتكرر كل عام ..

وفىضان النيل فى كل عام هو المعنى الذى تجلّت فيه فكرة « الوفاء » .. وفاء من النهر بوعده فى نشر الخير العميم فى ربوع الوادى .. وبأنه قادم بالمياه التى تروى ظمأ الأرض وظمأ الناس .. وبالطمى الذى يخصب الأرض ويمنحها المزيد من القوة والقدرة على العطاء ..

وكان على المصريين أن يظهروا بدورهم « وفاءهم » للنهر الذى جاء لهم بكل هذه الخيرات .. فكانوا يقيمون الاحتفالات مبتهجين .. وينشدون مئات من الأغاني وقصائد الأشعار ..

## ● أقدم عيد في العالم ..

وكانت هذه الاحتفالات من الأهمية والشمول بحيث كان يحضرها الملك بنفسه .. كما تحضرها أيضا الأسرة الملكية ورجال الدين ورجال الحكومة والمثقفون والكتبة والفلاحون والصناع وكل طبقات وطوائف الشعب الاخرى ..

وغالبا ما كانت تقام الاحتفالات الرئيسية الرسمية في منطقة « جبل السلسلة » التى تقع بين الأقصر وأسوان .. كما كانت تقام احتفالات رسمية وشعبية أخرى في كافة الأقاليم المصرية يشترك فيها الشعب مع مندوبى الملك الذين كان يرسلهم أويكلفهم بالحضور نيابة عنه ..

ونظراً لضخامة تلك الاحتفالات وتكرارها سنويا عبر آلاف طويلة من السنين .. فقد أصبحت عادة مصرية لم يكن من السهل التخلي عنها في أى عصر من العصور التى تألفت وتوالى على تاريخ مصر وشعبها منذ فجر التاريخ وحتى الآن ..

ومعنى هذا أن الاحتفال بوفاء النيل يعتبر من أقدم الأعياد التى ظلت قائمة عبر آلاف السنين .. وليس هناك عيد آخر استمر قائما مثل هذه المدة الطويلة في أى مكان في العالم وبين أى شعب من شعوب الأرض ..

## ● خرافة .. عروس النيل !

هذا التميز لعيد « وفاء النيل » جعله مثل الأساطير التى تتوارثها الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل .. مع كل ماتتضمنه الأساطير — في بعض الأحيان — من لامعقول وخرافات ..

وأهم الخرافات التى أشيعت عن علاقة المصريين بالنيل .. أنهم كانوا يلقون إليه كل عام بعروس بكر جيلة ، مزدانة بأفخر الحلى والثياب ، ويزفونها إليه بإلقائها حية في اليم ، لتبتلعها مياه النهر ، وليأخذها النيل بين أحضانه .. وكانت هذه المراسم تتم على دقات الطبول وإنشاد الأغاني وكل مظاهر الابتهاج والفرح ..



فأما هي حقيقة هذه الخرافة .. وكيف ظهرت هذه الأكذوبة لأول مرة .. ؟ !

### ● المسئول .. ونص الخرافة ..

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم ، الذي مات سنة ٨٧١ ميلادية ، أى منذ ١١١٧ سنة .. كان فقيها عظيماً ومؤرخاً عربياً كبيراً .. كتب « أقدم » مؤلف وصل إلينا عن تاريخ مصر الإسلامية . وهو « فتح مصر والمغرب » ..

قال ابن عبد الحكم :

[ لما فتح عمرو بن العاص مصر ، أتى أهلها إلى عمرو حين دخل شهر بؤته .. فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجزى إلّا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ .. قالوا : إنه كلما جاءت الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر ، عمدنا إلى جارية بكر من أبوها ، فأرضينا أبوها ، وجعلنا عليها من الحلّى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في النيل ..

فقال لهم عمرو : هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله .. فأقاموا شهور بؤته وأبيب ومسرى والنيل لا يجزى قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجللاء ..

فلما رأى عمرو ذلك ، كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك ، فكتب إليه عمر أن قد أصبت ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت إليك بطاقة فألقها في النيل إذا أتاك كتابي . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها :

« من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد . فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك .. »

فألقى عمرو البطاقة في النيل ، وكان أهل مصر قد تباؤوا للجللاء والخروج منها ، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل .. وأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة .. ! ] .

هذه هي الحكاية بالضبط .. وهذا هو أول نص مكتوب يذكر هذه الخرافة .. !

## ● أكذوبة عاشت ألف سنة .. !

ونقول إنها خرافة أو أكذوبة طبقاً للأسباب والتحليلات التي سنذكرها فيما بعد ، رغم احترامنا لشخصية ابن عبد الحكم كمؤرخ للفتوحات الإسلامية .. أما تقديرنا له فيما يتعلق بهذه الخرافة ، فإنه إما أن يكون قد جانبه التوفيق فنقل أكذوبة على أنها حقيقة واقعة .. وإما أن يكون له غرض معين بإطلاق هذه الفرية على المصريين ..

ومن المؤسف أن جميع المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن عبد الحكم وتناولوا بعض الموضوعات المتعلقة بالواقعة التي ذكرها ابن عبد الحكم قبلهم ، قد ذكروا هذه الفرية وكرروها على أنها معلومة تاريخية نقلاً عما كتبه ابن عبد الحكم ، سواء بإسنادها إليه مباشرة أو بذكرها دون إسناد كما لو كانت حقيقة واقعة .. !

ومن المؤرخين العرب الذين أروخوا لمصر الإسلامية ، ونقلوا عن ابن عبد الحكم : المقرئ والمقريزي والكندي وابن تغري بردى والقضاعي وابن دقاق والسيوطي وياقوت وابن إياس ..

وقد ظلت هذه الخرافة تروى على مدى أكثر من ألف سنة منذ أن قيلت حتى الآن ، لدرجة أن أحمد شوقي قد ذكرها في قصيدته الشهيرة عن « النيل » كما لو كانت شيئاً مسلماً به كان يحدث عبر آلاف السنين : « في كل عام درة تهدى إليك وحره لا تُصدّق » إلى آخر ماجاء بالقصيدة تصديقاً لتلك الخرافة ..

## ● دلائل الكذب والتخريف ..

هناك أكثر من دليل قاطع على كذب هذه الخرافة .. وقد تناولها وقتدها الكثيرون من المؤرخين المصريين والأجانب الذين أثبتوا ببراهين دامغة ، أن هذه الحكاية لا تستند إلى أي أساس ، وأنها مجرد أكذوبة أو خرافة من الأكاذيب والخرافات التي أطلقها بعض المؤرخين القدماء عن الحضارة المصرية القديمة .. وفيما يلي بعض هذه الأدلة :

• قبل أن يكتب ابن عبد الحكم هذه الحكاية بنحو ١٣٠٠ سنة ، قام عديد من المؤرخين اليونانيين والرومان بزيارة مصر ، وكتبوا عن كل ما شاهدوه بأنفسهم ، وكل

ما حُكِيَ لهم عن تاريخ مصر والمصريين . وكان أشهر هؤلاء المؤرخين القدماء : هيكتاى دى ميلى .. وهيرودوت .. وسترابون .. وديودور الصقلى .. وكليمان الاسكندرى .. وبلوتارك ..

وقد سجل هؤلاء المؤرخون جميع مراحل التاريخ المصرى القديم ، وذكروا قصصاً كثيرة عن الفراعنة الذين كانوا يحكمون مصر ، وعن حياة وعادات وتقاليدهم المصريين التى كانوا يعتبرونها غريبة عن تقاليدهم وما اعتادوا عليه .. كما ذكروا أيضاً الكثير من الأكاذيب والخرافات التى لا تصدق عن مصر والمصريين .

ومع ذلك لم يذكر أحد من هؤلاء المؤرخين أن المصريين كانوا يذفون للنيل فى كل عام عروسة حية .. ولو أن ذلك قد حدث ولولمة واحدة عبر آلاف السنين ، لكانت فرصة أمام هؤلاء المؤرخين ليكتبوا لقرائهم المزيد من عجائب وغرائب المصريين .. !

\* كتب ابن عبد الحكم هذه الحكاية بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص بنحو ٢٣٠ سنة .. أى أنه كان غير معاصر للحكاية على فرض حدوثها إن كانت قد حدثت فعلاً .. وعلى هذا فيما أن تكون هذه الحكاية قد رويت له بمعرفة أحد المخرفين ، وإما أن تكون الحكاية برمتها من تأليفه هو ، بقصد تنفير المصريين من مظاهر حضارتهم وعقائدهم القديمة ، والدعوة إلى الإسلام الذى يهدم ما كان قبله ..

\* والنص يكذب نفسه بنفسه .. فكيف تمر ثلاثة شهور هى بؤته وأبيب ومسرى « والنيل لا يجرى قليلاً ولا كثيراً » .. إن ذلك لو كان قد حدث لكانت هناك كارثة تزول فيها الحياة تماماً ، ولا يبقى بعدها إنسان أو حيوان أو نبات .. ولحسن الحظ ، فإن مثل هذه الكوارث لم تحدث إطلاقاً فى التاريخ الجيولوجى لمجرى النيل منذ أن وجد حتى الآن .. وكيف يرتفع النيل ١٦ ذراعاً فى ليلة واحدة ؟ ! .. إن هذا يتنافى مع أبسط مبادئ الهيدرولوجيا وعلم القوى المائية .. !

\* كان فتح مصر سنة ٦٤١ ميلادية .. وكان المصريون آنئذ قد اعتنقوا المسيحية ، وهى دين سماوى ولا يمكن أن يقبل أو يقر حكاية إلقاء عروسة بكرحية لتموت غريقة فى النيل .. فالأديان السماوية الثلاث لا تقر ولا تعرف تقديم ضحية « بشرية » كقربان لله ..

\* لم يعرف عن المصريين القدماء فى تاريخهم المعروف والمدون ، أنهم كانوا يقدمون ضحية بشرية لأى إله أو معبود مهما علا شأنه .. وهناك عشرات اللوحات والبرديات التى

كانت تصف أحوال النيل ، سواء عند حدوث الفيضان المعتدل الذى يجلب معه الخير ، أو عند حدوث الفيضان العالى الذى يغرق الأرض و يبعث الرعب فى النفوس ، أو عند حدوث الفيضان المنخفض الذى يؤدى إلى كوارث و مجاعات ..

وهناك أيضا عشرات ومئات المدونات التى ذكرت القياسات التى سجلتها «المقاييس النيلية» إرتفاعاً أو انخفاضاً ، وسواء فى مواسم الفيضان أو فى خلال بقية أيام السنة .. بالإضافة إلى كثير من الأوصاف التفصيلية للاحتفالات النيلية التى كان يحضرها الملك ، ولم يرد فى أى من هذه الآثار جيعاً أى ذكر لعروس عذراء تقدم للنهر قربانا ...

\* عثر حتى الآن على ثلاث لوحات تصنف كل منها بالتفصيل جميع المراسم التى كانت تؤدى والأشعار والأغاني التى كانت تلقى فى الاحتفالات النيلية التى كانت تقام لدعوة النهر إلى الفيضان والإتيان بالخير ؛ وكانت فى الغالب تأخذ طابعاً دينياً وشعبياً .. وأولى هذه اللوحات كانت لمرميس الثانى ، وثانيها كانت لمرنبتاح والثالثة كانت لمرميس الثالث .. وكل هؤلاء الملوك يعتبرون من الملوك العظام [ من الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ] الذين حكموا امبراطورية مصرية قوية تمتد فى آسيا حتى بلاد ما بين النهرين وحدود تركيا ، وتمتد جنوباً وغرباً فى أراضى أفريقيا ..

ومن هذه اللوحات يتضح لنا أن الملك كان يحضر بنفسه هذا الاحتفال الرئيسى الذى كان يبدأ عادة بذبح عجل أبيض وأوز وبط ودجاج كقربان .. ثم تلقى فى النيل «رسالة» مكتوبة على ورقة من أوراق البردى ، تتضمن بعض الصلوات والمدايح فى النيل ، اعترافاً بفضلله وإبتهاً له لمواصلة الفيضان فى كل عام بما فيه خير للبلاد .. فلو كان المصريون يقدمون للنيل عروسة حية ، فهل كان من الممكن عدم ذكر ذلك وإغفاله فى تلك اللوحات التى تركها هؤلاء الملوك العظام .. ؟ !

\* عثر على العديد من الإبتهالات والدعوات المكتوبة التى كانت ترفع للنيل أو تلقى فيه ، خصوصاً حين يأتى الفيضان منخفضاً ومهدداً بالمجاعة .. ولم يذكر فى أى من هذه الإبتهالات أو الصلوات أن عروساً قد ألقيت فى النيل كسبيل للتوسل إليه ..

\* إن النيل نفسه كان محل تقديس لدى قدماء المصريين ، ومنحوه صفة الألوهية وسموه «حابى» .. ويتخذ الإله حابى صورة رجل ذى جسم ممتلىء وتظهر فى ملامحه سمات من النبل والغنى .. ولكن الغريب أن له بطناً كبيرة كبطن الحبالى ، وثمان كبيران كأنها ثديا امرأة تنبثق المياه من حلمتيها مثل اللبن الذى تغذى به الأم أبناءها ..



حابى .. إله النيل عند قدماء المصريين .. امتلاء ثدييه يعنى العطاء ووفرة الخير ..

ومعنى هذا أن المصريين القدماء قد نزهوا الإله « حابى » الذى يمثل النيل فى عقيدتهم عن أن يكون ذكراً أو يكون أنثى .. وجعلوه يجمع الصفتين باعتباره رمزاً للخصوبة والقوة التى تمنح الحياة وتهب الماء والغذاء كما تفعل الأم نحو أبنائها الصغار .. فلو كان « حابى » بهذا الشكل فكيف يستقيم مجرد التخيل بأن المصريين كانوا يزفون إليه عروسة بكرة ليأخذها بين أحضانه .. ولومرة كل عام .. ؟ !

## ● علاقة عاطفية .. وواقعية !

كان النيل إذن على مثل هذا القدر من التقديس .. وقد عثر على قصيدة فى مدح النيل ممثلاً فى الإله « حابى » .. وقد ترجمها عن الهيروغليفية عالم الآثار « ماسبيرو » .. و يقول فيها الشاعر المصرى القديم :

« هو النيل الذى يفيض على البلدين ( الوجه القبلى والبحرى ) فتمتلئ مخازن الحبوب .. وتزدحم المستودعات .. وتتوافر حاجات الفقراء .. إنه يضع نفسه فى خدمة جميع الأمناء فيجيبها من غير أن ينقص منها شيئاً .. هو منشىء السفن .. وهو فى غنى عن أن تنقش باسمه نصب الحجارة أو تنحت له تماثيل عليها التاجان .. وهو لا يراه الراؤون .. ولا يدفع له الناس ضريبة .. ولا يقدمون له الهدايا .. ولا يفتنونه بالكلمات ذات الأسرار الخفية .. ! » .

هذه الرؤية الشعرية التى تقوم على أنبل المشاعر والأحاسيس العاطفية بين إنسان ونهر، هى فى الوقت نفسه رؤية عقلية وتقوم على أسس واقعية تضعها على قدم المساواة مع أجمل الصور الشعرية فى الأدب الواقعى الحديث .. !

## ● من هى عروس النيل .. ؟ !

لا شك أن تعبير « عروس النيل » تعبير قديم .. وقد استعمل عبر آلاف طويلة من السنين .. ولكن لم يكن يقصد بهذا التعبير فى البداية ، أن هناك عروساً عذراء حية تزف إلى النيل بأن تلقى فى أحضانه كل عام .. وإنما كان يقصد بهذا التعبير معنى آخر من

المعاني المجازية .. وهو أن عروس النيل هي مصر نفسها .. هي الأرض المصرية في وادي النيل ..

وربما كان هذا التعبير المجازي هو الذى أدى إلى توهم واختلاق أكذوبة العروس الحية التى تزف إلى النيل .. وهكذا تحول التعبير المجازي « عروس النيل » إلى اسم واقعى يطلق على عروس بكر قيل إنها كانت تقدم هدية ليتزوجها النيل في كل موسم فيضان ..

وفي إحدى « الحواديت الشعبية » المصرية القديمة تشبيه غريب عن أرض مصر قبل أن يأتى الفيضان .. فهي أرض جافة شققها حرارة الصيف وهيب الشمس .. ممتلئة بآلاف وملايين الشقوق التى تبدو كالأرحام .. ثم يأتى النيل كذكر هائل يتخلل تلك الشقوق ويلقح الأرض ويخصبها .. وهكذا تصبح الأرض المصرية الطيبة صالحة « للحمل » عند بذر البذور و « للولادة » في أيام الحصاد ..

عروس النيل إذن هي « مصر » أو « أرض مصر » التى يدخل عليها النيل في موسم الفيضان كما يدخل الرجل على عروسه ليلة الزفاف !

## ● الحجة الشرعية .. من أيام الفراعنة !

يزعم الكثيرون من مؤرخى العرب ، أن التقليد الخاص بإلقاء « حجة شرعية » مكتوبة في النيل ، قد ظهر منذ بداية فتح العرب لمصر على يد عمرو بن العاص .

ويقولون أيضاً إن هذه الحجة كانت في البداية عبارة عن « البطاقة » التى قيل إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أرسلها إلى عمرو بن العاص ليلقيها في النيل بدلاً من العروس البكر الحية .. وتتضمن هذه البطاقة رسالة مختصرة من عمر إلى النيل ونصها : « من عبدالله أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد . فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر . وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » ..

غير أن هذا الزعم ظل رأياً ثابتاً إلى أن تمكن « شامبليون » في سنة ١٨٢٢ م من فك رموز الكتابة الهيروغليفية التى كان يستعملها قدماء المصريين ، وأصبح من السهل الآن قراءة كل النقوش التى تركتها تلك الحضارة العريقة على جدران المعابد ومقابر الملوك وعلى المسلات والنصب التذكارية وأوراق البردى ..

لقد تبين أن الفراعنة كانوا يلقون أيضاً في النيل رسائل مكتوبة على « بطاقات » من أوراق البردى — وإن لم يطلقوا عليها اسم « حجة شرعية » — تتضمن صيغاً رسمية

أو أشعاراً أو أبتهالات دينية .. بل وكان بعض أفراد الشعب يلقون بدورهم رسائل شخصية إلى النيل تتضمن المدائح الشعرية للنهر والاعتراف بأفضاله .. كما قد تتضمن بعض الأمنى الشخصية لصاحب الرسالة .. وكان إلقاء مثل هذه الرسائل يكثر عادة في المواسم التى يأتى فيها الفيضان منخفضاً .. فكانت كلها رجاءات ودعوات للنيل لكى يوفى بوعده ..

ولم يقل أحد من هؤلاء المصريين القدماء للنيل « إن كنت تجرى من قبلك فلا تجر » .. وإنما كانت هذه الرسائل « والبطاقات » تتضمن صيغاً شعرية غاية فى الرقة والعذوبة ..

« سلام عليك يا حابى .. يا من تخرج إلى هذه الأرض وتأتى لتحى مصر .. يا من تخفى فى الظلمات مجيئك .. إنك اللجة تنتشر على الحقول .. فتعطى الحياة لجميع الظمآن .. أنت سيد الأسماك متى جرت الشلال .. وبك لم تعد الطيور ترمى على الحقول .. فأنت صانع القمح والشعير وكاسى المعابد حلل الأعياد ..

أنت إذا لم تحضر فى موعدك .. وقع ملايين من الناس فى البؤس .. وإذا قل مأوك فى السماء ، هلك الناس واستولى الذعر على المواشى .. وصار كل من فى الأرض كبيراً أو صغيراً يعانى العذاب .. ! »

## ● اغتصاب العيد .. من المصريين .. !

وقد ظل الاحتفال بوفاء النيل عيداً شعبياً موسمياً ، استمر فى مصر طوال العصور الإسلامية المختلفة التى مرت عليها .. وكان أبناء الشعب ينطلقون فى هذا العيد معبرين عن ابتهاجهم وأفراحهم بزيادة النيل ووفائه ..

وكانت أهم مراسم هذا الاحتفال بوفاء النيل هو « كسر السد » المقام عند بداية أو « فم » الخليج المصرى .. فتتدفق مياه النيل عبر الخليج ، وتدخل عشرات ومئات القوارب والمراكب والسفن الشراعية الصغيرة وفيها طوائف الشعب المختلفة فى حالة ابتهاج ومعهم الطبول والآلات الموسيقية .



ومن الغريب أن الحكام الغزاة الذين حكموا مصر منذ الغزو العثماني سنة ١٥١٧م ، كانوا يحرصون على إقامة هذا الاحتفال في موعده كل عام .. وكانوا يشاركون أهل البلد في أفراحهم ومباهجهم بهذه المناسبة السعيدة .. بل وتحول الأمر في النهاية إلى أن هؤلاء الحكام قد اغتصبوا هذا الاحتفال من الشعب نفسه .. فصاروا يحتفلون بوفاء النيل بطريقتهم الخاصة بل وكانوا في بعض الأحيان يمنعون المصريين من الاشتراك معهم في الاحتفال بهذا العيد ..!! ويقول « الجبرتي » في ذلك : « كأن الموسم خاص بهم دون أولاد البلد ..! » .

### ● نابليون يحتفل بوفاء النيل ..

ويقول الجبرتي : في ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، أُوْفِيَ النيل المبارك أذرحه .. وأمر صارى عسكر بالاستعداد وتزوين المركب « العقبه » وعدة مراكب أخرى وغلايين .. ونادوا على الناس بالخروج إلى النزهة في النيل والمقياس والروضة ..

وخرج صارى عسكر بموكبه وزينته في صحبة عساكره ، ومعه طبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد .. وكسروا الجسر وعملوا شنك مدافع .. أما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه في المراكب على العادة سوى الشوام والأروام والأفرنج البلديين ونسائهم .. وقليل من « الناس البطالين » حضروا في الصباح ..

أما الاحتفال بوفاء النيل في العام التالي مباشرة « ١٧٩٩ » فقد تحول على أيدي جنود الحملة الفرنسية إلى مايشبه الاحتفال بأعياد « باخوس » أيام الإغريق .. حيث تصنع « الخمر والنساء » كل ما يخطر وما لا يخطر على البال .. ويقول الجبرتي :

« ... وتأهبوا للخلاعة والقصف والتفرغ واللهو والطرب .. وذهبوا تلك الليلة إلى بولاق ومصر العتيقة والروضة .. وأكثروا المراكب ونزلوا فيها .. وصحبتهم نسائهم وشرابهم .. وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفریات ومحاكاة المسلمين من أهل البلد ، وبعضهم تزيا بزى أمراء المماليك ، وليس سلاحاً وتشبه بهم وحاكى ألقاظهم على سبيل الاستهزاء والسخرية .. وأجرى الفرنسيون المراكب المزينة وعليها البيارق وفيها أنواع الطبول والمزامير .. ووقع في تلك الليلة بالبحر وسواحه من الفواحش والتجاهر بالمعاصي والفسوق ما لا يوصف .. !

وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك الخلاعة والرزالة والرقاعة بدون أن ينكر أحد من الحكام عليهم ذلك ، بل كان كل إنسان يفعل ماتشبهه نفسه

وما يخطر بباله .. وإذا كان رب البيت بالدف ضارباً .. فشيمة أهل البيت كلهم الرقص .. !

وأكثر الفرنسيون في تلك الليلة وصباحها من رمى المدافع والصواريخ من المراكب والسواحل .. وباتوا يضرّبون أنواع الطبول والمزامير .. » .

## • سبب الأفراح والأحزان .. !

وبعد خروج الفرنسيين من مصر انطلق أبناء البلد يحاكون ما كان يصنعه الفرنسيون أثناء الاحتفال بوفاء النيل من مساخر .. ويؤرخ الجبرتي احتفالات وفاء النيل لعدة سنوات تالية وحتى سنة ١٨٢٠ م ، وصف فيها أحوال الناس حين كان الفيضان يأتي منخفضاً ، فترج الأحوال ، وتنقطع آمال الناس ويشتد كرههم ، فترتفع أسعار الغلال وتختفى من الأسواق .. ولا يبقى للناس شغل ولا حكاية ولا سمر بالليل والنهار إلا مذاكرة القمح والفول والأكل .. وحين كانت تشتد المجاعة تشع النفوس ويكثر الصياح والعيول ليلاً ونهاراً .. ولا تكاد تقع الأرجل إلا على خلائق مطروحين بالأزقة ..

أما حين كان النيل يز يد زيادة مفرطة في أحد المواسم ، فقد ترك لنا الجبرتي وصفاً للمآسى والنكبات التي كانت تصاحب تلك الفيضانات العالية يقول فيه :

« زاد النيل زيادة لم نسمع ولم نر مثلها .. حتى غرق الزروع الصيفية مثل الذرة والنيلة والسهم والقصب والأرز وأكثر الجنائن .. بحيث صار البحر وساحله لجة ماء ، وانهدم بسببه قرى كثيرة ، وغرق الكثير من الناس والحيوان .. حتى كان الماء ينبع بين الناس من وسط الدور .. واختلط ببحر الجيزة ببحر مصر العتيقة ، حتى كانت المراكب تمشي فوق جزيرة الروضة .. وكثر عويل الفلاحين وصراخهم على ماغرق لهم من المزراع وخصوصاً الذرة الذي هو معظم قوتهم وكثير من أهل البلاد ندبوا بالدفوف .. !! » .

أما حين كان يأتي الفيضان معتدلاً مبشراً بالخيرات ، فهنا كان يطلق الناس عنان مباحيهم بعد أن تعلموا من الفرنسيين الشيء الكثير .. « فيتجأهرون بالمعاصي والراح والوجوه الملاح ، وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد .. ويخرجون عن الحد في تلك الأيام ، فلا يجرو أصحاب الشرطة على التعرض للناس وأفاعيهم .. فكانت مصر في تلك الأيام مراتع غزلان ، ومواطن حور وولدان ، فكأنما أهلها خلصوا من الحساب ، ورفع عنهم التكليف والخطاب .. » !!



مشرق القوة

## **2. SUNRISE OF POWER**

**BY: JOYCE MILTON**



## • تقديم

في مكتبات العالم آلاف من الكتب والموسوعات والمؤلفات الضخمة التي تتناول هذا الموضوع .. أعنى موضوع تحليل وتمجيد الحضارة المصرية القديمة ، واعتبارها من كافة الوجوه ، أعلى وأرقى حضارة ظهرت في تاريخ الإنسان القديم .

ومنذ حوالى مائتى عام ، وهب الكثيرون من العلماء والمؤرخين الأجانب حياتهم العلمية كلها ، للبحث في تاريخ تلك الحضارة العظيمة الرائدة ، بل ولقد ظهر علم تخصصى مستقل بعناصره وقواعده ، وهو علم « الإجيبتولوجى » أو « المصرولوجى » .. وهو ما يطلق عليه أيضا « علم المصريات » ..

وهذا الكتاب واحد من أهم الكتب التي صدرت أخيراً [ عام ١٩٨٠ ] والتي تناولت هذا الموضوع المحبب لدى قارئى الكتب ومحبي الاستطلاع في جميع أنحاء وقارات العالم ، الأمر الذى يدعو الناشرين في أغلب الأحيان إلى إصدار الكتاب الواحد بلغته الأصلية ، وغالباً ماتكون الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية ، ثم إصدار طبعات أخرى مترجمة إلى الاسبانية والبرتغالية والإيطالية واليابانية وغيرها من اللغات الأخرى .. وذلك لإتاحة كتب « المصريات » أمام القراء على أوسع نطاق عالمى ممكن . والناشرون في ذلك متأكدون من ضمان الأرباح بسبب زيادة الطلب والإقبال الشديد على كتب المصريات في جميع أنحاء وقارات العالم ..

ومن المؤسف أن مثل هذه الكتب العظيمة الواسعة الانتشار والمطبوعة على أفخر أنواع الورق المصقول وبأعلى مستويات الطباعة وتنسيق الألوان ، لا تتاح عادة لقارئ اللغة

العربية ، وهو أولى الناس بقراءتها . ولم تصدر حتى الآن طبعة عربية واحدة لأى كتاب من هذه الكتب التى تباع منها ملايين النسخ ، مترجمة إلى العديد من اللغات عدا اللغة العربية ، وتعرضها المكتبات فى جميع مدن العالم عدا مكتبائنا نحن إلا فيما ندر ، و يقبل عليها ملايين القراء ومحبو الكتب فيما عدانا نحن أيضا إلا فيما ندر.. !

أليس من المدهش ألا يعرف المتعلمون المصريون عن تاريخ بلادهم إلا شذرات لا تغنى شيئا ، بل وقد يكون أغلبها مغلوطا ومخلوطا بالخرافة .. وفى نفس الوقت يدرك المتعلمون ومحبو الثقافة فى جميع أنحاء العالم أبعاد الحضارة المصرية القديمة ويمجدونها تمجيда .. ؟ !

واليس الأغرب من ذلك ، أن بعض الدراسات المقارنة فى علوم التربية ، أكدت أن المعلومات التى يتلقاها فى المدرسة الطفل الفرنسى الذى يبلغ نحو تسع سنوات عن التاريخ المصرى القديم ، تفوق فى قدرها كل ما يحصله خريج الجامعة فى مصر.. ! !

## ● الإيجيبتومانيا ..

معنى هذا المصطلح العلمى هو « الجنون بمصر » أو « الولوج الشديد بمعرفة المعلومات المصرية » .. وقد انتشرت هذه الظاهرة بين شعوب العالم المتمدين منذ قديم الزمان .. ولا غرو فهذه الآثار الخالدة التى كانت تملأ ربوع وادى النيل المصرى طولاً وعرضاً ، كانت مشارع إعجاب جميع الغرباء الذين كانوا يفدون إلى مصر من وراء الحدود ، سواء أكانوا من الزائرين العابرين أو من الغزاة الفاتحين أو من المستعمرين المستوطنين .

كانوا جميعاً يقفون مبهورين أمام ضخامة وروعة هذه المباني والمعابد والتماثيل .. ناهيك عن الأهرام وأبى الهول .. حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار ، ناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق ، وانهم قد استعانوا بالسحر فى تنفيذ كل هذه الإنشاءات الهائلة .. !

ويرجع هذا الاعتقاد بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة الهيروغليفية التى كانت مدونة على تلك الآثار .. وحين قام هيروdotus بزيارته لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كان قد ندر استعمال الهيروغليفية كلغة مصرية إلا فيما بين بعض الكهنة المحافظين الذين كانوا يعيشون أيامه .. ولذلك فقد أصبحت هذه اللغة كالطلاسم تماماً

أمام كل من يفكر في قراءتها أو استجلاء معانيها ، ومن هنا شاعت الأساطير والخرافات القديمة عن المصريين القدماء الذين صنعوا هذه الحضارة ..

ويمكن القول انه لو كان هيرودوت قادراً على قراءة الكتابة الهيروغليفية ، لغير تماماً جميع أقواله التي ذكرها عن تاريخ مصر ، والتي كادت أن تكون بأجمعها تكريراً للخرافات والمعلومات الموهلة في الغرابة ، والتي تثير خيال كل من يسمعها ، وهو ما كان يستهوى المثقفين ومحبي الاستطلاع والمعرفة في العالم القديم .

وكان بعض قياصرة الرومان يفخرون بأنهم قد استطاعوا أن ينقلوا إلى روما المسلات والتماثيل المصرية الضخمة ، التي كانت تعاد إقامتها في أفخم ميادين روما وأكثرها جمالاً .. وحين كان يتحلق الرومان القدماء وزوار روما من الأجانب حول هذه الآثار العملاقة ، كانوا يتبادلون أحاديث الإعجاب بقدرة هؤلاء المصريين القدماء الذين كانوا يعيشون قبلهم بالآلاف السنين . ولم يكن يخلو الأمر عادة من وجود الكثير من الدارسين وأهل العلم الرومان الذين كانوا يجادلون كثيراً في محاولة فهم وتخمين معاني الحروف الهيروغليفية المدونة على تلك الآثار ..

ومرور الزمن شاع الاعتقاد بأن الحروف الهيروغليفية المدونة على الآثار المصرية القديمة ، ماهي في حقيقة الأمر إلا رموز لعلوم الطبيعة وما وراء الطبيعة .. ومن هنا انتشر استعمال حروف ورموز مماثلة تماماً للحروف الهيروغليفية بين علماء الكيمياء والسحرة وأعضاء الجماعات السرية ، بعد أن جعلوا لكل حرف من هذه الحروف دلالة بعيدة تماماً عن حقيقة معناها ، وعلى الفور شاعت الخرافات عن القدرة السحرية الفائقة التي كان يتمتع بها المصريون القدماء ، بل وصدرت « قواميس » وكتب زائفة كانت تتداول سراً ، وتتضمن أسرار السحر المستمدة من حروف ورموز الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة .

## ● شفاء لكل مرض .. !

وشاع الاعتقاد عبر التاريخ وبين عديد من الشعوب الأوروبية القديمة ، بأن قليلاً من طحين أو مسحوق مومياء مصرية قديمة ، كفيل بشفاء جميع الأمراض مهما كانت مستعصية .. ولهذا السبب فقد كان يند إلى مصر كثير من الأفاقين الأوروبيين ليشاركوا في عمليات نهب القبور المصرية القديمة للحصول على المومياوات بلا مقابل تقريباً ، ثم كانوا

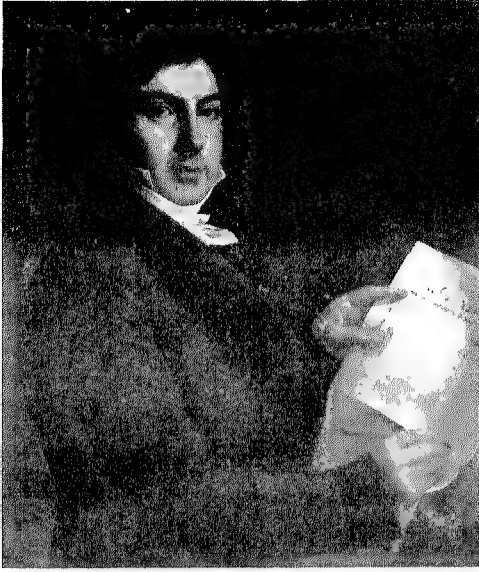


الحروف الهيروغليفية .. ظل الأوريون لفترة طويلة يعتبرونها من  
علامات السحر وتكن فيها أسرارهم ..

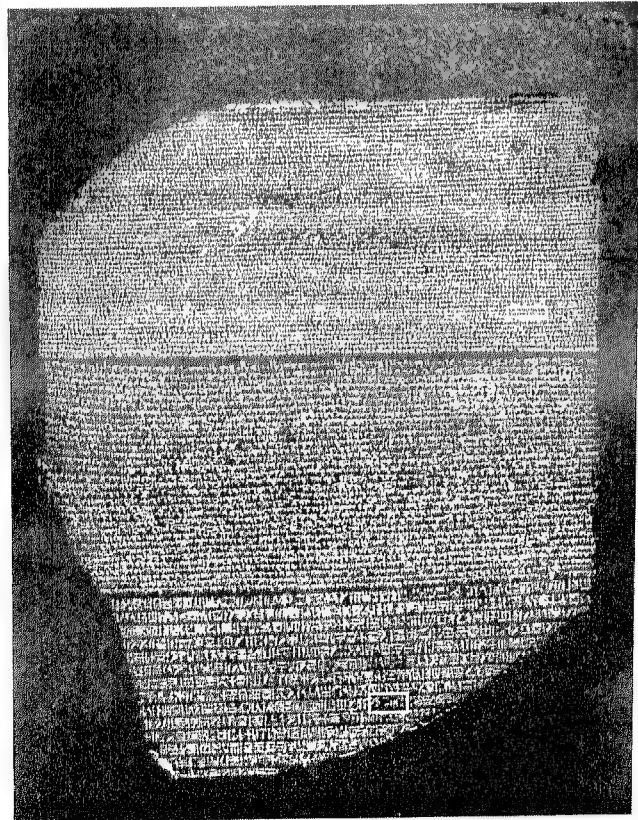


مسلة مصرية قديمة .. نقلوها إلى روما ونصبوا الصليب فوقها .. !





شامبليون .. فك طلاسـم الهيروجليفية .. واشتهرفى الأوساط الأوربية  
باسم «المصرى» لشدة تعلقه وشغفه بالحضارة المصرية .



حجر رشيد .

يقومون بنقل تلك المومياوات لتباع للأطباء ومدعى القدرة على الشفاء في مختلف الدول الأوروبية ..

وقد استطاع أحد هؤلاء الأفاقيين وهو رجل اسكتلندى اسمه « جون ساندرسون » وفد إلى مصر في خلال القرن السادس عشر ، أن ينقل من مقابر « منف » مومياوات مصرية بلغ وزنها نحو ستمائة رطل ، وقام ببيعها في الجزر البريطانية بالسعر الذى كان سائداً لهذه السلعة ، وهو ثمانى شلنات للرطل الواحد ..

## ● الحضارة المصرية تغزو أوروبا ..

وحين جاء نابليون بونابرت إلى مصر غازياً ، كان ينظر إليها باعتبار موقعها وأهميتها كجزء من امبراطورية كان يحلم بها ، ومع ذلك فقد اصطحب معه في حملته إلى مصر [ ١٧٥٥ ] عالماً ، كانت مهمتهم دراسة مصر من أقصاها إلى أقصاها ومن جميع النواحي ، سواء ماتعلق بالمصريين القدماء أو بالمصريين الذين كانوا يعيشون في زمنه .

وقام هؤلاء العلماء بنقل صور دقيقة جداً ومماثلة تماماً لجميع الآثار الظاهرة التى خلفتها الحضارة المصرية القديمة ، بل وقاموا برسم وتصوير النقوش الهيروغليفية المدونة على جدران تلك الآثار بدقة متناهية ودون أن يعرفوا الدلالات والمعانى الحقيقية لهذه النقوش الغربية ..

ومن حسن الحظ أن أحد ضباط نابليون ، وهو الكابتن « بوشارد » كان مكلفاً بحفر تحصينات عسكرية لحماية قلعة رشيد عند مصب النيل غرب الدلتا .. وفى أثناء الحفر عثر أحد رجاله على حجر من البازلت الأسود كتبت عليه ثلاثة نصوص بلغات مختلفة ومن بينها نص مكتوب بالهيروغليفية .

وبعد العثور على حجر رشيد بسنوات ، استطاع عالم المصريات الشاب الفرنسى « جان فرانسوا شامبليون » أن يفك الرموز الحقيقية للحروف الهيروغليفية ، وأن يعرف الدلالات الصوتية للحروف والكلمات وأن يعرف معانيها أيضاً .. ببساطة أصبح التارىخ الحقيقى لمصر القديمة فى متناول القادرين على قراءة الهيروغليفية .

ومنذ ذلك الحين أصبحت جميع الكتب والمعلومات التى كانت تتناول « المصريات » كمصدر للسحر ، من قبيل الخرافة . وظهر علم حقيقى جديد له قواعده وأركانه ، وهو

« علم المصريات » أو « علم الآثار المصرية » الذى يقوم بدراسة الآثار وتاريخ مصر على أسس علمية واقعية واضحة خالية من كل خرافة أو تشويه ..

وماهى إلا فترة وجيزة بعد هذا الاكتشاف المذهل ، حتى أصبح التاريخ المصرى القديم بمفاجآته ومعلوماته الجديدة ، هو الحديث اليومى لعظم المثقفين فى أوربا والدول الغربية بصفة عامة ، بل وأصبح من الصعب أن تنسب صفة الثقافة إلى أحد فى أوربا ، إلا إذا كان يملك فى حديثه ما حصله من معلومات عن تاريخ مصر وعن الحضارة المصرية القديمة .. !

## ● لماذا خلدت آثارهم ..

إن حكام عالم اليوم من ملوك وأمراء ورؤساء ، مهما علت أقدارهم وارتفع شأنهم ، لا يحلمون ببُلُوغ العظمة التى بلغها الملوك والحكام العظام الذين حكموا مصر أيام مجدها فى التاريخ القديم ..

وحين بلغ الإحساس بالعظمة لدى ملوك مصر القدماء حد الاعتقاد بأنهم « آلهة » وأصبحوا يصرفون الأمور على هذا الأساس ، رسخت فى ذهن البشرية فكرة « الحكم بالحق الإلهى » والى ظلت موجودة إلى عهد قريب ، بل وما زالت موجودة حتى الآن فى بعض الدول والجماعات ، وإن اتخذت أشكالاً مختلفة باختلاف المكان والزمان ، فمن قائل بأن الحاكم يستند إلى « الحق الإلهى » مباشرة ، إلى قائل بأن الحاكم هو « ظل الله على الأرض » إلى قائل متواضع يقول بأن الحاكم « ملهم » لاراد لكلماته ولاناقص لتصرفاته ..

ولم يكن من المستغرب أن يتقبل الشعب المصرى فكرة ألوهية الحاكم القديم ، فى وقت لم تكن فيه الرسالات السماوية قد وصلت إلى الناس ، بل وقبل نزول أول دين سماوى بآلاف السنين .. والفلسفة التى جعلت من اليسير قبول فكرة ألوهية الحاكم لدى المصرى القديم ، هى فكرة « الخلود » التى كانت تحكم الحضارة المصرية القديمة منذ ظهورها حتى اندثارها ..

كان المصرى القديم يؤمن بالخلود كعقيدة يومية تتجلى فى جميع مناحى الحياة .. كل شىء فى الوجود خالد وبقى أبد الدهر .. وهذا بالضبط ما كان يدور فى خلد جميع العمال والفلاحين والحرفيين والبنائين والمهندسين المصريين الذين اشتركوا فى بناء الهرم .. فقد

أقاموا هذا الصرح ليكون خالداً أبداً الدهر، ورامزاً إلى فكرة الخلود نفسها .. وقد اتضح الآن أنهم لم يكونوا مبالغين في هذا الاعتقاد ..

وحين تمكن المصريون من توحيد الوجهين القبلى والبحرى ، وأطلقوا على بلادهم اسم «مملكة الأرضين» ظلت هذه الفكرة سائدة بالفعل على مدى يزيد على خمسة آلاف سنة ، بل وستظل سائدة ما بقى وطن اسمه مصر .. وهذا أيضا تطبيق مباشر لفلسفة الخلود التى قامت على أساسها الحضارة المصرية .

وحتى حين اندثرت تلك الحضارة القديمة ، وحلت محلها حضارات أخرى ، فإن الآثار المبهرة التى خلفتها تلك الحضارة الزائلة دفينه فى الرمال وبطون الجبال وبين طبقات الطمى المتراكمة ، مازالت تكتشف يوما بعد يوم ، ومازالت حتى الآن ذات قدرة سحرية فائقة على إيهام الإنسان الذى يعيش فى عالم اليوم ..

وبعض علماء التاريخ يقولون إن اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» مثلا سنة ١٩٢٢م يعتبر بكل المقاييس العلمية أعظم اكتشاف أثرى فى القرن العشرين بأكمله .. ومن المؤكد أن الرمال والجبال وطبقات الطمى مازالت تخفى الكثير من الآثار الفذة التى خلفتها تلك الحضارة العظيمة .. وهذا يؤكد مرة أخرى فكرة إيمان المصرى القديم بالخلود الشامل لكل شىء فى الوجود ، حتى ولو كان من صنع يديه .. !

وحين فقدت مصر استقلالها فى القرن الرابع قبل الميلاد ، كانت حضارتها القديمة قد شاخت ودب فيها الوهن ، وجاء الإغريق ثم جاء من بعدهم الرومان ، وكانوا جميعاً يقومون بسياحات داخلية فى طول مصر وعرضها ، ليتمتعوا بمشاهدة الآثار الفرعونية القديمة التى خلفتها تلك الحضارة الفذة المبهرة ، ولم تكن تلك الأفواج السياحية تغلوم من بعض الأثانيين الذين كانوا يتجرون فيكتبون أساءهم و يسجلون زيارتهم لتلك الآثار وانهارهم بها .. نفس الشىء الذى مازال يفعله بعض المشاغبين حين يقومون بزيارة تلك الآثار المصرية الآن فى غفلة من الحراس ..

والغريب ان الأفواج السياحية الإغريقية والرومانية التى كانت تزور الآثار المصرية فى ذلك الزمن القديم ، كانت تنظر إلى تلك الآثار باعتبارها من مخلفات شعب عاش قبلهم منذ نحو ثلاثة آلاف سنة ، ومن هنا كان سبب الانهيار .. نفس الانهيار الذى يصيب الأفواج السياحية فى عالم اليوم حين تزور الأكروبول فى أثينا أو الكلز يوم فى روما باعتبارها من مخلفات شعوب عاشت منذ نحو ألفين فقط من السنين .. !

## ● أم الحضارات ..

تاريخ الإنسان المتحضر المكتوب ، يرجع إلى نحو عام ٣٢٠٠ ق . م ، أو منذ نحو خمسة آلاف سنة فقط على وجه التحديد .. وليست هذه الفترة رغم ضخامتها وامتدادها ، إلا شرحة زمنية صغيرة في تاريخ الإنسان على الأرض ..

وبرغم ذلك فقد حفظت ذاكرة التاريخ أهم المدارك والمعارف والآثار التي تركها الإنسان خلال مراحل تطوره وتحضره عبر هذه الآلاف الخمس من السنين ..

والحضارة الإنسانية التي يعيش فيها إنسان ثمانينات القرن العشرين بعد الميلاد ، هي ببساطة نتاج وحيلة جميع الحضارات الإنسانية القديمة التي عاشها الإنسان على وجه الأرض . ولاغربة فالمعادلة بسيطة ، فجميع هذه الحضارات الإنسانية كانت تبنى على أنقاض حضارات سابقة عليها ظهرت وأندثرت ، كما أن الإنسان كان ومازال يستفيد مباشرة من جميع الأفكار والقواعد والقوانين التي خلفها له إنسان آخر سابق عليه في الزمان وقد ينأى عنه في المكان ... وهكذا تتقدم الإنسانية يوماً بيوم وفي كل زمان ومكان ..

ومن المعلومات العامة المتاحة للإنسان الذي يعيش في عالم اليوم ، معرفة أسماء عشرات الحضارات والامبراطوريات والممالك والدول التي حفل بها تاريخ الشعوب القديمة .. لقد ظهرت الحضارات واندثرت ، وقامت الدول ثم دالت وزالت .. وستظل نظرية الظهور والزوال هي القدر الذي يواجه الإنسان ويتحكم فيه ، حتى ولو كان ذلك ممثلاً في فكرة الحياة والموت ، والحياة بعد الموت ..

ولقد ظهرت نظرية حديثة يقول بها بعض المؤرخين ، وهي أن الإنسان أو الجنس البشري بصفة عامة مصاب بنوع من الجنون العام يسمى « تدمير الذات » .. وغالباً ماتكون الحروب مجالاً خصباً لإقامة شعائر هذا الجنون .. فكم من مجتمعات إنسانية تعرضت للغزو والإبادة ، وما أكثر ما يحفل به التاريخ من ذكريات محزنة عن المذابح الجماعية البشعة وأعمال الحرق والسلب والنهب .

وتنطبق نظرية تدمير الذات أيضاً على جريمة حرق مكتبة الاسكندرية التي كانت تحفل بمئات وآلاف المؤلفات العلمية التي نتجت من فكر الإنسان عبر آلاف السنين ، وتنطبق أيضاً على جريمة تدمير مكتبة بغداد وإلقاء كتبها وكنوزها الثقافية في النهر حتى تلونت بأحبارها المياه وكونت جسراً بين شاطئ النهر ليعبر عليه الغزاة ..

وحتى زمن قريب كانت تخلع أحجار الأهرام لتستعمل في بناء البيوت والبوابات والحصون والقلاع ، بل وكانت لفائف البردى التى سجلت عليها أسرار وعلوم الحضارة المصرية ، تستعمل وقوداً للأفران .. أليس هذا بدوره نوعاً من جنون تدمير الذات .. ؟ !

وعلى أية حال ، فن بين جميع هذه الحضارات الإنسانية التى ظهرت واندثرت عبر آلاف السنين من التاريخ المكتوب أو المعروف ، تبوأ الحضارة المصرية مكان الصدارة واعتبرت بكل المقاييس العلمية حضارة رائدة ، أنارت الطريق أمام الإنسان الحى ليبلغ أقصى درجات الرقى ، وليس من قبيل المبالغة أن بعض المؤرخين الغربيين يطلقون على الحضارة المصرية القديمة اسماً شهيراً هو « أم الحضارات » ..

تلك كانت عجالة لا بد منها لنخترق الحجب ، ولنرى كيف حقق المصريون القدماء تلك المعجزات الهائلة .. كيف تعلموا الحساب والهندسة ، وكيف تتبعض مدارات النجوم ليضعوا أول تقويم سنوى فى تاريخ الإنسان .. وكيف شيدوا الأهرامات وكتبوا المراجع فى علوم الطب والتشريح .. ثم كيف قاموا بأول ثورة اجتماعية فى تاريخ السياسة ونظم الحكم ..

## ● متى تم توحيد الوجهين .. ؟

فى بداية الأمر ، وبالتحديد فى عام ١٧٩٣ م ، أى قبيل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر ، أعلن عالمُ المصريات الفرنسى « ديبوى » بعد أن قام بدراسة بعض « البروج » الفرعونية القديمة أن المصريين القدماء ما كانوا يستطيعون عمل تلك البروج إلا إذا كانوا قد واصلوا الدراسات الفلكية لمدة [ ١٥ ] ألف سنة على أقل تقدير ..

وبعد فك الرموز الهيروغليفية ، قام شمبليون الذى أطلق عليه لقب « المصرى » بقراءة وترجمة النصوص الهيروغليفية المدونة على الآثار المصرية المنتشرة فى متاحف فرنسا وإيطاليا ، ثم قام بزيارة مصر لرؤية هذه الآثار فى مهدها . وأعلن شمبليون أن الملك مينا الذى قام بتوحيد الوجهين القبلى والبحرى وأنشأ الدولة المصرية قد تم له تحقيق ذلك فى عام ٥٨٦٧ قبل الميلاد .. !

وقد وقع شمبليون فى الخطأ الحسابى نتيجة لعدم معرفته بطريقة المصريين القدماء فى حساب أيام وسنوات حكم الملوك الذين تولوا عرش البلاد ، وقام علماء المصريات بتصحيح هذا التاريخ بإرجاعه إلى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وهو التاريخ الصحيح ، رغم

أن بعض العلماء يقولون بأن المصريين قد نجحوا في عدة محاولات لتوحيد الوجهين قبل مينا بألفين من السنين على أقل تقدير ..

وعلى أية حال ، فقد جلس مينا على عرش مملكة « الأرضين » .. وليس على رأسه التاجين ، وأعلن نفسه أول ملك في الأسرة الأولى من الأسر الفرعونية الواحدة والثلاثين التى ظلت تحكم مصر منذ ذلك التاريخ القديم حتى القرن الرابع قبل الميلاد حين غزاها الاسكندر الأكبر ..

## ● وأشرق شمس الحضارة

ورغم ندرة الآثار التى خَلَفَتْهَا الأسرتان الأولى والثانية ، إلا أن علماء التاريخ المصرى استطاعوا الوصول إلى معرفة الأسس الحضارية التى أرسىها هاتان الأسرتان فى الديار المصرية ..

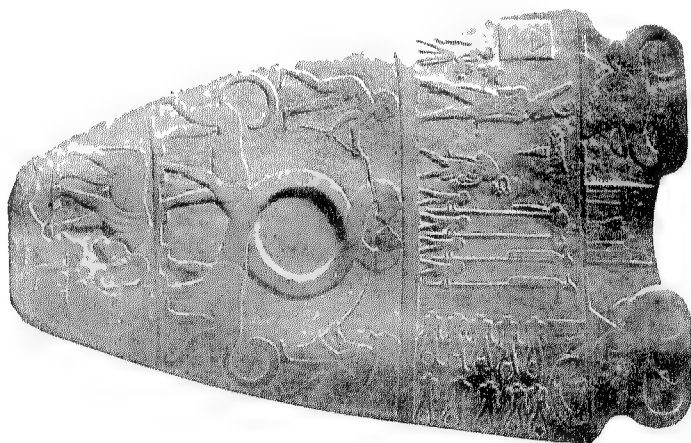
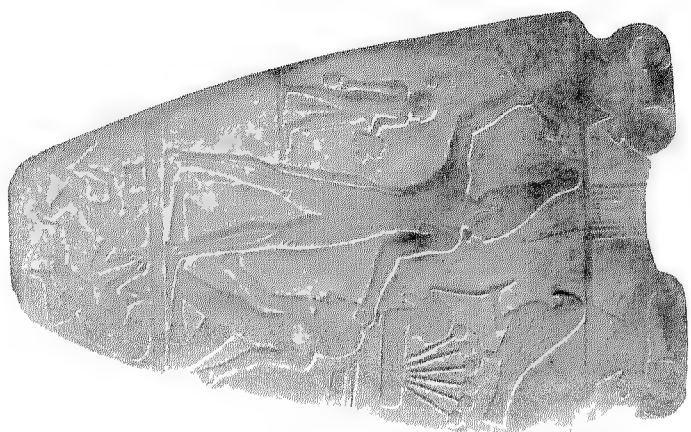
فى هذا العصر ظهرت أولُ مُدَوَّنَات فى العالم عن علم الطب وعلم التجبير « علاج العظام » . بل ويذكر المؤرخون المصريون القدماء أن الملك « زُر » وهو أحد ملوك الأسرة الأولى أَلَفَ بنفسه كتاباً فى علم التشريح .. وفى هذا العصر أيضاً تم تدوين وتسجيل النصوص الدينية المقدسة فى كتب مستقلة ، وظهرت الإرهصاصات الأولى لعلم الهندسة والعلوم الرياضية ..

وفى هذا العصر كذلك تم تنظيم الحكومة المركزية وتوطدت السلطة الإدارية فى طول البلاد وعرضها ، كما تم تحصين حدود البلاد وتقويتها ، وضمت بعض بلاد النوبة ، كما أحكمت السيطرة على شبه جزيرة سينا باعتبارها أرضاً مصرية ..

ويذكر التاريخ أنه فى عهد الأسرة الأولى أجريت أول عملية إحصاء للسكان فى تاريخ العالم .. بل ووضعت القواعد لإجراء عملية الإحصاء كل عامين .. !

## ● الملوك العظام .. بناء الأهرام

بعد عصر الأسرتين الأولى والثانية ، تولى حكم مصر ملوك الأسرة الثالثة الذين أنشأوا مايسمى فى التاريخ المصرى باسم « الدولة القديمة » .. وهى الدولة المصرية التى بدأت



الوجهان [ الأمامي والخلفي ] للوحة الملك نارمر « مينا » موحد الأرضين  
الوجه البحري والوجه القبلي . حوالي عام ٣٣٠٠ ق.م





الحرم المدرج: بـسـفـارة... بـسـاهـ المـلك زوسـر [الأسرة الثالثة] بمعاونة وزنه المهتمين  
المعبري إيجوب... و يعتبر أول أضخم بناء حجري في تاريخ الإنسان على الأرض...

عام ٢٧٨٠ ق. م واستمرت تاريخياً نحو [ ٥٠٠ ] سنة ، تحت حكم ملوك وملكات الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة .

وهذه الحقبة التاريخية ، مازالت تعتبر أرقى مرحلة وصل إليها الجنس البشرى الذى كان يعمر الأرض فى ذلك الزمن السحيق ، كما تعتبر أيضاً أول مرة يصل فيها الإنسان القديم إلى هذا المستوى الحضارى العظيم ..

فى عصر الأسرة الثالثة ، قام الملك زوسر ، يُعَاوُثُهُ فى ذلك وزيره العظيم إِمحوتب ، بإنشاء أول بناء حجرى ضخم فى تاريخ الإنسان على الأرض .. الهرم المدرج بسقارة ..

وإِمحوتب هو ذلك المهندس الطبيب الأديب الفيلسوف الحكيم .. وأول واحد من أبناء الشعب الذين لا ينحدرون من سلالة الأسر الملكية ، يدوُّ اسمُه ويشادُّ بفضله على جدران المعابد والمقابر المصرية .. وكان يتمتع بعقلية هندسية جبارة وله قدرة فائقة على تشخيص الأمراض ووصف الدواء .. وفضلاً عن ذلك كله فإنه كان يتمتع بحب الناس العاديين الذين ظلوا يجدونه حتى أوصلوه إلى مرتبة الإله ..

ومهما قيل عن الأغراض من بناء الأهرام ، فإن فكرة بناء الأهرامات فى حد ذاتها تؤكد المستوى الرفيع الذى وصلت إليه الحضارة المصرية القديمة ، حين عرفت فى هذا الوقت المبكر ، أسرار النظريات الهندسية والعلاقات الرياضية بين المربع والدائرة والمثلث والاسطوانة والقمع والمستطيل وغير ذلك من الأشكال الهندسية ، وارتباط ذلك كله بعلم الحساب وعلم الفلك وحساب السنين لضبط التقويم ..

وقد بلغت الدولة القديمة أوج مجدها فى عصر ملوك الأسرة الرابعة الذين مازالت أسماءهم تتردد بين الناس منذ حكموا وحتى الآن .. أى على مدى يقرب من [ ٤٧٠٠ ] سنة .. ومن ذا الذى يعيش فى أى مكان فى عالم اليوم دون أن يعرف شيئاً عن الأهرام والملوك العظام خوفاً وخفراً ومنقرعاً ؟ !

## ● تأكيد الذات المصرية ..

هذه النهضة الهندسية المعجزة التى تحققت أيام الدولة القديمة ، صاحبها نهضات أخرى تمثلت فى رسوخ قواعد الحكم وسيطرة الدولة ، وإرسال الحملات العسكرية لتأمين الحدود المصرية وخلق الجوامع المناسبة لمداومة الإنتاج المصرى فى ميادين الزراعة والصناعة ..

وفي عهد الدولة القديمة أيضا أرسلت أول البعث الاستكشافية الجغرافية في تاريخ الإنسان ، حيث توغل المصريون كثيراً في قلب المناطق المدارية في أفريقيا ، وعادوا بوصف دقيق لأحوال تلك البلاد ومنتجاتها .. والقصة التي دونها « حرخوف » وهو أحد كبار الموظفين الذين أوفدوا في أول رحلة استكشاف جغرافي لمجاهل إفريقيا ، تعتبر أول نص في أدب الرحلات في العالم ، لما فيها من طرافة وقدرة فائقة على الوصف .

كما أن الفنون الجميلة من نحت ونقش وتصوير ، قد وصلت في عهد الدولة القديمة إلى أعلى درجة من الدقة والتنظيم ، ووضعت لها القواعد الصارمة ، وجعلت للفنون المصرية طابعها الخاص الذي تميزت به عبر آلاف السنين .

وكانت جامعة عين شمس ، أو « جامعة أون » كما كانت تسمى أيام الدولة القديمة أكبر مركز علمي في العالم القديم ، تدرس فيه أسرار علوم الدين والفلسفة والعلوم المدنية الأخرى .

## ● ممنوع السخرة ...

هذا النظام الصارم الذي تحكم في كل شيء في خلال عصر الدولة القديمة ، والذي تمثل في سيطرة الحاكم على كل شيء في البلاد ، جعل بعض المؤرخين يصفون حكم ملوك الدولة القديمة بأنه كان حكماً دكتاتورياً سافراً يقوم على مبدأ إخضاع الفرد للدولة ، والسيطرة التامة على جميع مظاهر حياة الشعب وطاقاته الإنتاجية ..

ولكن هناك مؤرخون يفسرون فلسفة الحكم في عصر الدولة القديمة بأنه كان قائماً على مبدأ « اشتراكي » ذي طابع خاص ، تسيطر فيه الدولة [ أو الشعب ككل ] على جميع وسائل الإنتاج والنشاطات الاقتصادية ، وتوجهها في صالح الجماعة ككل طبقاً لقواعد صارمة ..

وأياً كانت تحليلات المؤرخين ، فإنه من المؤكد أن المصريين الذين كانوا يعيشون في عصر الدولة القديمة ، كانوا خاضعين لنوع من الحكم يقوم على « التكافل الاجتماعي العام » والإيمان الشديد بحق كل إنسان في المأكل والمأوى والأمن ، مادام يؤدي واجبه كفرد في جماعة مترابطة محكمة التنظيم ..

وقد وقع هيرودوت في خطأ الاعتقاد بأن الأهرامات قد بنيت بالسخرة التي كانت تفرض على مئات الآلاف من العبيد والفلاحين الذين كانوا يعملون مجانا ، وحكى

هيرودوت حكايات غريبة عن هذا الموضوع ، وكلها تتسم بالتخريف والمعلومات غير الصادقة ..

فقد أثبتت المُدُونات التاريخية التي تم العثورُ عليها ، أن الفلاحين والعمال والحرفيين الذين اشتركوا في بناء الهرم ، كانت تصرف لهم الأجور المناسبة ، وتقدم إليهم وجبات الطعام في أوقاتها المعتادة ، كما كانت تصرف لهم حصص عينية من الخبز والجعة والفواكة والخضروات والحبوب .

ولاشك أن تنفيذ عمليات الإمداد والتموين هذه ، لجيش هائل من المشتركين في البناء ، يصل عدده إلى نحو مائة ألف عامل ، إنما يدل بصفة قاطعة على وجود هيئة متخصصة للقيام بهذا العمل طبقا لقواعد دقيقة في حسن التنظيم والادارة .

بل و يسجل تاريخ الدولة القديمة أن الملك « كاكاو » وهو أحد ملوك الأسرة الخامسة ، قد أصدر مرسوما ملكيا يتضمن تفصيلات مطولة لقواعد العلاقة بين الدولة وبين الذين يعملون من أجل الدولة من عمال وفلاحين وحرفيين .. ويمنع فيه « السخرة » ويحرمها تحريما ، بل ويجعلها جريمة يستحق مرتكبها العقاب ، وأوصى بأن ينال العامل الأجر الذي يستحقه على الفور ، وأن تسود العدالة عند حسن الجزاء وسوء العقاب .

## ● أول ثورة اجتماعية في العالم ..

أعقبت سقوط الدولة القديمة فترة زمنية امتدت نحو [ ٢١٨ ] سنة على وجه التحديد ، فقد بدأت عام ٢٢٥٨ ق.م وانتهت عام ٢٠٤٠ ق.م حين قامت « الدولة الوسطى » .

وتعتبر هذه الفترة حالكة الغموض في تاريخ مصر القديم الذي أصبح الآن واضحا عدا بعض الفترات الزمنية التي مازال يعترها الظلام ، وما زالت تتضارب فيها الأقاويل .

وما زال علماء المصريات مختلفين في تفسير الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة القديمة وسقوط البلاد بالتالي في عصر سادت فيه الفوضى محل النظام ، كما حل فيه الخراب محل الرخاء .

هناك نظرية تقول إن الدولة القديمة لا يمكن أن يكون قد انتهت هذه النهاية المفجعة إلا بسبب حدوث سلسلة من الكوارث الطبيعية التي أدت إلى إنهيار نظم الري الرئيسية في البلاد ، وبالتالي إنهيار كل النظم الاقتصادية والاجتماعية والدينية ..

وهناك نظرية أخرى ترى أن الحضارات على وجه العموم لها «دورات» بمعنى أن الحضارة تنشأ ثم تزدهر ثم تنهار.. وهذا هو ما حدث بالفعل بعد بلوغ الدولة القديمة عظمها ..

وكان آخر ملك تولى عرش مصر من ملوك الأسرة السادسة ، هو الملك « بيبى الثانى » وقد جلس على العرش وعمره ست سنوات فقط ، ولكنه استمر يحكم حتى مات فى النهاية وعمره مائة سنة . أى أن مدة حكمه قد بلغت ٩٤ عاماً ، وهى أطول مدة يذكرها تاريخ العالم لحاكم استمر يحكم الناس هذه الفترة الطويلة ..

وهناك الكثير من الشواهد التاريخية التى تدل على أن سلطان الملوك قد أخذ يتقلص ، وتزداد بالتالى سلطات الوزراء وكبار الموظفين وحكام الأقاليم ، فاختل على الفور النظام الصارم المحكم الذى كان سائداً أيام خوفو وغيره من ملوك الأسرة الرابعة .. وكان لابد أن يؤدى ذلك إلى انهيار نظام الطبقات وحدوث انقلاب اجتماعى يشمل كل الناس . ولقد تجرأ أحد حكماء المصريين من أبناء الشعب ، وخاطب فرعون مصر ليخبره بسوء الحالة :

« إن القيادة والفتنة والصدق معك ، ولكنك لا تنتفع بها ..  
فالفوضى ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها .. ولكنك مع ذلك تتغذى بالكاذب التى تتلى عليك .. فالبلاد قش ملتهب والإنسانية منحلة .. لبيتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك .. » .

ولعل السبب المباشر لضعف قوة الملوك يرجع إلى تلك « التفويضات » التى كان يمنحها فراعنة الأسرتين الخامسة والسادسة إلى حكام المدن والأقاليم فى كل من الوجهين القبلى والبحرى . الأمر الذى أدى إلى تمزق البلاد بين هؤلاء الحكام ، فتفككت أركان الدولة ، وأصبحت إقطاعيات وولايات مستقلة يحارب بعضها بعضاً فى سبيل السيطرة وبسط النفوذ بقصد إعادة توحيد البلاد تحت حكم مركزى كما كانت من قبل .

وبالفعل نجح بعض فراعنة الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشر فى فرض سيطرتهم على أكبر عدد ممكن من الأقاليم المصرية ، ولكن أحدهم لم ينجح فى إعادة توحيد الوجهين القبلى والبحرى تحت عرش مركزى واحد ..

## ● الانقلاب الطبقي ..

وقد أدى سوء الأحوال السياسية في البلاد إلى التسبب في كل شيء وحدث خلل اقتصادي أدى بدوره إلى الخراب والفوضى ، وقامت الجماهير العادية بأول ثورة اجتماعية في العالم ..

وهكذا هجم الفقراء على قصور الفراعنة وبيوت النبلاء والأغنياء ، ونهبوا كل شيء من الممتلكات العقارية والمنقولات .. وبين عشية وضحاها حدث انقلاب في طريقة « التسكين » في هيكل النظام الطبقي ، أي أن النظام ظل موجوداً ، ولكن الذين كانوا أغنياء وينعمون بالخير الوفير أصبحوا فقراء لا يجدون الطعام ، هذا إذا نجوا من عمليات الذبح والتقتيل التي عمت البلاد كلها ضد الأغنياء والنبلاء وموظفي الدولة والقضاة وكل من يمثل السلطة .

ومن المؤكد أن النساء الفقيرات المصريات قد اشتركن في عمليات السلب والنهب التي سادت في كل مكان ، واستولين على ماكانت تقتنيه السيدات النبيلات من مجوهرات ومشغولات ذهبية وملابس وعلطور وأدوات تواليت :

« ومن كانت لا تملك من قبل صندوقاً صغيراً ، أصبح لديها الآن صوان كبير .. ومن كانت ترى وجهها في الماء ، أصبحت الآن صاحبة مرآة .. ! »

أما السيدات النبيلات وبنات الأسر الكبيرة ، فقد أصبحن يتجولن في الشوارع بلا مأوى ، ويرتدين خرقاً بالية ممزقة لا تستر أجسادهن كما يجب ، ويقلن لأنفسهن : « ليتنا نجد شيئاً نأكله .. ! »

كذلك فقد سادت موجة عارمة من الإلحاد وعدم الإيمان بالدين أو بالآلهة على وجه العموم ، وظهرت اتجاهات وفلسفات مادية تدعو إلى اعتناق مبدأ « اللذة » أو « المتعة » باعتبارها الطريقة الوحيدة المضمونة لسعادة الإنسان . وقال عازف الهارب في إحدى أغانيه :

« لا تصدق كل مايقولونه لك في المعابد .. من ذا الذي عاد من العالم الآخر ليخبرنا بما يجري فيه .. متع نفسك واغنم اللذائذ وابتعد عن الشر .. ! »



رع حتب وزوجته نفرت [ من النبلاء ] .. من أجمل تماثيل الدولة القديمة .

وتسجل النصوص القديمة التى دونت فى تلك الفترة من تاريخ مصر ، وصفاً دقيقاً للفوضى والاضطراب الشامل الذى ساد البلاد ، وعمليات نهب محتويات المقابر وإلقاء الجثث على الأرض ، وتدمير دور الحكومة ودور المحاكم ، وتمزيق القوانين والمراسيم وإلقائها فى الشوارع لتدوسها الأقدام ، والإحساس الفظيع بعدم الأمن ، حيث أصبح الرجل لا يذهب إلى عمله إلا وهو مسلح ليتقى شر اللصوص وقطاع الطرق ، وأصبح الإنسان يفر من أخيه دون أن ينقذه من الذبح ، وسيطرت على الحياة اليومية لكل المصريين سحابات كثيفة من الكآبة والحزن واليأس من إمكانية النجاة ..

«وقضى على الضحك ، ولم يعد يسمع سوى صوت الحزن والبكاء .. !»

وزاد الطين بلة ، أن تعرضت البلاد فى هذه الفترة المظلمة إلى عديد من الهجمات والغزوات من جانب قبائل الآسيويين وقبائل الليبيين والنوبيين ..

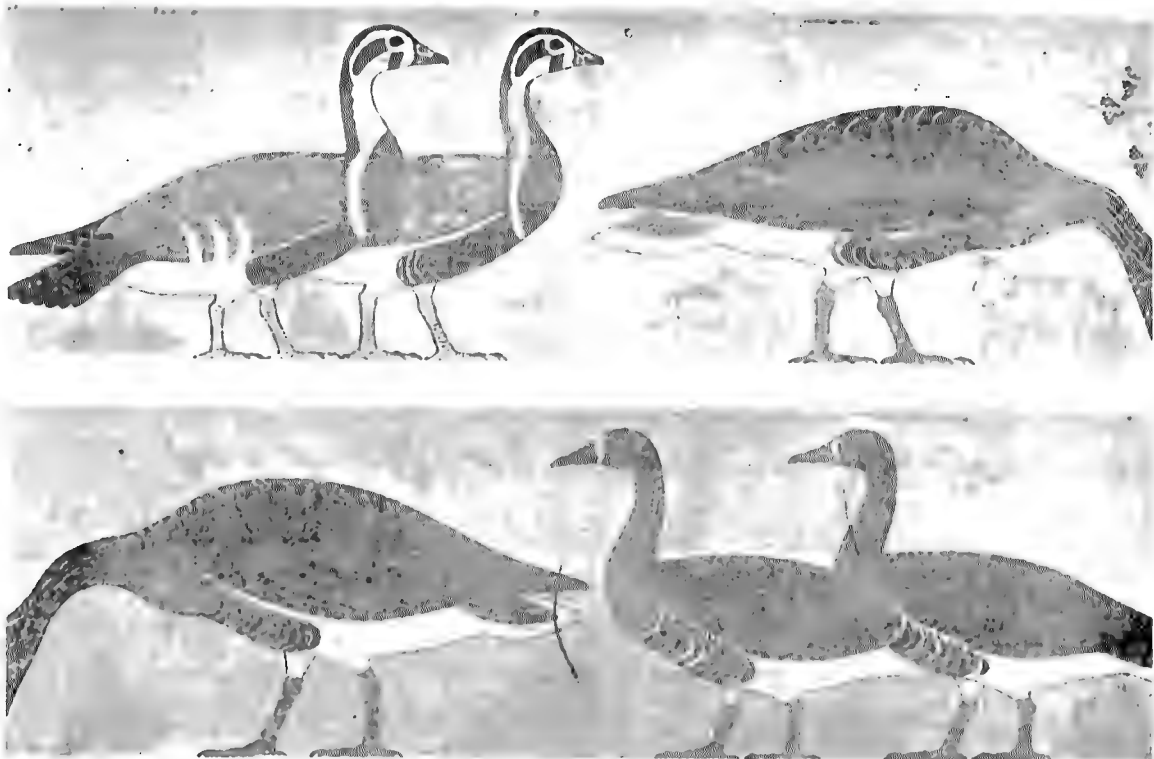
## ● العصر الذهبى للأدب ..

وهناك إجماع بين علماء المصريات على أن هذه الفترة المظلمة من تاريخ مصر كانت مع ذلك من أزهى الفترات التى ازدهر فيها الأدب المصرى الكلاسيكى القديم ..

ولا غرابة فى ذلك ، حيث تدل النصوص التى وصلتنا من هذه الفترة ، على أن الأدباء والمفكرين والحكماء الذين كانوا يعيشون فى فترة التحول من العظمة إلى السقوط ، قد حدثت لهم صدمة عنيفة ملأت نفوسهم بالمرارة على هذا المجد التليد الذى انهار أمامهم فى غمضة عين ، فانطلقوا يعبرون عن أحاسيسهم ومشاعرهم الخاصة فى الظروف وأحداث الواقعية التى أصبحوا يعيشونها مرغمين .. وجاءت نصوصهم مفعمة بالحزن على ما آلت إليه البلاد وأحوال الناس ..

ومن النصوص الأدبية المطولة التى وصلتنا من تلك الفترة «تعاليم الحكيم إيور» وهى تقدم وصفاً تفصيلياً دقيقاً للأحداث الدامية المفجعة ، والرعب والخوف والاضطراب الذى أصبح يملأ النفوس ، بالإضافة إلى تفصيلات أخرى عن الانقلاب الطبقي الذى دمر كل شىء ، وأختتم إيور تعاليمه بما يراه من نصائح لإزالة الأسباب التى أدت إلى كل هذا الدمار والخراب ، وإعادة الأمن والنظام والرخاء ..





الأوز الجميل .. لوحة رائعة عثر عليها بمقبرة أميرة صغيرة من الدولة القديمة | مند خو ٤٥٠٠ سنة |



عازف الهارب يغنى : متع  
نفسك واغتنم اللذائذ وابعد  
عن الشر.. !

ومن جال الأسلوب الأدبي الذى كتب به الحكيم إيبور تعاليمه ، فقد لاقت هذه التعاليم قبولاً شديداً لدى المصريين فى عصورهم اللاحقة ، حيث أصبحت دروساً مقررة يتمرن عليها التلاميذ فى المدارس ، لفترة استمرت أكثر من ألف سنة لاحقة على الوقت الذى كتبت فيه .. !!

ومن النصوص الأدبية الرفيعة التى وصلتنا أيضاً من هذا العصر « تعاليم الملك خيتى لابنه مري كارع » وهى على شكل نصائح ووصايا من ملك لملك ، عن الطرق المثلى فى المحافظة على النظام الملكى وعلى العرش ، وأفضل الطرق لحكم الرعية ، ومعاملة المحكومين بالعدل ..

و يعتبر نص « حديث إنسان يائس مع روحه التعتة » أول نص « مونودراما » فى تاريخ العالم . وهو عبارة عن « حوار » درامى بين إنسان طيب رقيق الروح أحس أنه يعيش وسط عالم مضطرب خال من الأخلاق الرفيعة ، وساد فيه الظلم والغدر والخيانة والغش وانعدم فيه الوفاء .. لذلك فقد صمم هذا الإنسان الملتاع على الانتحار ، فوقف على حافة القبر ، ولكن روحه أبى أن تموت ، فدار بينه وبين روحه حوار حار مثير عن فكرة الموت وفلسفة ما بعد الحياة ..

أما « شكاوى الفلاح الفصيح » فبالرغم من أن رأى الراجح الآن أنها كتبت كنص أدبي فى عصر الدولة الوسطى ، إلا أن أحداث هذه الشكاوى قد وقعت أثناء حكم الملك خيتى الذى كان يحكم اهناسيا وبعض الأقاليم المصرية الأخرى فى أواخر تلك الفترة المظلمة من التاريخ المصرى ..

وبكل المعايير النقدية ، تعتبر شكاوى الفلاح الفصيح ، إحدى القمم العالية التى ارتقى إليها الأدب الرفيع فى مصر القديمة .. فإلى جانب أسلوبها الرصين ، وجراتها الشديدة فى مواجهة الظلم ، وقدرتها الفائقة على تحليل المنطق والعدل ، فأنها تتضمن أيضاً أحداثاً درامية وعناصر مسرحية كاملة .. !

ولكن كيف زالت هذه الغمة عن تاريخ مصر .. وكيف سطعت شمس حضارتها من جديد ، تملأ البلاد بالنور ووفرة الرزق .. ؟ !

هل كان الممكن أن يستمر هذا الخراب الذى حاق بالبلاد نتيجة لتلك الثورة إلى مالا نهاية .. وهل قدر لتلك المنازعات والحروب التى قامت بين الاقطاعيين وحكام الأقاليم المصرية أن تصبح هى الصورة النكدة التى تصبح عليها البلاد وتمسى ؟ !

## ● عودة النظام والرخاء ..

لقد استمرت الفوضى من عام ٢٢٥٨ ق. م حتى عام ٢٠٤٠ ق. م .. أى نحو ٢١٨ سنة كانت فيها الكفاية .. وفى أعماق الصعيد [ منطقة الأقصر ] نشأت إحدى الأسر القوية التى جعلت هدفها منذ البداية إعادة توحيد الوجهين وقيام الدولة المصرية من جديد .. وكان هذا الهدف فى حد ذاته بعيد المنال ، إذ كان لابد أولاً من القضاء على سلطات حكام الأقاليم المستقلة والقضاء على نظام الإقطاع الذى كان السبب المباشر فى تمزيق البلاد .

ومع ذلك فقد استطاع الملك « منتوحب الثانى » — وهو أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة — أن يعيد توحيد الوجهين و يقيم حكومة مركزية جديدة تسيطر على جميع البلاد ، وتأمين على كل المصريين .. تماماً كما كان الحال أيام الدولة القديمة ..

وهكذا ظهرت فى التاريخ المصرى فترة جديدة اصطلاح المؤرخون على تسميتها منذ القدم باسم « الدولة الوسطى » ..

وقد استمرت هذه الدولة باستمرار حكم الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة .. أى من عام ٢٠٤٠ ق. م حتى عام ١٧٨٦ ق. م ، وهى فترة تبلغ ٢٥٤ سنة على وجه التحديد .. وظهرت فى التاريخ المصرى أسماء ملوك عظام مثل منتوحب .. وأمنمحت .. وسنوسرت [ المشهور باسم سيزوستريس ] ..

وقد دخل ملوك هاتين الأسرتين تاريخ مصر ومعهم أعمالهم العظيمة التى عادت بالخير على كل البلاد .. فقد كان لهم الأكرهولاء الملوك ، هو عودة الأمن والطمأنينة إلى نفوس الناس ، حتى يمكن فرض النظام والقانون ، وإعادة عجلة الإنتاج إلى الدوران فى كافة الميادين الزراعية والصناعية والتعدينية ..

و يقول معظم علماء المصريات ، أن مصر قد وصلت فى عهد الدولة الوسطى إلى عصر من الرخاء العام لم تصل إليه البلاد فى أية فترة من تاريخها السابق .. ويرجع هذا الرخاء العام بصفة أساسية إلى وفرة الإنتاج مع تطبيق سياسة أو مبدأ التكافل الاجتماعى ..

## ● خطط .. لزيادة الإنتاج ..

ومن الشابت تاريخياً أن ملوك الدولة الوسطى قد أعادوا تشغيل شبكة الرى فى طول

البلاد وعرضها ، وذلك بإعادة حفر وتظهر الترع والقنوات ، وإنشاء العديد والجديد من الترع الكبرى ومايتفرع منها من مئات القنوات الجديدة .

كذلك فقد قام بعض النباه من ملوك هذه الدولة بإدخال تحسينات هندسية جوهرية على نظام الري الذى يعود بالنفع المباشر على البلاد كلها ، فأصلحوا عشرات الآلاف من الأفدنة فى إقليم منخفض الفيوم .. وأنشأوا هناك أول نظام يقيمه الإنسان لتخزين المياه على نطاق واسع ، لاستخدامها فى رى المحاصيل وزيادة الرقعة الزراعية على وجه العموم .

وإلى جانب هذه النهضة الزراعية حقق ملوك الدولة الوسطى نهضة أخرى فى ميادين الصناعة والتجارة والتعدين .. فقد عادت الصناعات المصرية التقليدية إلى ازدهار مرة أخرى مع إدخال الكثير من التحسينات سواء فى التصميم والذوق العام ، أوفى أدوات ووسائل الإنتاج نفسها ..

كذلك فقد أرسلت البعثات لتنشيط الإنتاج التعدينى فى شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية لاستخراج الذهب والفيروز والمعادن الأخرى اللازمة للصناعات التى كانت موجودة أيامئذ ، خصوصاً المواد الأولية اللازمة لصناعة الزجاج والخزف وصناعة الصباغة وتجهيز الألوان .. كما أرسلت البعثات إلى لبنان للحصول على الأخشاب .. وإلى بلاد بونت لإحضار البخور والعطور والتوابل ..

## ● أدب النعيم .. وأدب الشقاء

هناك نظرية يقول بها بعض علماء المصريات ، مفادها أن السرف فى ازدهار الأدب المصرى فى عصر الاضمحلال الأول وعصر الثورة الاجتماعية ، إنما يرجع بصفة أساسية إلى حالة البؤس التى عاناها الشعب فى خلال ذلك العصر لأن الإنسان أقدر على وصف بؤسه وشقائه ، وتقل قدرته على وصف نعيمه وهنائه .

غير أن هذه النظرية لا تصمد أمام الحقيقة المبهمة المتمثلة فى انتشار التعليم انتشاراً واسعاً فى عهد الدولة الوسطى وما أدى إليه ذلك من انتشار وازدهار الأدب القصصى والروائى والأدب المسرحى وأدب النصبائح والحكمة والتعاليم والقصائد الشعرية الكلاسيكية ، والنصوص الدينية وقصائد الأغاني الشعبية ..

وأهم الآثار الأدبية التى ترجع إلى الدولة الوسطى « قصة سنوحى » وهى مزيج أدبى رفيع من الحوادث التاريخية الواقعية المصاغة فى إطار قصصى ووصاف أدبية لجغرافية

البلاد الآسيوية التي عاش فيها سنوحى أثناء فترة منفاه من مصر، مع الكثير من الحكم الفلسفية والأقوال الماثورة عن الحياة والناس ..

كذلك قصة « الملاح الغريق » وهي تفوق قصص مغامرات السندباد البحري ، ولها مغزى أخلاقي نبيل يتمثل في ضرورة أن يحافظ الإنسان على شجاعته ورباطة جأشه وثقته بنفسه عند مواجهة الشدائد حتى يتغلب عليها ..

## ● الهجوم خير وسيلة للدفاع

وقد تنبه ملوك الدولة الوسطى إلى أن خضرة وادى النيل المصرى فى الدلتا ومصر العليا ، وماتحفل به البلاد من خيرات ، هى السبب الأول الذى يجعل مصر مطمئناً لكل الشعوب التى تعيش فى المناطق القاحلة الجرداء المجاورة للحدود المصرية من الشرق ومن الغرب ومن الجنوب .. لذلك فقد كانت القاعدة لدى ملوك مصر العظام جميعاً ، هى الأخذ بالنظرية العسكرية التى تقول إن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع .. فكانوا يخرجون باستمرار على رأس الجيوش المصرية لتأديب قبائل المغيرين الآسيويين والليبيين والنوبيين .. وأعلى الأقل كانوا يرسلون الحملات العسكرية لأعمال التأديب والتذكير المستمر بقوة مصر وقدرتها على صد الطامعين فيها ..

وقد تجاوز ملوك الدولة الوسطى مرحلة التأديب ، وفضلوا ضم هذه الأقاليم إلى الأراضى المصرية ، وفرض السيطرة والقوانين واللغة والديانة وطريقة الحياة المصرية على هذه الأقاليم ..

وعلى هذا خرجت الحملات العسكرية المصرية بقيادة ملوك الدولة ، لتأمين حدود مصر الغربية وتأديب قبائل البدو المغيرين ، وتأمين الحدود الشرقية بمد النفوذ المصرى إلى مناطق سوريا ولبنان وفلسطين .. كما استولوا على بلاد النوبة حتى الجندل الثانى وضموها نهائياً إلى الأرض المصرية .

ولذلك يقول بعض المؤرخين أن ملوك الدولة الوسطى هم الذين وضعوا بذرة الامبراطورية المصرية التى ازدهرت وأثمرت تماماً فى عهد ملوك وأباطرة الدولة الحديثة الذين حكموا البلاد بعدهم بنحو ( ٥٠٠ ) سنة .. !

## ● قصر التيه .. !

وقد غدر الزمن بمعظم الآثار التي خلفها ملوك الدولة الوسطى ، ولكن التاريخ المصرى حافل بأوصاف العديد من المنشآت المعمارية الضخمة التي شيدها هؤلاء الملوك ، من قصور ومعابد وأهرام وتمائيل ومسلات ..

ومن أعظم تلك الآثار قاطبة ذلك القصر الذى بناه فى الفيوم « امنمحت الثالث » — وهو أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة — ذلك القصر الأعجوبة الذى كان يسمى قصر اللابيرانت أو « قصر التيه » ..

وقد قام هيرودوت واسترابون وغيرهما من المؤرخين القدماء بزيارة هذا القصر العظيم الذى كان قد مر على بنائه — أيامهم — أكثر من [ ١٥٠٠ ] سنة ، وكان مازال محتفظاً برونقه .. وقد قال المؤرخان فى وصف هذا القصر العظيم ما يؤكد أنه كان أضخم الأبنية على وجه الأرض ، بل وأعظم من الهرم نفسه .. وكان يتكون من [ ٣٥٠٠ ] حجرة ! .. تفصلها شبكة هندسية معقدة من الدهاليز والممرات والقاعات ذات الأعمدة الضخمة .

وكان القصر مكوناً من مستويين .. مستوى علوى فوق سطح الأرض ، وهو الجزء الظاهر من القصر ، ومستوى سفلى آخر تحت سطح الأرض ، وفيه حجرات ودهاليز وقاعات غير مسموح بالدخول إليها ..

ولعل أكبر دليل على مدى ضخامة هذا القصر العظيم أنه قد استعمل كمحجر يسطو عليه أهالى المنطقة ليخلعوا منه الأحجار اللازمة لمبانيهم ومساكنهم على مدى أربعة آلاف سنة ، حتى كادت أطلال القصر أن تزول تماماً ، وقد قضى على البقية الباقية من هذه الأطلال فى بناء خط حديد الفيوم فى أواخر القرن التاسع عشر .. !

## ٢١٦ سنة هكسوس .. !

عندما أصبحت مصر غنية بالخيرات التي وفرتها الإصلاحات الاقتصادية التي تحققت فى الدولة الوسطى ، سأل لعاب البدو الرعاة الذين كانوا يعيشون فى الصحارى والسهول الآسيوية بشرق البلاد .. ولهذا فقد ازدادت فى البداية أعداد الوافدين والمتسولين من هؤلاء الرعاة ، ثم جاءت بعدهم جحافل وقبائل متعددة ، فرضت وجودها بالقوة العسكرية ..

هؤلاء هم « الهكسوس » أو « الملوك الرعاة » أو « الرؤساء الأجانب » طبقاً للترجمة الحرفية لكلمة هكسوس ..

استقر هؤلاء الهكسوس في مصر بأعداد كبيرة ، واستطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على الدلتا ثم على الوجه القبلي فيما بعد وعينوا رئيسهم ملكاً على عرش مصر .

وفي بداية احتلالهم الاستيطاني للأراضي المصرية ، مارس هؤلاء البرابرة الأجلاف الحاقدين على مصر وماتمتع به من خيرات ، كل ألوان الذل والهوان ضد المصريين بطبقاتهم المختلفة وعاملوهم بقسوة ، وأعملوا فيهم القتل والتعذيب .. ثم أخذوا يدمرون ويحربون المعابد والتماثيل والمسلات وجميع الآثار الأخرى التي كانت تذكر المصريين بعظمة ملوكهم السابقين ..

غير أن إقامة الهكسوس وسط الشعب المصري المتحضر ، قد خففت من طابع القسوة والبداءة الفظة التي مارسها الهكسوس في أول الأمر ، واكتفوا بفرض الجزية على كل الأقاليم المصرية ..

وبدأ الهكسوس يقلدون المصريين في عاداتهم وطرق حياتهم ، ويعتقون الثقافة المصرية ، بل ويؤمنون أيضاً بالديانة المصرية حيث جعلوا عبادة الإله المصري « ست » وهو إله الشر ، هي الديانة الرسمية للدولة التي أقاموها في الدلتا ، والتي اختاروا لها عاصمة في الشرق تسمى « أفاريس » أو « أواريس » .

ويرجع التفوق العسكري للهكسوس إلى أنهم كانوا جميعاً مسلحين بأسلحة مصنوعة من الحديد والبرونز ، وأنهم كانوا يستعملون العجلات أو العربات الحربية التي تجرها الخيول ، وهذه النوعية من التسليح لم تكن معروفة بعد في مصر .. هذا بالإضافة إلى الصلافة والشراسة التي طبع عليها الهكسوس من طول الحياة البدائية التي قضاها في الصحراء ..

## ● سيدنا يوسف .. في عهد الهكسوس

أرجح الآراء السائدة أن النبي يوسف عليه السلام حين جاء إلى مصر وأصبح أميناً على خزائنها ، كان ذلك في عصر أحد ملوك الهكسوس الذين كانوا يحكمون مصر في تلك الفترة .





## ● شهيد التحرير ..

وهكذا خرج أحد ملوك هذه الأسرة ، وهو الملك « سقن رع » الملقب بالشجاع ، على رأس جيش يمثل مسيرة حربية ، انضم إليها الكثير من أبناء الشعب من الفلاحين والعمال والحرفيين ، والتحم مع الهكسوس بادئا حرب تحرير مقدسة .

وسقط الملك الشجاع « سقن رع » شهيدا في أرض المعركة .. ولكن الحرب مع ذلك استمرت بقيادة ابنه الملك « كاموس » الذي حاصر الهكسوس في عاصمتهم الحصينة « أثار يس » وجعلهم لا يجسرون على مجرد الخروج منها ..

وكذلك فقد استطاع هذا الملك أن يقضى على مؤامرة دبرها ملك الهكسوس مع ملك كوش « النوبة » لكى يقوم النوبيون بغزو البلاد من ناحية الجنوب ، لتشتيت الجيش المصرى بين حرب في الجنوب وحرب في الشمال ..

## ● أول بطل تحرير في العالم ..

غير أن القضاء نهائيا على حكم الهكسوس في مصر قد تم على يد الملك « أحس » الشقيق الأصغر للملك « كاموس » والذي تولى قيادة الجيش من بعده ، والذي استحق بكفاءة أن تصدر قائمة أبطال التحرير في جميع أنحاء الأرض وعلى طول التاريخ المعروف للشعوب ..

كان تعداد جيش التحرير المصرى تحت قيادة أحس ، يبلغ نحو [٤٨٠] ألف محارب من الضباط والجنود الفرسان والمشاة .. وكان هذا الجيش الكبير يشع حماسا ووطنية ، ومحارب بروح عالية ، وتسيطر عليه فكرة واحدة هي تحرير البلاد من المستعمرين الأجانب وطردهم إلى خارج الحدود ..

وكان تسليح هذا الجيش يعتمد أساسا على أسلحة مصنوعة من « البرونز » وهونفس المعدن المستخدم في صنع أسلحة الهكسوس التى استطاعوا بها فرض سيطرتهم على مصر ، كما كانت هناك فرق كاملة من الفرسان والرماة راكبي العجلات الحربية التى تجرها الخيول ، وهى السلاح الحربى الذى اعتمد عليه الهكسوس وأتاح لهم الغلبة على المصريين في المعارك القليلة التى دارت رحاها بين الجانبين ..

## ● مطاردة خارج الحدود ..

تمكن أحس من طرد الهكسوس نهائياً ، وطهر جميع الأراضي المصرية من الاحتلال الأجنبي .. وطارد أعداءه الذين كانوا يفرون أمامه حتى شمال سوريا ..

وتتمكن أحس بعد تحقيق هذه الانتصارات المصرية في الشمال من التوجه بالجيش المصرى إلى الجنوب ، ليعيد بلاد النوبة إلى سيطرة الحكم المصرى ، وذلك بعد أن أعلنت بعض المناطق النوبية انفصالها عن مصر أثناء انشغالها بحرب الهكسوس ..

وكذلك فقد تمكن أحس من القضاء نهائياً على جميع الإقطاعيين وحكام الأقاليم الانتهازيين من المصريين الذين كانت تربطهم مصالح مشتركة مع المستعمرين الهكسوس ..

وهكذا وحد أحس جميع الأراضي المصرية تحت حكم مركزى عاصمته « طيبة » .. كما وسع حدود البلاد من ناحيتي الشمال والجنوب .. واستحق بذلك أن يصبح مؤسساً لأسرة ملكية « امبراطورية » جديدة .. هى الأسرة الثامنة عشرة ، التى تعتبر أشهر الاسرات الملكية فى تاريخ العالم المعروف .. كما استطاع أن يكون على رأس فترة تاريخية جديدة أصبحت معروفة باسم « الدولة الحديثة » .. وهى قمة فريدة من قم الحضارة المصرية ..

## ● أشهر أسرة ملكية فى العالم

وبعد طرد الهكسوس خارج البلاد وتأمين حدودها .. رأى القادة العسكريون المصريون أن الدفاع عن بلادهم الحافلة بالخيرات ، والتى تعتبر مطعماً للقبائل والشعوب التى تعيش فى شرق وشمال وغرب وجنوب البلاد ، لابد أن تكون له استراتيجية تتمثل فى القضايا والمسلمات التالية :

بما أن مصر حافلة بالخيرات ، فلا بد أن يطمع فيها الأجانب .. وإذا اتحدت البلاد وقوى جيشها وهب أبناؤها للذود عنها ، فلا يمكن للأجانب أن يفكروا فى غزو مصر أو الإغارة على حدودها ..

ولكن لكى يلزم هؤلاء الأجانب حدودهم ويكفوا أذاهم أو يرفعوا أيديهم عن مصر ، فلا بد من قيام الحملات العسكرية المصرية بتأديبهم بين حين وآخر ، وتذكيرهم بقوة

مصر بصفة مستمرة .. وإذا استدعى الأمر فلا بد من إخضاع الأقاليم التى يعيش فيها هؤلاء الأجانب ووضعها تحت سيطرة الحكم المصرى ..

كانت هذه هى الاستراتيجية التى وضعت فى عهد «أحمس» واستمرت بعده نحو [ ٥٠٠ ] سنة .. أو ٤٨٥ سنة على وجه التحديد .. أى طوال عصر الإمبراطورية المصرية التى أرسست قواعدها تلك الأسرة الملكية العظيمة التى أسسها بطل التحرير «أحمس» سنة ١٥٨٠ ق.م .. الأسرة الثامنة عشرة ..

ومن أصعب الأمور عرض وتلخيص التغييرات الجذرية الهائلة فى الحضارة المصرية ، التى تمت على أيدى ملوك وملكات هذه الأسرة . فقد شملت هذه التغييرات والتحولات الكبرى كل مناحى الحياة المصرية ، فى نظام الحكم والادارة والاقتصاد والحياة الاجتماعية لمختلف طبقات الشعب .. كما كانت هناك «انقلابات» حدثت فى مفاهيم الأدب والفن ومفاهيم الدين ..

ولما كان تاريخ جميع ملوك هذه الأسرة فى غاية الأهمية ، وكلهم معروفون بالاسم ولمم شهرة تكاد أن تغطى جميع أنحاء العالم المعاصر ، فقد رأينا أن نعرض أسماء ملوك وملكات هذه الأسرة ، مع بيان موجز غاية الإيجاز عن أهم الأعمال المدنية والعسكرية التى تمت أثناء فترة حكم كل ملك .. وقد بدأنا بمعرفة أحمس بطل التحرير ورب هذه الأسرة ، ولنتابع الآن سلسلة الملوك الآخرين حسب الترتيب التاريخى لعهدهم ..

### \* أمنتحتب الأول : العادل

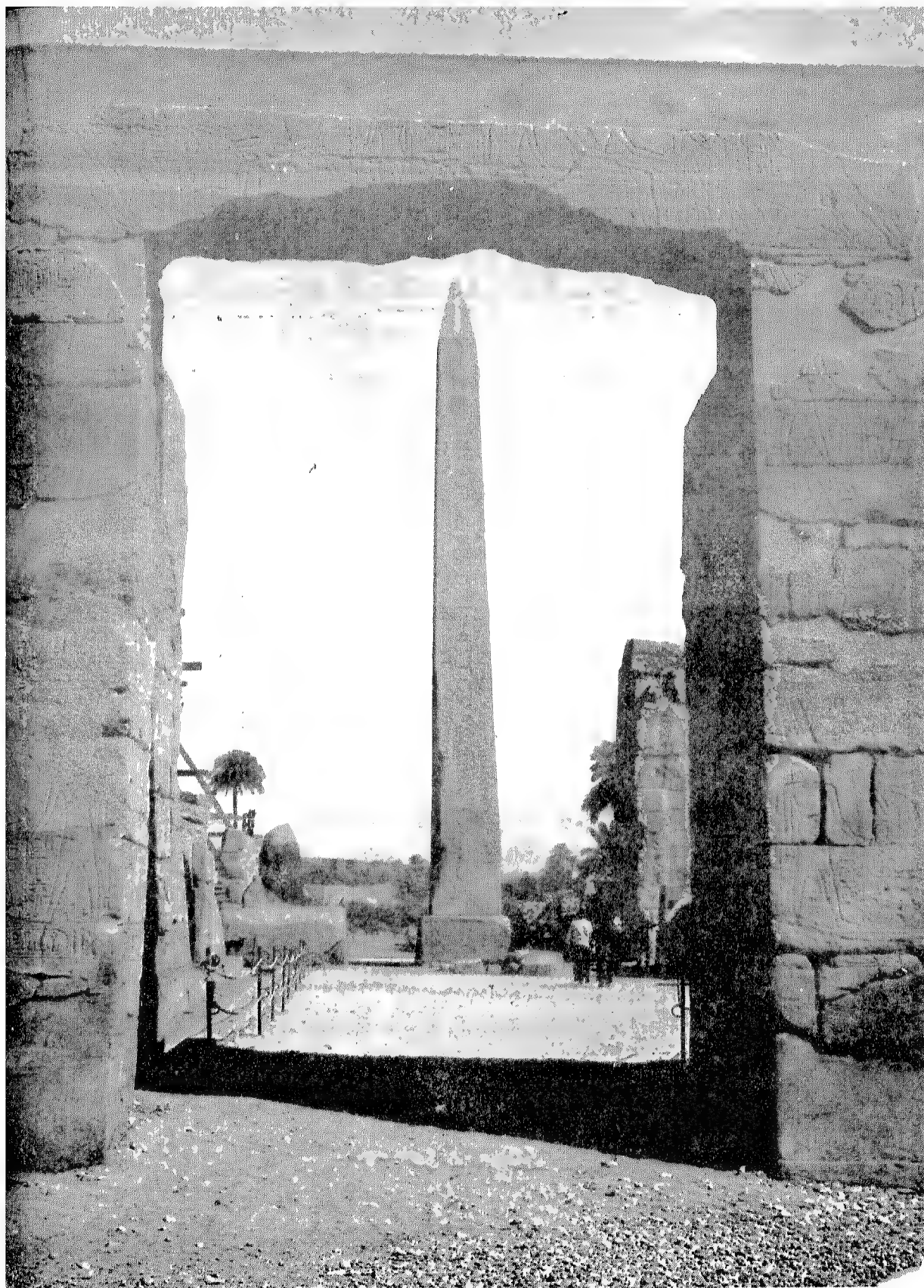
ابن أحمس . تولى العرش صغيراً واستمر لفترة تحت وصاية أمه الملكة نفرتارى التى ساندت زوجها أثناء حرب التحرير ، وكانت ذات شخصية قوية وعلى دراية عظيمة بأساليب الحكم والإدارة .

بدأ تأسيس الإمبراطورية المصرية بفرض السلطة المصرية على أقاليم ما وراء الحدود [ المناطق الآسيوية والليبية والنوبية ] .

أصدر قانوناً أو دستوراً لحكم العلاقة بين العمال والدولة باعتبارها صاحبة العمل ، فوضع المعايير العادلة للأجور وحوافز مكافأة المجتهدين ، وضرورة حسن معاملة العمال ومنع السخرة واعتبارها جريمة ..

### \* تحوتمس الأول : المحارب

فرض الحكم المصرى جنوباً حتى الجندل الثالث ، وفتح الكثير من المناجم لاستخراج



مسلة تحوتمس الأول .. بمعابد الكرنك .

الذهب والحديد والنحاس والمعادن الأخرى ، وقام بعدة حملات عسكرية في فلسطين وسوريا ولبنان ، ووصل في زحفه إلى نهر الفرات .

في عهده انتشر التعليم وارتقت طبقات كثيرة من الشعب ، وازداد عدد المثقفين ، وبدأ صراع خفى بين المنادين بفكرة « الحرب » لنشر الحضارة المصرية في البلاد الأجنبية ، والمنادين بفكرة « السلام » القائم على التجارة وحسن الجوار كطريق لتحقيق نفس الهدف .. وهو تيار انتصر في عهد الملكة حتشبسوت .

### \* نخوتس الثاني : المتأنق

كان ضعيف الشخصية مهتماً بذاته والتمتع بثرائه . وقد بالغ في تأنقه لدرجة أنه كان يطلى أظافر قدميه بالألوان « بيديكير » . ولذلك فقد سيطرت عليه زوجته الملكة حتشبسوت ، وسيطرت بالتالى على توجيه دفة الحكم .

### \* حتشبسوت : سيدة النساء الشريفات .

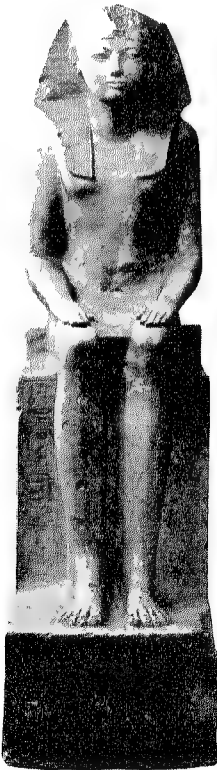
انتصر في عهدها الذى استمر نحو عشرين عاماً التيار الذى يمثل حزب الكهنة والمثقفين ، في المنافسة التى كانت بينه وبين حزب المؤسسة العسكرية المصرية . وعلى هذا فقد ساد السلام ربوع البلاد ، وخرجت القوافل والأساطيل البحرية التجارية المصرية ، تحمل المنتجات والمصنوعات المصرية إلى البلاد الأجنبية في أقصى الشمال وأقصى الجنوب ، لتبادلاها بمنتجات تلك البلاد .

وشيدت حتشبسوت واحداً من أعظم وأفخم الآثار المعمارية التى خلفتها الدولة الحديثة ، وهو معبد الدير البحرى على الشاطئ الغربى للنيل في مواجهة طيبة « الأقصر » . وهو معبد فريد في بابه ، وليس له مثيل في معابد العالم القديم كله .. وقد وضع هندسته وتصميمه وأشرف على الأعمال التنفيذية لبنائه ، المهندس الشاب « سننموت » الذى أصبح المستشار الأول للملكة في كل الأمور ، والذى يقول عنه بعض المؤرخين أنه كان على « علاقة ما » بالملكة نفسها ..

وعلى جدران هذا المعبد العظيم الذى مازال محل إعجاب كل من يشاهده ويرتاد أبهاءه حتى الآن ، دونت الملكة تقريراً تفصيلياً مدعماً بالصور الوصفية لتلك الحملة البحرية التجارية الشهيرة التى أبحرت فيها الأساطيل المصرية إلى بلاد بونت [ يقال إنها الصومال أو بلاد اليمن أوهما معاً ] .



معبد الدير البحرى بالبر الغربى بالأقصر .. فريد فى نوعه وطرازه .. بنته  
الملكة حتشبسوت بمعاونة المهندس سنموت [ الأسرة الثامنة عشرة ] .



الملكة حتشبسوت .. من أبرز شخصيات الأسرة الثامنة عشرة .. تميز  
عهداها بالسلام وازدهار المبادلات التجارية الدولية .

وتميزت هذه الرحلة التجارية التي جهزتها الملكة حتشبسوت إلى تلك البلاد، بأنها كانت أكبر الحملات التجارية التي أوفدها ملوك مصر السابقون لاستيراد حاجيات البلاد من منتجات بونت.. كذلك فقد كانت الحملة مجهزة فيما يبدو بمجموعة من الفنانين الرسامين الذين قاموا بدور « الصحفيين » الذين كتبوا أدق « ريبورتاج » علمي مصور، في وصف بلاد بونت، سواء من الناحية الطبيعية أو البيئية، أو من ناحية جغرافيتها البشرية والأجناس المختلفة التي تسكنها، وتقاليدها وعادات الأهالي الذين يعيشون هناك.. هذا بالإضافة إلى دراسة علمية ممتعة تختلف أنواع الأسماك والأحياء المائية في البحر الأحمر..!

وقد تضمن هذا التقرير الوصفى التفصيلي عرضاً لأنواع الواردات التي عادت بها السفن المصرية من بلاد بونت، مثل العاج والأبنوس وأنواع الأخشاب الثمينة الأخرى، وجلود الفهود، وسبائك الذهب والفضة، وأحمال من البخور والطور والتوابل والقرقة والأعشاب الطبية، وشتلات أشجار البخور التي نقلت بجذورها.. وكذلك « التوتيا » المستعملة في صناعة كحل العيون، فضلاً عن مجموعة كبيرة من الحيوانات الحية تشمل الزراف والكلاب والسنائس..

### \* تحوتمس الثالث : الامبراطور وأول فاتح عظيم في تاريخ العالم

بعد [٧٥] يوماً فقط من توليه عرش مصر، بدأ في الزحف بسلسلة من الحملات العسكرية المجهزة أحسن تجهيز، بلغت ١٦ حملة واستمرت نحو عشرين سنة متواصلة.. وبحلول بعض المؤرخين أن يعتقدوا بعض المقارنات التاريخية الطريفة، لإثبات مدى التماثل والتطابق الحرفي بين الخطط الحربية التي وضعها تحوتمس الثالث، والخطط الحربية التي طبقها بعض دهاة العسكريين في الامبراطورية البريطانية.

يقولون إن الخطة الحربية الباهرة التي اتبعتها هذا الملك العظيم في عبور مصر «عرونا» بالمناطق السورية، هي نفسها الخطط التي اتبعتها القائد الانجليز «النبى» وفاجأ بها جيش الأتراك في سنة ١٩١٨ م، أى بعد العهد الذي وضعت فيه تلك الخطة بنحو ٣٤٠٠ سنة... أما الخطة الحربية العظيمة التي نقل بها تحوتمس الثالث سفنه الحربية نقلاً برياً، وهى مجزأة كقطع وأجزاء قابلة للتركيب السريع والتجهيز الفوري، وذلك حتى يتمكن من العبور بها في نهر الفرات والوصول بحملاته العسكرية إلى بلاد النهرين «العراق» وضمها ضمن مناطق نفوذ الامبراطورية المصرية، وهى تعتبر بكل المقاييس خطة حربية



تَعْتَمِدُ الثَّالِثُ .. مِنْ أَعْظَمِ الْقَادَةِ الْعَسْكَرِيِّينَ فِي تَارِيخِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ ..



فذة ، وغير مسبوقه فى التارىخ العسكرى . وهى التى أوحى إلى الفيلد مارشال « مونتجومرى » بخطة نقل سفن العبور الحربية براً ، حتى وصل بها إلى الأماكن المحددة لعبور قواته نهر الراين ، أثناء الحرب العالمية الثانية .

و يقال أيضا إن خطة تحوتمس الثالث فى أخذ أبناء أمراء وحكام البلاد التى فتحها كرهائن ، وارسالهم معززين إلى مصر لتنشئهم وتعليمهم بالمدارس المصرية ، وتربيتهم طبقا للتقاليد والعادات والثقافة والأخلاق المصرية ، ليصبحوا مجهزين سياسياً لحكم بلادهم حين يؤول إليهم الأمر ، وفى أعناقهم هذا الدين الحضارى تجاه مصر .. هذه الخطة طبقتها أيضا الإمبراطورية البريطانية فى الهند ، حين أجبرت أبناء الأمراء والحكام الهنود على الالتحاق بالكليات الانجليزية التى كانت تعلمهم الثقافة البريطانية ، وتنشئهم على تمجيد بريطانيا العظمى ..

ويجمع المؤرخون العسكريون على أن تحوتمس الثالث هو أول قائد حربي فى التاريخ ، وضع خطة تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين ، وكان لديه « مجلس أركان حرب » يتشاور معه فى وضع تلك الخطط الحربية الفذة .

وكان من نتيجة الجهود العسكرية لهذا الفرعون الطموح ، أن سادت مصر وحضارتها فى إمبراطورية شاسعة الأرجاء ، تمتد جنوبا من مناطق الجندل الرابع فى بلاد النوبة ، وتمتد شمالا وشرقا حتى مناطق آشور وشمال سوريا ولبنان وبلاد النهرين « الميثانى » وبابل ومملكة خيتا ، كما استولى على جميع موانئ سوريا ولبنان وجعلها قواعد لجيوشه .. وتدفقت الجزية والغنائم من جميع هذه البلاد المفتوحة إلى الخزانة المصرية ، فعم الثراء والرخاء جميع البلاد من أقصاها إلى أقصاها ..

ويجمع المؤرخون على أن تحوتمس الثالث كان يتمتع إلى جانب عبقريته العسكرية ، بشخصية قوية ، تتميز بالنبل الرفيع والرجولة والعدالة والتدين والصدق . وكانت سياسته الداخلية فى حكم البلاد تقوم أساساً على إقرار النظام العام ورفاهية الشعب .

ورغم عواذى الزمن فقد بقيت لهذا الإمبراطور آثار ولوحات تذكارية مازالت قائمة فى معظم المناطق الآسيوية والافريقية التى أدخلها تحت نفوذ الإمبراطورية المصرية ، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة جدا من الآثار المنتشرة فى معظم متاحف العالم ..

وكان الإمبراطور مولعاً بنصب المسلات التذكارية الضخمة فى المدن المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى ، ولكن شاء القدر أن تنقل بعض هذه المسلات لتنصب فى

عواصم ومدن أخرى بعيدة عن وادى النيل بآلاف الكيلومترات .. ومن الغريب أن المسلة المقامة على ضفاف نهر التيمس بلندن هي إحدى المسلات التي أنشأها تحوتمس الثالث ، ومع ذلك يسميها الانجليز مسلة كليوباترا .. !

وقد تنفشى هذا الجهل أيضا لدى الأمر بكان فأطلقوا اسم مسلة كليوباترا أيضا على إحدى مسلات تحوتمس الثالث التي تم نقلها ونصبها في نيو يورك ..

### ✱ أمحتب الثاني : الرياضى

ابن الامبراطور .. وواصل حروب أبيه لتدعيم الحكم المصرى فى آسيا وأفريقيا .. وتكاد فترة حكمه أن تعتبر خاتمة للحروب الطاحنة التي بدأها جده الأكبر أمحس ، مؤسس الأسرة .

### ✱ تحوتمس الرابع : الدبلوماسية

فى عهده أوقفت مصر سياسة الحملات العسكرية التأديبية ضد المناطق والشعوب الخاضعة لسلطانها ، واتبعت سياسة سلمية تقوم على عقد المحالفات الثنائية بين مصر وغيرها من الدول والأقاليم التابعة لها ، وتبوأ مصر بذلك مكان الصدارة فى التاريخ الدبلوماسى ، حيث اعتبرت أول دولة تقوم بتدوين وتسجيل المعاهدات الدولية التي تتضمن البنود القانونية والسياسية التي اتفق عليها الحليفان وتراضيا عليها .

### ✱ أمحتب الثالث : ملك الملذات

وصلت البلاد فى عهده إلى قمة الثراء والغنى ، وانصرف الجميع وهو على رأسهم إلى حب التمتع بمناعم الحياة ولذائدها .. وقد بلغ عدد السرارى والمحظيات فى حريمه عدة مئات ، كان يجلبهن « بالجملة » من مختلف المناطق الآسيوية والأفريقية التابعة للسيادة المصرية ، وكان يشترط فى اختيارهن شروطا خاصة بلون الشعر ولون البشرة والعينين ، ودقة التقاطيع وجمال القوام ، بالإضافة إلى شرط العذرية ، إذ كان يعلن عن طلبه فى صراحة أن تكون البنات المرسلات له « عذارى لم يمسهن بشر » .

ومع ذلك فقد كان على علاقة حب وطيدة مع زوجته الرسمية بنت الشعب « الملكة تى » التي يعتبرها بعض المؤرخين أعظم نساء التاريخ المصرى ذكاء وقوة شخصية وعزيمة ، فجمعت كل زمام الأمور فى يدها — بعد انصراف زوجها إلى لذائذه — وأصبحت المتحكمة وصاحبة الكلمة العليا فى تسيير أمور الامبراطورية الواسعة ، سواء فى داخل البلاد أو فى خارجها ..



معبد الأقصر.



تمثالا ممنون.

وقد حدث تقدم هائل في نظم التعليم ، حيث كانت الدراسة تنقسم إلى مرحلتين :  
مرحلة المدرسة أو «بيت الحياة» كما كانت تسمى في ذلك العهد ، و«مرحلة عليا»  
يتعلم فيها النابهون مزيداً من العلوم والأسرار ، كما يتعلمون اللغات الأجنبية قراءة  
وكتابة ..

ولذلك فقد ازدهر الأدب وظهرت اتجاهات جديدة في فنون العمارة والفنون التشكيلية  
والتطبيقية ، تمثلت في الآثار العظيمة التي تركها أمنتحتب الثالث وأهمها : معبد الأقصر  
بجماله وجلاله الفائق ، وتمثالاً ممنون بضخامتها وشهرتها التي طبقت آفاق المعمورة في  
الزمن القديم والزمن الحديث على حد سواء .. فقد ذكر التاريخ أن أباطرة الرومان  
القدماء ، كانوا يقفون مشدوهين أمام فخامة وضخامة وروعة هذين التمثالين الفريدين ،  
ويندهشون عند سماع صوت كموسيقى الناي يخرج من بين شقوق التمثالين عند كل  
فجر ..

### \* أخناتون : أول الموحدين

أنت واحد .. ولا إله غيرك .. ولا شريك لك .. !

ربما كانت هذه أول صيحة إنسانية بوحدانية الله خالق كل شيء .. أطلقها هذا  
الفرعون الفيلسوف الذى كان يرى الله في «القوى المجردة» التي خلقت كل موجود في  
هذا الوجود ، والتي ترزق الفرخ وهوى داخل البيضة ، وترزق الجنين في بطن أمه ، وتبعث  
الحياة في قلب البذرة فيخرج النبات من جوف الأرض ..

كان هذا الإله الواحد الذى وصل إليه هذا المتعبد الشاعر ، هو الإله «آتون» وكان  
يرمز إليه بقرص الشمس ، تمتد منه أباد بشرية تمنح الحياة لكل مافي الوجود من  
كائنات ..

وما أن تربع هذا الفرعون على عرش مصر ، حتى غير اسمه «أمنتحتب الرابع» وسمى  
نفسه «أخناتون» ومعناه أن الإله آتون راض .. ولم يضيع الكثير من الوقت ، فأعلن دينه  
الجديد على أوسع نطاق في داخل البلاد وخارجها . وقال لجميع أركان الدولة ، أن الإله  
واحد لا شريك له ، ولا بد من تحطيم وإبادة جميع الخرافات الدينية السابقة القائمة على فكرة  
تعدد الآلهة ..

وأمر أخناتون بإزالة أسماء جميع الآلهة الآخرين من جميع المعابد الدينية المصرية في  
طول البلاد وعرضها .. وقضى بذلك على السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها الكهنة



نفرتيتى .. أجمل ملكات التاريخ !



اخناتون .. أول الموحدين !

ورجال الدين ، وعلى الأخص كهنة « آمون » الذين بلغت سلطاتهم في الدولة ، حداً من الخطورة أصبح لا يمكن السكوت عليه ..

وأعلن اخناتون أن جميع المخلوقات يمكنها أن تعبد الإله الواحد دون أية وساطة من رجال الدين الذين يدعون أنهم حلقة الوصل بين الإنسان والإله ..

وقد عكف اخناتون على وضع أجمل النصوص للأناشيد والقصائد الشعرية الدينية لعبادة الإله الواحد خالق كل شيء . وقد عقد كثير من المؤرخين مقارنات تحليلية بين نصوص الأناشيد التي أبدعها اخناتون وبين نص « المزمور رقم ١٠٤ » من مزامير داود المذكورة في التوراة ، فوجدوا تشابهاً وتماثلاً وتطابقاً بين الكلمات والجمل والمعاني وترتيب الأبيات . ونظراً لأن اخناتون يسبق التوراة زمناً وتاريخاً ، لذلك فقد أعلن عالم المصريات الكبير « ج . هـ . برستيد » وهو من أكبر المتشيعين لاختناتون والمعجبين به ، أن اخناتون هو أول من وحد الله في هذا العالم ..

ورغبة في التجديد المستمر، فقد هجر أخناتون « طيبة » عاصمة البلاد ، واختار موقعاً جديداً على الشاطئ الشرقي للنيل [ بمحافظة المنيا ] أقام فيه عاصمة جديدة للامبراطورية المصرية ، وأطلق عليها اسم « آخت آتون » ومعناها « أفق آتون » .. وتسمى حالياً تل العمارنة .

أرادها مدينة جديدة في كل شيء ، تعبر عن جوهر الفلسفة الآتونية في التغيير والانتقال من القديم إلى الجديد .. وهكذا صممت المدينة وشوارعها المنتظمة ، وصممت القصور والفيلات وبيوت النبلاء وكبار الموظفين جنباً إلى جنب مع بيوت العمال وأبناء الشعب البسطاء ، في طابع ديمقراطي يعبر عن فكرة المساواة بين جميع المخلوقات أمام الإله الواحد .. كما ألغيت أماكن « الحرمك » وهي الأماكن التي كانت مخصصة للحريم في قصور الملوك والنبلاء ، مما يدل على تأكيد حق المساواة بين الجنسين ..

وقد حدثت تطورات هائلة في فنون العمارة والنحت والتصوير ، فقد انكسر جمود القواعد الصارمة التي ظلت تحكم الفن المصري القديم لآلاف السنين السابقة على عهد أخناتون ، وحلت محلها ابتكارات جديدة تعبر عن اتجاهات واقعية ، ورؤية فنية تمجد فكرة « الحياة في الحقيقة » وهي جوهر الفلسفة الآتونية ..

وبالرغم من أن هذه العاصمة الجديدة « آخت آتون » قد دمرت تماماً وسويت بالأرض ، بعد موت اخناتون والقضاء على ديانته ، فإن بعض الآثار التي وصلت إلينا ،



هوارد كارتير .. اثناء اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون .. أعظم كنز أثرى عشر عليه الإنسان حتى الآن .

وهى جد نادرة ، تعتبر من أجل الإنتاجات الفنية في العالم القديم ، ليس في مصر وحدها ، بل وفي كل أنحاء العالم .. ولعل التماثيل التى تمثل رأس الملكة « نفرتيتى » زوجة اخناتون ، أو رأس الملكة « تى » أمه ، أو تماثيل اخناتون نفسه ، خير شاهد على مدى الثورة التى حدثت فى فن النحت .

كما أن بقايا النقوش الملونة التى كانت تزين جدران وحوائط القاعات والحجرات الداخلية لقصور الملك وكبار رجال دولته ، تدل أيضا على تخلق الفنان المصرى عن الأساليب والقواعد القديمة واتجاهه إلى التعبير الواقعى فى رسم جميع اللوحات بما تتضمنه من إنسان أو حيوان أو طير أو نبات أو حتى زخارف صباء ..

وما زالت شخصية اخناتون محل خلاف شديد بين المؤرخين وعلماء المصريات ، القدماء منهم والمحدثين .. بعضهم يرفعونه إلى درجة سامية ، وبعضهم يهبطون به إلى الحضيض ويدعون أنه كان شخصية غير طبيعية ومنحرفة ، وأنه كان مخنثا ، بل ويقول بعضهم أنه قد تحول جنسيا فى أواخر أيامه ..

وأيا كانت آراء المؤرخين والعلماء فى هذه الشخصية الفذة فى التاريخ المصرى ، إلا أن هناك إجماعاً على أنه قد أحدث ثورة كالتزلزال فى أساليب الفن المصرى والثقافة المصرية والديانة المصرية .. وأنه كان « رجل سلام » وضد فكرة الحرب أو السيطرة على الآخرين ..

ولذلك فقد انتهزت المستعمرات المصرية فى البلاد الآسيوية فرصة انشغال اخناتون بدينه الجديد ، وقامت بثورات وقلاقل للتخلص من الحكم المصرى ، دون أن يفكر هذا الفرعون فى إرسال الحملات التأديبية التى كان يقودها أجداده لإحكام قبضتهم على هذه الأقاليم ..

وموت أخناتون واختفاؤه المفاجئ من الحياة المصرية والتاريخ المصرى مازال لغزاً غامضاً حتى الآن .. فلم يعثر له على جثة وربما كان موته نتيجة لعمل عنيف .. وعلى أية حال فقد تولى عرش البلاد بعده أخوه « سمنخ كارع » الذى مات وعمره دون العشرين بعد أن حكم لفترة قصيرة جداً ، ولكنها كانت حافلة بالصراعات الهائلة التى قادها كهنة آمون لاستعادة أملاكهم وسطوتهم وسلطاتهم السابقة ، التى كانوا يتمتعون بها قبل عهد أخناتون .



## \* توت عنخ آمون : أشهر ملك في العالم

أصبح من المسلم به الآن في علوم الآثار، أن قيام « هوارد كارتر » باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في وادي الملوك سنة ١٩٢٢ م ، يعتبر أهم وأعظم الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين ، كما تعتبر المقبرة بما فيها من محتويات ، أعظم كنز علمي عثر عليه الإنسان حتى الآن ..

وقد ذاعت شهرة هذا الملك الصغير منذ لحظة اكتشاف مقبرته في جميع أنحاء المعمورة . بل إن أجهزة الإعلام والصحافة والثقافة في جميع أنحاء العالم أيامئذ ، لم يكن لها شاغل أهم من أخبار هذا الملك الذي مات منذ نحو ٣٢٧٠ سنة ، ففطت أخباره على أخبار جميع الملوك الأحياء في جميع ممالك الأرض .

هذه الكنوز الضخمة من الذهب والقطع الأثرية الفنية البديعة التي أذهلت العالم ، والتي مازال يقف أمامها إنسان القرن العشرين فاغراً فاه من الإعجاب والدهشة ، لا يمكن تقديرها بثمان مها غلا وارتفع ، الأمر الذي يجعل المؤرخين وعلماء الآثار يتساءلون : إذا كانت كل هذه الكنوز قد دفنت مع توت عنخ آمون ، وهو ملك ضئيل الشأن جداً إذا قورن بغيره من أجداده من الملوك العظام من نفس أسرته ، فماذا كان حجم الكنوز والتحف الفنية الثمينة التي دفنت مع هؤلاء الملوك لتناسب عظمتهم وثراءهم ومكانتهم في تاريخ البلاد ؟!

وقد مات هذا الفرعون الصغير وعمره لم يتجاوز ١٩ سنة ، في ظروف تؤكد أن شمس الأسرة الثامنة عشرة قد مالت وأوشكت على المغيب .. وقامت أرملته الملكة « عنخس باآمون » بارتكاب إحدى حماقات النساء حين يجدن أنفسهن في مهب الرياح والأعاصير ، فقد أرسلت خطاباً سرى إلى « شوبيلوليوما » ملك الحيثيين ، تطلب منه أن يرسل لها أحد أبنائه لكي يتزوجها ويجلسان معاً على عرش مصر .. وكادت هذه المؤامرة النسائية أن تتم لولا انكشاف الأمر ، فقام بعض المصريين بقتل الأمير الأجنبي الذي كان ينوى أن يصبح فرعوناً على البلاد ، وذلك قبل أن تطفأ قدمه الحدود المصرية ولولبضع خطوات ..

وتولى الحكم بعد توت عنخ آمون الملك « آي » وهو من رجال الدولة المخضرمين ، ولكنه لم يكن سليل ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وحكم لفترة قصيرة بالنظر إلى كبر سنه ، فخلفه أحد الضباط العظام في الجيش المصرى وهو القائد الحربى « حورحوب » ليكون حلقة الوصل بين آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وأول ملوك الأسرة التالية لها ..

قاد حورعوب حركة الرجعية التقليدية ، وقضى على التجديدات العقائدية والفكرية التى انطلقت من عقلمها فى عهد اخناتون ، وأعاد التزمى الدينى ممثلاً فى فكرة تعدد الآلهة القديمة ، كما قام بسنّ مجموعة كبيرة من القوانين لإعادة النظام العام المصرى التقليدى الذى كان يسود البلاد فى عهد تماسك الامبراطورية .

## ● الأسرة التاسعة عشرة

وفى سنة ١٣٢٦ ق . م مات حورعوب دون وريث ، فخلفه أحد رجاله العظام ، الضابط الكبير المحنك « رمسيس الأول » الذى قام بتأسيس الأسرة التاسعة عشرة ، وهى أسرة عظيمة جاهدت لإعادة أجماد الامبراطورية المصرية إلى ما كانت عليه فى أيام العز القريبة . وكانت هذه الأسرة « بحراوية » من أبناء الدلتا ، ومع ذلك فقد اتخذت طيبة عاصمة للبلاد نظراً لأنها مركز الإله آمون وكهنته الذين كانوا يعتبرون سندهم الأكبر فى الحكم ، [ هذا بالرغم من أن رمسيس الثانى قد بنى فيما بعد مدينتين جديدتين فى الدلتا ، حتى يكون قريباً من مناطق طموحاته وفتوحاته التى كان يهفو إليها ] .

ونظراً لأن رمسيس الأول كان كبيراً فى السن ، فلم يسعفه العمر لمواصلة الإصلاحات الداخلية والخارجية التى بدأها حورعوب . وتولى بعده ابنه العظيم « سبتى الأول » .

## ● سبتى الأول

كان سبتى قد تربى تربية عسكرية وسياسية من أعلى طراز ومستوى ، فقد كان مثل أبیه ضابطاً بالجيش المصرى ، وقاد عدة حملات تأديبية حتى قبل أن يتولى أبوه الحكم . وفيما يبدو من أعماله وآثاره ، أنه كان يضع أجماد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث كمثلى أعلى يحتذيه .

وسرعان ما جيش الجيوش المصرية ، وتقدم بها ليستعيد المستعمرات والأملك المصرية فى آسيا . واستعادها بالفعل بعد تحقيق انتصارات كبرى ، أعادت الشعب المصرى إلى همته القديمة ، وعادت بالتالى أموال الجزية تتدفق فى سيل منهمر لتدخل الخزانة المصرية .

ثم قام بعدة حملات تأديبية ضد النوبة وبعض المناطق الليبية ليضمن جواً من الأمن والاستقرار والطمأنينة يكفل الراحة للناس ، ليدفعهم إلى المزيد من الإنتاج والمزيد من الإخلاص فى الاستجابة إلى طلبات الدولة .

وخير ما يمكن أن يفخر به ملك مثل سبتى الأول ، هو إعلانه في زهو أنه قد أعاد « ماعت » لتحكم العلاقة بين الناس وبعضهم ، وبين الشعب والدولة . و« ماعت » هذه فكرة مجردة مقدسة مستقرة في وجدان المصريين القدماء كأمة ، وهى أصل العدالة والصدق والحق وتأدية الواجب على أفضل نحو إلى غير ذلك من المثل العليا . ومن ثم فقد سن القوانين والتشريعات لإقرار هذه المبادئ وسريانها على جميع المصريين على قدم المساواة .

ومن إيمان هذا الملك بفكرة « التعمير والبناء » بدأ حركة ضخمة في إصلاح جميع المعابد والمباني المقدسة التى خربها اخناتون في جميع أنحاء البلاد وأعادها إلى ما كانت عليه ، بل وأدخل عليها الكثير من التحسينات ، وأعاد الأسماء الحقيقية للملوك القدامى الذين شيدوا تلك المعابد والمباني في الماضي .

كذلك فقد بدأ نهضة أخرى في بناء المعابد الجديدة التى لا يمكن وصفها إلا بأنها كانت آيات من الفن الرفيع . ويكفى أنه صاحب الفضل الأكبر في بناء « قاعة الأعمدة العظمى » بمعد الكرنك . وهى القاعة التى بدأها أبوه ، وافتتحها ابنه « رمسيس الثانى » فيما بعد . كما أن مقبرته بوادى الملوك ، تعتبر من أكبر وأجل المقابر على الإطلاق .

## ● رمسيس الأكبر

كان هذا هو الاسم المفضل الذى يحب هذا الامبراطور المزهو بنفسه أن يطلق عليه . ولكنه كان بالفعل كبيراً يستحق هذه المكانة التى صنعها لنفسه وبلده ، فتميز عهده الطويل الذى استمر نحو ٦٧ سنة بالأعمال الكبيرة الضخمة على كل المستويات .

لقد أنجب رمسيس الثانى نحو ١١١ ولداً و٦٧ بنتاً . الأمر الذى قد يدعو إلى الاعتقاد بأنه كان يقضى وقته كله في إنجاب الأطفال . ولكن الحال كان على عكس هذا الاعتقاد تماماً ، فقد قام فور توليه الحكم بسلسلة من الحملات العسكرية ، خاض بها معارك حربية رهيبة ضد أعداء مصر من الدول الحديثة التى أخذت تظهر في بعض المناطق الآسيوية ، والتي أخذت تزاخم مصر في سيطرتها على المستعمرات الآسيوية .

ودون الامبراطور التقارير التفصيلية لمعاركه هذه ، على جدران المعابد العظيمة التى شيدها في طول البلاد وعرضها ، بل وتعتبر قصة « معركة قادش » التى يصور فيها رمسيس الثانى انتصاره على الحيثيين أول ملحمة من « ملاحم البطولة » في التاريخ الأدبى .

وبعد عديد من الحملات العسكرية الناجحة ، امتدت المناطق الخاضعة لحكم الامبراطورية المصرية ، من بلاد النهرين « العراق » فى أقصى الشمال الشرقى ، حتى الجندل الرابع فى أقصى الجنوب .

وبعد أن اكتفى بماخاض من حروب ، بدأ عهداً جديداً من الدبلوماسية السياسية المصرية ، تمكن فيه من الوصول إلى نفس النتائج التى كان يمكن أن يصل إليها بالسلاح .

ويحلو لبعض المؤرخين أن يطلقوا على رمسيس الثانى اسم « سيد البنائين » تقديرأ منهم للإنشاءات الضخمة والمباني العظيمة والتماثيل والمسلات التى شيدها فى جميع المدن والأقاليم المصرية ، والتى تتميز كلها بطابع الضخامة والعظمة والأبهة ، والتى مازالت آثارها حتى اليوم تثير إعجاب ودهشة المشاهدين .

إن آثار معبد « الرمسيوم » مثلاً أصبحت إحدى عجائب الدنيا التى تحدث عنها الإغريق القدماء فى القرن الرابع قبل الميلاد ، أى بعد موت رمسيس بنحو ألف عام . أما معبد « أبوسمبل » فشهرته الدولية مازالت ذائعة حتى الآن فى جميع أنحاء العالم .

وقد اكتشفت بعض التزويرات التى أحدثها رمسيس الثانى فى بعض المعابد التى أنشأها الملوك السابقون وادّعاها لنفسه ، الأمر الذى دعا بعض المؤرخين إلى القول بأنه كان « أكبر سارق » لآثار الملوك القدماء ونسبتها إلى نفسه ، وأنه كان أكبر « بروباجانديست » ، أى رجل دعاية قائمة على التهويش وادعاء غير الحق .

غير أن هذه الهنة فى تاريخ هذا الامبراطور ، يمكن اغتفارها له فى ضوء العرف الذى كان يجرى فى بعض الأحيان بين الفراعنة المصريين ، كما أن عدد المعابد التى ادعاها رمسيس الثانى لنفسه يعتبر نسبة ضئيلة جداً بالمقارنة إلى عدد المعابد والإنشاءات التى أقامها الامبراطور فعلاً . وكان معروفاً عنه أنه يقوم بالإشراف على أعماله بنفسه ، و يقوم بتشجيع العمال أثناء العمل ، وأنه كان حريصاً على منع السخرة واعتبارها جريمة ، بنفس درجة حرصه على إعطاء كل ذى حق حقه .

وقد تميز عصره بأنه كان أوسع « انفتاح » لمصر على جميع أنحاء العالم القديم فى تلك الفترة . فكانت هناك حركة تجارية وسياحية نشطة بين مصر وكريت .. كما أصبح المصريون مولعين بالسفر إلى البلاد الأجنبية ليتعرفوا على مجاهلها وجغرافيتها ووصف مدنها وناسها . وبدأ الكثير من الشبان المصريين فى « حشر » بعض الكلمات الأجنبية فى أحاديثهم العادية كدليل على قدرتهم الثقافية .

كذلك فقد انتشر استخدام اللغة الشعبية في النصوص الأدبية والحكم والأمثال والأشعار والأغاني الغزلية ، كما انتشرت صناعة الآلات الموسيقية التقليدية المستخدمة في مصر ، وغيرها من الآلات الأخرى الشائعة الاستعمال في البلاد الأجنبية .

كما أن فنون النحت والتصوير قد بلغت حدًا من الكمال ، مازال محل تقدير المعجبين بها حتى اليوم ، وذلك بفضل موازنتها بين التقاليد الراسخة للفن المصري القديم ، واتجاهات التجديد وحرية التعبير التي أطلقها اخناتون .

ويقول بعض المؤرخين أن فكرة « التنسك » في الدين والانقطاع التام إلى العبادة وحدها ، قد ظهرت في عهد رمسيس الثاني ، وهي نفس الفكرة التي قامت على أساسها فلسفة التصوف والرهبة فيما بعد .

## ● فرعون موسى

لم يعرف حتى الآن على وجه قاطع ، من هو بالتحديد فرعون موسى ، أو الفرعون الذي طرد بنى اسرائيل وأخرجهم من مصر . فالبعض يقولون أن « الخروج » قد حدث في عهد رمسيس الثاني ، والبعض يشككون في قصة الخروج نفسها . أما أرجح الآراء السائدة الآن ، فهو الرأي الذى يقول إن خروج بنى اسرائيل من مصر قد تم في عهد الملك « مرنبتاح » ابن رمسيس الثانى الذى تولى الملك بعد موت أبيه .

وقد تولى « مرنبتاح » أو « منفتاح » الحكم في ظروف صعبة ، فقد كانت الحركة الدولية بين شعوب العالم القديم على أشدها . وفي أواخر عهد رمسيس الثانى ، تسلى الليبيين في أعداد قليلة في البداية إلى داخل الحدود الغربية للبلاد واستقروا بها ، ثم ازدادت أعداد القبائل والعشائر الليبية بعد ذلك ، إلى أن تحول الأمر في النهاية ، أن اتخذت هذه الهجرات شكل غزوة شاملة في عهد « مرنبتاح » الأمر الذى دعاه إلى تجريد حملة عسكرية لصد هذا الهجوم الاستيطاني وطرد الليبيين من غرب البلاد .

وقد حدث نفس الشيء أيضا بالنسبة للحدود الشرقية ، حيث كانت أعداد غفيرة من بنى اسرائيل قد تسلت إلى مناطق شرق الدلتا وأقامت في البلاد بصفة مستديمة ، فاضطر « مرنبتاح » إلى تجريد حملة عسكرية أخرى لطرد بنى اسرائيل من مصر . والجدير بالذكر أن اسم « اسرائيل » قد ظهر لأول مرة في التاريخ في النصوص التى دونها « مرنبتاح » لوصف حروبه ومعاركه وحملاته العسكرية .

## ● آخر الملوك العظام

بعد موت مرنبتاح ساد الاضطراب في نظام الحكم وادعى العرش بعض الطامعين فيه ، وانتهت بذلك الأسرة التاسعة عشرة ، وأفسحت المكان لظهور الأسرة العشرين ، وهى آخر الأسرات الملكية التى تكونت منها « الدولة الحديثة » المعروفة فى التاريخ المصرى .

وأشهر ملوك هذه الأسرة هو « رمسيس الثالث » . وقد أصر خلفاؤه الذين تولوا الحكم بعده على تسمية أنفسهم باسم رمسيس ، من أول رمسيس الرابع حتى رمسيس الحادى عشر . ومعظمهم كانوا ملوكاً نكرات ، وصلت أحوال البلاد فى عهدهم إلى أقصى قدر من السوء .

أما رمسيس الثالث فقد اعتبره بعض المؤرخين آخر الملوك العظام الذين حكموا مصر . وكان صاحب همة وعسكرية عسكرية وقدرة فائقة على إقرار النظام وتوطيد أركان الحكم ، فحافظ على استقلال البلاد — وهو أمر لم يكن سهلاً — أمام القوى المتنامية التى كانت تحيط بمصر وتطمع فيها . كما قام بصد غزوات الليبيين التى استمرت بلا هوادة .

وما أن انتهى من أمر الليبيين ، حتى جاءت الأخبار السيئة بتسلل هجرات متدفقة إلى الحدود الشرقية والشمالية من البلاد . وكان الغزاة فى هذه المرة هم « شعوب البحر » كما كان يسميهم المصريون القدماء ، وهم قبائل وفدت بأعداد كبيرة وفى شكل هجرات جماعية ضخمة من مختلف المناطق فى أوروبا وآسيا الصغرى وصقلية وسردينيا . وعلى الفور جهز رمسيس الثالث الجيش المصرى لملاقاة هذه الهجرات المتدفقة والتى تجمعت فى سوريا وفلسطين للوثوب على هدفها الأساسى وهو أرض مصر . وفاجأ رمسيس الثالث هذه التجمعات البشرية وهزمها هزيمة منكرة ، أوقف بها عملية الهجرة إلى مصر ولو إلى حين .

وتعتبر « مدينة هابو » من الآثار الخالدة التى خلفها لنا رمسيس الثالث . وهى مدينة دينية كاملة ، فيها الكثير من المعابد والمباني الضخمة التى دون على جدرانها ما يريد أن يتركه للناس من أخباره وأمجاده .

ومن بين النقوش البديعة فى « مدينة هابو » ما يمكن اعتباره أول « سيناريو » فى العالم لتصوير معركة بحرية ، حيث دارت معركة طاحنة بين السفن الحربية المصرية والسفن المغيرة فى مكان قرب « دمياط » ويظهر الملك واقفاً على الشاطئ يشجع جنوده ومحاربيه ويحفزهم على بذل المزيد من الشجاعة ، ويلقى سهامه على سفن العدو فيصيب العديد من أعدائه « شعوب البحر » .

و يفخر الملك بأعماله المدنية ، و يزهبأنه قد أنشأ العديد من المصانع والمعامل ، وأن تجارة مصر الخارجية قد ازدهرت بسبب ذلك ، كما يزهو في نص بليغ آخربأنه قد أقام الحدائق والبساتين والمتنزهات العامة ، وأمر بزرع الأشجار في الشوارع ، كما زرع الطمأنينة في صدور الشعب لدرجة أن « المرأة أصبحت تسير في الطرقات وحدها دون أن تتعرض لأية معاكسة من سافل أو شرير !! » .

## ● أول إضراب في التاريخ .

يبدو أن بذور التحرر التي غرسها اخناتون بما كانت تتضمنه من القول بأن البشري جميع المخلوقات سواء أمام الله ، قد بدأت تؤتي ثمارها بين جميع طبقات الشعب ، بل وبين أقل هذه الطبقات شأنًا . فقد ازدهرت طبقة الفلاحين ، وخففت عنها الضرائب ، وأعطيت الكثير من الحقوق والضمانات .

كما أحس العمال أن الأجور التي يحصلون عليها لا تناسب الجهد الذي يبذلونه ، ولا تتمشى مع تكاليف المعيشة التي ارتفعت بشكل لم يسبق له مثيل ، بسبب المصنوعات المصرية الكثيرة والمصنوعات الأجنبية التي أخذت تتدفق بدورها في الأسواق . ولذلك فقد أضرب هؤلاء العمال عن العمل ، وطالبوا بزيادة مرتباتهم ومخصصاتهم العينية ، وهذه الواقعة في حد ذاتها تعتبر أول تسجيل تاريخي في العالم لعملية إضراب العمال للمطالبة برفع الأجور .

وقد انتهت حياة رمسيس الثالث نهاية درامية محزنة ، نتيجة لمؤامرة نسائية حاكها امرأة تكيد لزوجها باستعمال « السحر الأسود » . فقد قامت إحدى زوجاته بعمل سحري شرير ضد الملك ، وذلك بقصد القضاء على حياته ، لكي يتولى العرش ابنه منها . وقد حوكت تلك الزوجة أمام هيئة قضائية من بعض الكهنة وكبار رجال الدولة .

## ● عصر الاضمحلال الثالث

بعد موت رمسيس الثالث ، تولى الملك بعده مجموعة من الرعامسة الذين ينتمون للأسرة العشرين . وقد بلغت البلاد في عهودهم أقصى درجات الفقر والفسق . وسادت المجتمع

المصري حالة لم يسبق لها مثيل من عمليات السلب والنهب ، خصوصاً عمليات السطو على مقابر الملوك ومقابر النبلاء وعلية القوم ونهب مافيها من كنوز مدفونة .

ولم يكن الفقر ناشباً أنيابه في رقاب الطبقات الشعبية وحدها . بل ضرب الفقر أيضاً أعناق الملوك ، لدرجة أن بعض الفراعنة قد عجزت مواردهم المالية بالفعل عن تسديد أجور العمال الذين يحفرون مقابرهم .

وقد تسللت الفوضى إلى نظم الدولة ومؤسساتها بعد ازدياد أعداد الأجانب [ خصوصاً الليبيين ] وتدخلاتهم المباشرة في شئون البلاد التي سادتها فترة تاريخية تسمى في التاريخ المصري « عصر الاضمحلال الثالث » بدأت بموت رمسيس الثالث ، وانتهت بنهاية الأسرة الرابعة والعشرين .

## ● تحت حكم الليبيين

وفي سنة ٩٥٠ ق . م انقض الليبيون على عرش مصر واغتصبوا الملك . وأعلن الليبي « شيشنق الأول » نفسه ملكاً على الوجهين ولبس التاجين ، تماماً مثلما كان يفعل الفراعنة العظام . ويقول بعض المؤرخين أن أسرة شيشنق وإن كانت في الأصل ليبية ، إلا أنها كانت مستقرة بمصر منذ فترة طويلة ، وتوالدت فيها ، وظهرت منها أجيال متمصرة ، أو تعيش كما يعيش المصريون تماماً .

وقد وضع شيشنق أمامه هدفاً معلناً ، وهو إعداد جيش قوى ليستعيد به أملاك مصر في أقاليم آسيا وبلاد النوبة . ويذكر له التاريخ أنه قد توجه بالفعل إلى فلسطين ، ودمردولة إسرائيل ، ونهب مدينة أورشليم ودكهاد كا وسلب كل كنوزها ونقلها إلى مصر . وقيل إن هذه الكنوز كانت من الضخامة لدرجة أنها ظلت كافية للصرف منها على مدى ٢٠٠ سنة !

## ● تحت حكم النوبيين

وفي هذا العصر ، كانت بلاد كوش « النوبة » قد استقلت عن مصر وأست مملكة في بلادها على نفس نمط الممالك المصرية القديمة . وفي سنة ٧٥٠ ق . م تمكن النوبي « كاشتا » من مهاجمة الحدود المصرية الجنوبية ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة « طيبة » .



وبعد نحو ٣٠ سنة ، وبالتحديد فى سنة ٧٢١ ق . م تمكن ابنه الملك « بعنخى » من غزو كل الصعيد ومصر الوسطى والوجه البحرى ، وأعلن نفسه فرعوناً على مصر ، وأسس الأسرة الخامسة والعشرين .

غير أن عهد الملوك النوبيين فى مصر لم يدم طويلاً ، إذ سرعان ما هب الملك « بسماتيك الأول » الذى أسس الأسرة السادسة والعشرين وبدأ عهداً جديداً تميز فى كل شىء .

## ● صحوة الموت

يعرف عصر هذه الأسرة فى التاريخ المصرى باسم « العصر الصاوى » نسبة إلى « سايس » عاصمتهم التى اتخذوها فى شمال الدلتا .

وقد انتابت جميع ملوك هذه الأسرة نزعة عارمة لإحياء الحضارة المصرية وتضميد جراحها وبعث تقاليدھا ومثلها العليا . وبدأوا بالفعل حركة تسجيل وتكوين لجميع النصوص الأدبية الكلاسيكية والعلوم الرياضية والهندسية ، بالإضافة إلى قيامهم بالعديد من أعمال الصيانة والترميم لمعظم الآثار المصرية التى خلفتها الممالك المصرية القديمة .

وفى عهدهم ازدهرت الحياة الاقتصادية وتوافرت المحاصيل الزراعية وخاصة القمح والحبوب . بحيث أصبحت مصر المورد الرئيسى للقمح لمعظم شعوب البحر المتوسط . وبالتالى فقد قويت علاقات مصر باليونان وجزر بحر إيجه ، حتى أصبحت مصر فى النهاية قبلة اليونانيين ، يفتدون إليها فرادى وجماعات متتالية ، سواء بقصد السياحة ، أو تلقى العلم ، أو للإقامة والاستيطان المستديم .

وكان حكام الإغريق القدماء فى هذه الفترة من التاريخ ، يعتبرون مصر مثلهم الأعلى . بل إن المشرع الإغريقى العظيم « سولون » قد أخذ نصوص معظم القوانين المدنية والجنائية وقوانين الأحوال الشخصية التى حكمت مصر والمصريين لمئات وآلاف السنين .

ويؤكد بعض المؤرخين أن بقايا الكتب الأدبية والمراجع العلمية التى كان يتداولها المصريون فى ذلك العصر ، كانت النواة الأساسية الصالحة للنمو ، والتى أثمرت فعلاً فروع العلوم والمعرفة والفلسفة الإغريقية .

ومن مفاخر هذا العصر أيضاً أن الملك « نيخاو » ابن بسماتيك قد جهز أول حملة بحرية استكشافية قامت بالدوران حول إفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح لأول مرة فى

تاريخ العالم ، كما قام هذا الملك بتوصيل البحرين الأحمر والمتوسط بحفرة قناة لتوصيل النيل بالبحر الأحمر.

كذلك فقد ازدهرت الفنون في هذا العصر وإن كانت في مجملها عبارة عن نسخ وتقليد ومحاكاة طبق الأصل للتحف الفنية المصرية الكلاسيكية القديمة .

## ● الفرس قادمون

شهد القرن السادس قبل الميلاد والقرون القليلة التالية له ، مولد حضارات جديدة واندثار حضارات عدة .. دالت دول وحلت محلها دول وامبراطوريات جديدة متنامية . وهكذا كانت دورة الحياة .

في الشرق نشأت امبراطورية الفرس فتية قوية طموحة . وكانت مصر بالنسبة لها هي أقصى مطامح توسعاتها في دول العالم القديم . بل وأعلن ملوك الفرس أنهم لو فتحوا مصر فإن ذلك سيعيد أكبر انتصار لهم ، يبرهن على قوتهم أمام العالم القديم كله .

وفي سنة ٥٢٥ ق . م وقعت إحدى المصائب الكبرى في تاريخ مصر والمصريين ، فقد تمكن « قبيز » من القيام على رأس حملة جبارة ، واستولى على مصر كلها بعد حرب مقاومة كبيرة مريعة من المصريين بالاشتراك مع المستوطنين الإغريق الذين كانوا يقيمون بمصر بصفة مستديمة .

وتمكن الفرس من تكوين أسرة مالكة لتجلس على عرش مصر ، وهي الأسرة السابعة والعشرون التي حكمت مصر قرابة ١٢٠ سنة .

وقد عامل الفرس المصريين باستعلاء وتجبر ووحشية فأشاعوا الإرهاب والتقتيل والتعذيب والإهانة ، مما دفع الشعب المصري إلى التكتل والثورة ضد الغزاة الطغاة . وقد حدثت بالفعل عدة ثورات لمناهضة الفرس ، ولكنها كانت تخمد بقسوة بالغة وأولاً بأول .

ولكن توالى هذه الثورات ضد الحكم الفارسي ، نجح أخيراً في زحزحة الكابوس الغازي عن أرض مصر ، خصوصاً أن قوات الاحتلال الفارسية كادت أن تصبح مقطوعة الصلة مع مركز الدولة في إيران ، بالإضافة إلى النمو الحربي للدولة الإغريقية التي أصبحت تناوى الفرس في مستعمراتهم ، بل وأصبحت تهددهم في عقدراتهم .

## ● لحن الختام الحزين

وبعد اندحار الفرس عن مصر، تكونت أسر مالكة ضعيفة حكمت مصر على التوالي، وهي الأسرة الثامنة والعشرون التي تكونت من ملك واحد استمر حكمه نحو ست سنوات، والأسرة التاسعة والعشرون التي استمرت في الحكم نحو عشرين سنة. وأخيراً الأسرة الثلاثون التي حكمت نحو سبع وثلاثين سنة انتهت بسيطرة الفرس مرة أخرى على البلاد. وكان ذلك في سنة ٣٤١ ق. م. ولكن حكمهم هذه المرة لم يستمر أكثر من تسع سنوات.

وفي سنة ٣٣٢ ق. م، كان الاسكندر المقدوني قد قطع شوطاً طويلاً في فتوحاته العسكرية في أقطار العالم القديم، ووصل عندئذ إلى مصر، فاستقبله المصريون كفاتح جديد رحيم يخلصهم من الاحتلال الفارسي البغيض.

ومن بعد غزوة الاسكندر الأكبر لمصر، توالى عليها الأمم الأخرى الغازية .. الرومان .. العرب .. الأتراك .. الفرنسيون .. الانجليز ..

ومع ذلك فقد استمرت مصر طوال هذا التاريخ، تثير كل أمة الأرض بتاريخها الحضارى التليد، وبآثارها وأسرارها وعلومها وآدابها وفنونها، التي كانت ومازالت، تفتن كل الذين يعلمون من أمة وشعوب العالم، في جميع أنحاء كوكب الأرض .. !





رئيس الأكبر : سيد العالم

### **3. RAMSES THE GREAT MASTER OF THE WORLD BY: WILLIAM MACQUITTY.**



## • المؤلف .. والكتاب

وليم ماكويتى .. كاتب ومصور، عضو الجمعية الجغرافية الملكية، وزميل بجمعية التصوير الفوتوجرافى الملكية ببريطانيا، وخريج حائز على مرتبة الشرف من « جامعة الملكة » فى بلفاست ..

اختاره شاه إيران الراحل من بين مئات الكتاب المصورين العالميين للإشراف على كتاب « فارس .. الملكة الخالدة » الذى يتضمن تسجيلا للاحتفالات بمرور ٢٥٠٠ عام على تأسيس المملكة الفارسية .

ويعتبر كتابه « رمسيس الأكبر .. سيد العالم » خامس كتاب له عن تاريخ الحضارة المصرية القديمة، أما الكتب الأربعة الأخرى فهي عن « أبوسمبل » .. « جزيرة إيزيس » .. « الحكمة عند قدماء المصريين » .. « توت عنخ آمون — الرحلة الأخيرة » .. وكلها كتب ناجحة بلغت الذروة فى حجم المبيعات والتوزيع فى أوروبا وأمريكا وأنحاء العالم الأخرى .. هذا بالإضافة إلى كتب أخرى للمؤلف تتناول معالم أخرى من الحضارة الإنسانية.

وكتقليد علمى متبع، تقدم المؤلف بالشكر لكل من ساعده فى إخراج هذا الكتاب عن رمسيس الأكبر .. وأبرزهم ت . ج . هـ . جيمس أمين القسم المصرى بالمتحف البريطانى الذى كتب مقدمة الكتاب وراجع نصوصه وترجم النصوص الهيروغليفية الخاصة بأسماء رمسيس .. ومن المصريين عادل طاهر بوزارة السياحة، وعلى كحالة

بأسوان، وجلال عيد بالأقصر، ومحمد ابراهيم بالمتحف المصرى بالقاهرة، ونادية ابراهيم بالاسكندرية، وسامى المصرى بلندن، والدكتور جمال الدين مختار، والسفير سميح أنور...

## تقديم : كلمة فرعون .. ليست شتيمة !

رأيت قبل أن أعرض هذا الكتاب، أن أنبه إلى مارج عليه البعض من إساءة استخدام كلمة فرعون للتعبير عن أى حاكم ظالم أو متحكم ملعون .. وإذا كان القرآن الكريم قد لعن فرعون، فهي لعنة تنصرف إلى فرعون موسى وحده، ولا تنصرف على بقية الفراعنة الآخرين، كما لا تنصرف إلى لقب فرعون نفسه ...

وعلى أية حال فإن كلمة فرعون كلمة مركبة منحوتة من كلمتين : « بر » ومعناها البيت أو القصر .. و« عو » ومعناها الكبير أو الأعظم .. وقد أطلقت كلمة فرعون في البداية على القصر الملكى أو « البيت الأعظم » ثم أصبحت بعد ذلك علماً على كل ملك كان يتبوأ عرش مصر في التاريخ القديم .. وقد ترددت كلمة فرعون كثيراً بهذا المعنى في سفر الخروج بالتوراة .

ولا ينكر أى إنسان متحضر في عالم اليوم، أن من بين هؤلاء الفراعنة العظام الذين حكموا مصر في التاريخ القديم وحتى ظهور المسيحية، عشرات ومئات من الفراعنة الذين تركوا أمجاداً على الأرض، وأرسوا معالم أعظم حضارة إنسانية مازالت إلى الآن منهلاً لثقافة الإنسان في كل مكان وزمان ..

## ● رمسيس .. في قلب باريس !

يقول المؤلف في السطور الأولى من كتابه : في ميدان الكونكورد في قلب باريس، تقف مسلة مصرية شاعخة مكتوب عليها بالهيروجليفيه .. [ رمسيس .. قاهر كل الشعوب الأجنبية .. السيد على كل من ليس تاجاً .. المحارب الذى هزم الملايين من الخصوم والأعداء .. والذى خضع العالم كله لسلطانه، ومعترفاً بقوته التى لا تقهر .. ] .





مسلة رمسيس الثاني بمعد الأقصر .. شقيقتها منصوبة في ميدان الكونكورديا بباريس ..

ولسلة الكونكوردي شقيقة تقف شاحنة بدورها في معبد الأقصر بصعيد مصر ، حيث كان رمسيس الثاني المعروف برمسيس الأكبر يتعبد لإله آمون ..

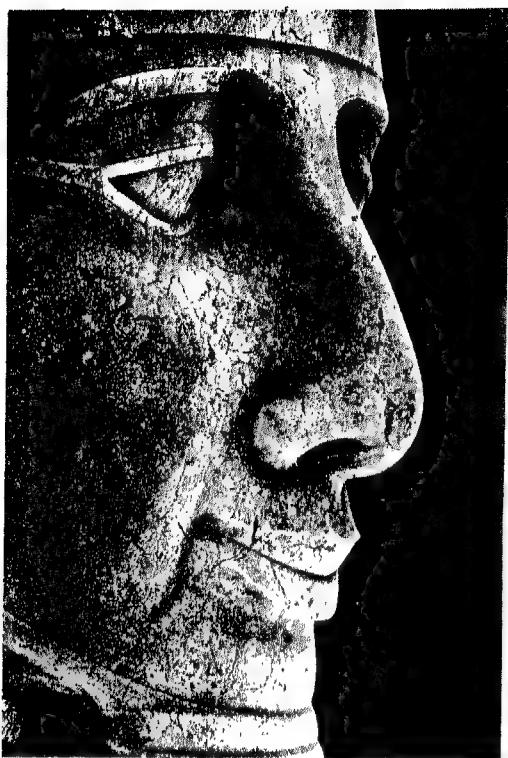
إننا مازلنا لانعرف الكثير من الأسرار التي تكتنف تاريخ هذا الفرعون العظيم .. بالرغم من آثاره الكثيرة التي تنتشر في مصر وخارجها ، والتي حرص فيها رمسيس على تسجيل تاريخه والأحداث التي عاصرها بكثير من الإسهاب والتفصيل .. ومع ذلك فيمكننا أن نفهم بسهولة من تاريخ هذا القائد الشامخ ، أن باريس نفسها لو كانت موجودة على أيامه ، لكان بالقطع قد فتحها وضمها إلى امبراطوريته المترامية ، ولكن من المؤكد أنه كان سيقم مسلة عظيمة تسجل هذا الحدث .. ربما في نفس المكان الذي توجد فيه مسلته الآن بميدان الكونكوردي .. !

### ● اسم رمسيس ..

ويقول ت . ج . هـ . جيمس أمين القسم المصري بالمتحف البريطاني في مقدمة هذا الكتاب : « إن قدماء المصريين الذين كانوا يعيشون في القرون الأخيرة للحضارة الفرعونية ، عندما كانوا ينظرون إلى ماضي تاريخهم التليد ، كان رمسيس الأكبر يتبوأ أبرز مكانة بين الفراعنة الأجداد .. فبانيه الضخمة كانت لم تزل باقية رغم مرور مئات السنين ، تشيد بقدرة هذا الفرعون على البناء والتشييد .

وحتى وقتنا الحاضر ، فإن أى زائر لمصر ، يستطيع أن يلمس بنفسه مدى الحضور المعماري لهذا الفرعون الأكبر في كل موقع ومكان مهم في طول البلاد وعرضها . ومن حقائق التاريخ القديم ، أن اسم رمسيس يعتبر مرادفا للإنشاءات الضخمة التي مازالت آثارها باقية على مدى الزمن ، تعطى صورة مذهلة لما كانت عليه تلك الإنشاءات حين شيدت ، وتعطى صورة أكثر إبهاراً عن الفرعون العظيم الذي كان وراء كل تلك البنايات والأعمال الضخمة ..

وحتى القصص الشعبية و« الحواديت » القديمة التي كانت تتناقل بين أجيال المصريين على مدى آلاف السنين لا تغفل ذكر رمسيس الأكبر باعتباره ملكا حدث في عهده أشياء عظيمة جديدة بأن تظل سيرتها باقية في آذان المصريين وأسماعهم ، لتفعل فيهم فعل السحر والانبهار بقصص وحكايات الأجداد الأقدمين .. حتى موضوع زواجه من



مقارنة طريقة بين ملامح رمسيس الأكبر وصعيدى عجوز من أقصى جنوب مصر



بنت ملك الحيثيين ، فقد صيغ في قالب درامى رومانسى من خلال « حدوتة الأميرة بختان .. » .

ورمسيس الأكبر هو الملك « رامبسنيت » الذى ذكره هيرودوت في حديثه عن مصر القديمة .. فقد ظل اسم رمسيس باقياً بعد موته بمئات السنين . حيث كان خلفاؤه من حكام مصر وفراعنتها ينقشون اسمه على آثارهم للتبرك به والإشادة بمجده ، كما ظل صنّاع الجعارين — سواء في داخل مصر أو في خارجها — ينقشون اسم رمسيس الأكبر لتزيين وجه الجعران زينة مباركة لها فعل السحر في نفوس الناس .

ويستطيع أى سائح يعرف الحروف الهيروغليفية أن يلمح في سهولة آلاف « الخراطيش » التى تتضمن الاسم الملكى لرمسيس الثانى أورمسيس الأكبر ..

وقد أطلق اسم رمسيس على كثير من ملوك الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين .. وكان أول فرعون تسمى باسم رمسيس ضابطاً مصرياً في جيش « حورمحب » الذى انتهى على يديه تاريخ الأسرة الثامنة عشرة ، بعد أن مات دون أن يخلف للعرش ورثاً ، فتقلد هذا الضابط القائد مقاليد الحكم باسم « رمسيس الأول » مؤسساً بذلك أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة التاسعة عشرة ، وكان ذلك في سنة ١٣٢٠ ق م .

ومنذ هذا التاريخ ، تكرر إطلاق اسم رمسيس على بعض ملوك هذه الأسرة وملوك الأسرة التى تلتها في حكم مصر ، الأمر الذى تحددت فيه معالم وملامح عصر بأكمله قائم بذاته في التاريخ المصرى القديم ، وهو « عصر الرعامسة » الذى بدأ برمسيس الأول وانتهى بنهاية « رمسيس الحادى عشر » ونهاية الأسرة العشرين نفسها في سنة ١٠٨٥ ق م .

ولعل من الضرورى أن نعرف أن الاسم الأصلى لرمسيس الثانى أورمسيس الأكبر هو [ وسر ماعت رع ستبن رع ] ومعناه الحرفى [ رع قوى العدالة ومختار رع ] .. أما اسمه الملكى بعد التتويج فهو « رمسيس الثانى » .. ويكتب اسم رمسيس عادة بعد حذف حرف العين لتسهيل الكتابة والنطق ، وليصبح كما درجنا عليه .. رمسيس بدلاً من رمسيس ..

## ● مقارنة بين .. أشهر فرعونين !

بالرغم من أن الفترة التى تفصل بين حكم توت عنخ آمون وحكم رمسيس الثانى لاتجاوز ثمانية وأربعين عاماً ، إلا أن الفارق الحقيقى بين هذين الفرعونين جد عظيم ،

برغم ما تجمّع لكل منها منفرداً من أسباب الشهرة والصيت ما يغطى عالم اليوم ركنا  
ركنا ..

مات توت عنخ آمون صبياً غضاً لا يتجاوز عمره تسعة عشر عاماً ، ومات رمسيس  
الأكبر بعد حياة حافلة قاربت قرناً بأكمله .. على وجه التحديد سبعة وتسعين عاماً .. !

مات توت عنخ آمون دون أن ينجب ابنه واحداً يخلفه على العرش ، بينما بلغ عدد أبناء  
رمسيس الأكبر « ١١١ » ولداً بالإضافة إلى « ٦٧ » بنتاً .. !

وكان توت عنخ آمون سعيد الحظ حين لم يمس السوء مقبرته حتى اكتشفها كارتر  
عام ١٩٢٢ ، وشاهد العالم منذئذ أعظم كنز عثر عليه الإنسان في تاريخ البشرية ..  
أما رمسيس الأكبر فقد نهب مقبرته الضخمة بما فيها من كنوز من المؤكد أنها كانت تفوق  
كنوز توت عنخ آمون مئات المرات .. وهى الآن مقبرة خاوية تماماً وخالية من أية نقوش  
تمائل النقوش الرائعة التى تزين جدران مقبرة توت عنخ آمون .

ولكن بالرغم من حسن حظ توت عنخ آمون فى صون مقبرته ، فقد وجدت موميأوه  
فقيرة التحنيط إذا قورنت بمومياء رمسيس التى وجدت سليمة تماماً ومحنطة بأعلى  
مستويات فن التحنيط عند قدماء المصريين ، وذلك بالرغم مما تعرضت له هذه المومياء  
بعد الدفن ، حيث نقلت أولاً من المقبرة الأصلية بعد نهبها ، ثم أعيد دفنها عدة مرات فى  
مقابر مختلفة إلى أن تم دفنها أخيراً فى المقبرة الملكية الجماعية التى عثر عليها خلف معبد  
الدير البحرى ، والتى أعدت كخبيثة لمومياءات أغلب الفراعنة الذين كانوا مدفونين بمقابر  
وأدى الملوك ، والذين تعرضت قبورهم للسطو والنهب فى هذا التاريخ القديم ..

وأخيراً فإن توت عنخ آمون نظراً لقصر فترة حكمه ، والظروف المرتبكة التى كانت تمر  
بها البلاد فى أيامه ، فلم يكن لديه وقت كاف يمكنه من أن يترك أثراً باقياً غير مقبرته ،  
وبعض الآثار القليلة جداً فى منطقة الأقصر .. أما رمسيس الأكبر فقد اعتبر سيد البنائين  
فى العالم القديم كله ، إذ ترك آثاراً قليلة ما زال باقياً حتى اليوم . ورغم ذلك فإن هذا  
القليل موجود فى الأغلبية العظمى من المناطق الأثرية المصرية فى طول البلاد وعرضها ..  
أما العدد الحقيقي للآثار التى شيدها هذا الفرعون العظيم ، فيتجاوز الآثار الموجودة  
عشرات المرات على وجه اليقين ، ولكنه إما قد زال بفعل عاديات الزمن وعاديات البشر ،  
وأما ما زال خبيثاً تحت الثرى ، لم تدركه بعد يد إنسان تمتد فى يوم ما ، لترفع الحجاب عن  
المزيد من تاريخ هذا الفرعون العظيم ..

## ● أسلافه المباشرين .. وانتقال السلطة .

بعد موت توت عنخ آمون دون أن يخلفه وريث يجلس على عرش البلاد ، تولى الملك « آى » كبير كهنة آمون الذى استمر فى الحكم نحو أربعة أعوام توفى بعدها ، فانتقلت السلطة إلى قائد الجيوش المصرية « حورمحب » الذى تزوج من الأميرة « موت نچمت » أخت الملكة الجميلة « نفرتيتى » زوجة اخناتون ، وذلك ليكتسب جلوسه على عرش البلاد صفة الشرعية .

وكان حورمحب بطبيعته رجلاً قويا ، بذل جهوداً جبارة فى محو آثار الأفكار التى اعتبرت فى ذاك الوقت أفكاراً هدامة ، والتى نادى بها « اخناتون » أول الموحدين الذين دعوا إلى عبادة إله واحد ولا إله إلا هو.. كما قام بتحطيم الغالبية العظمى من الآثار والإنشاءات التى تركها اخناتون ، كما دمر مدينة « آخت آتون » التى بناها اخناتون لتكون عاصمة للبلاد بدلاً من طيبة ، وعاصمة لديانة التوحيد الجديدة التى نادى بها وأرغم الجميع على اعتناقها ..

واستمر حكم « حورمحب » نحو ثمانية وعشرين عاماً ، وخلفه على عرش مصر وزيره « بارعمس » الذى تولى الملك باسم رمسيس الأول ..

ولم يكن رمسيس الأول سليل فراعنة ولا يجرى فى عروقه دم ملكى ، ولذلك فلم يكن هناك مناص من وجوب تأسيس أسرة حاكمة جديدة منبثة الصلة بالأسرة التى سبقتها .. ولكن رمسيس الأول حين تولى العرش كان طاعناً فى السن ، ولم يستمر حكمه سوى فترة قصيرة تقل عن سنتين ، فورث الحكم من بعده ابنه « سيتى الأول » والد رمسيس الأكبر ..

وبالرغم من أن حكم سيتى الأول لم يدم سوى نيف وخمسة عشر عاماً ، إلا أنه تمكن فى خلال هذه الأعوام من تأمين البلاد طويلاً وعرضاً ، وخلصها إلى حد كبير من أصحاب المذهب الاخناتونى الداعين إلى عبادة إله واحد ، وأعاد بالتالى نفوذ كهنة الآلهة الآخرين ، فتعددت بذلك الآلهة فى عهده ، تماماً مثلما كان الحال قبل اخناتون . وهذا ما يفسر لنا قيام سيتى الأول بتعمير المعابد التى كانت قد خربت أو هجرت ، وإعادة بناء ما تهدم منها ، بالإضافة إلى إنشاء معابد جديدة تتميز بالضخامة ، وفخامة ما بها من نقوش مرسومة وتماثيل منحوتة ، كما تميزت بروعة الفن المعمارى الذى عرفت به الأسرة التاسعة عشرة بأسرها .

و يكفى سيتى الأول فخراً ، ذلك المعبد الضخم الذى بناه فى « أيدوس » لعبادة الشالوث المقدس المكون من الآلهة أوزيريس وزوجته إيزيس وابنها حورس .. وهى الديانة التى تركت بصماتها على الفكر الدينى فى مصر القديمة طوال تاريخها ، بل والتى أثرت أيضاً فى الفكر الدينى خارج مصر فى مختلف أنحاء العالم القديم الذى كان معروفاً أيامئذ ..

وبالإضافة إلى هذه النهضة المعمارية التى نشرها سيتى الأول فى مختلف أنحاء الديار المصرية ، فقد قام هذا الملك بغزوات وحملات تأديبية كثيرة ، أخذ بها القلاقل والثورات التى ظهرت فى بعض جهات الامبراطورية المصرية نتيجة لتراخى اخناتون وسياسته وتفرغه الكامل للدعوة لديانة التوحيد التى ارتآها .. فقام سيتى الأول بغزو جميع المناطق الشمالية من الامبراطورية المصرية ، وهزم المنشقين على الامبراطورية من حثيين وسوريين وليبيين .. !

ودفن سيتى الأول فى المقبرة الفخمة المعروفة باسمه فى وادى الملوك ، والتى تعتبر أكبر وأعظم مقبرة فى الوادى كله ، بما فيها من كنوز فنية رائعة خلدها جدران المقبرة المحفورة بعمق يزيد على مئة متر فى قلب الصخر ، والمزينة بنقوش وكتابات تتناول الحياة فى العالم الأول والعالم الآخر ، وتكاد من فرط بهائها وروعها ودقة ألوانها ، تؤكد أن الفنان الذى أبدعها قد انتهى منها منذ ساعات قليلة ، بصرف النظر عن آلاف السنين التى مرت ...

## ● كيف أصبح ملكا .. ؟ !

هناك غموض يحيط بكيفية انتقال السلطة إلى رمسيس الثانى ووراثته لعرش أبيه .. فقد ثبت أن رمسيس لم يكن الابن البكر لسيتى الأول ، وإنما كان له أخ أكبر منه سناً .. وكان من المفروض أن يرث هذا الأخ الأكبر العرش دون أخيه الأصغر .. ويزداد هذا الأمر غموضاً حين تثبت الوثائق الملكية لهذه الأسرة ، أن رمسيس كان مفضلاً بشكل قاطع لدى والده سيتى ، لدرجة أنه ببلوغ رمسيس سن العاشرة ، وهى سن تعتبر مبكرة جداً ، عينه والده ضابطاً بالجيش المصرى ، ومنحه « حريمه » الخاص .. !

وتثبتت الوثائق أيضاً — خصوصاً النصوص المحفورة على جدران معبد أيدوس الذى أنشأه الأب وأكملها الابن ووسعه — أن سيتى قد أمر بتتويج ابنه عندما بلغ الصبا ، وأشركه معه فى حكم البلاد .. وتقول الوثائق على لسان رمسيس : [ إن إله العالم نفسه قد

عظمتى وباركنى منذ أن كنت طفلاً إلى أن وليت الحكم .. لقد أعطانى الحق فى حكم الأرض حين كنت لم أزل فى البيضة (أى حين كنت جنينا) .. لقد اختارنى لوراثة الأرضين (الوجهين القبلى والبحرى) وأمر بتعيينى قائداً على قوات المشاة وقوات الفرسان .. ولقد أمر والدى بتتويجى أثناء حياته حتى يشركنى معه فى الحكم .. وقال عنى «توجوه كما لو كان ملكا .. وضعوا على رأسه التاج الأكبر .. أريد أن أشاهد جماله وهاءه وأنا حى» [! ..].

كذلك تدل الشواهد بصفة قاطعة على أن رمسيس قد أشرف على العديد من الأعمال الإنشائية الضخمة التى بدأها والده فى جنوب البلاد وشمالها ، كما تولى قيادة الجيوش المصرية فى بعض الحملات التى أرسلها والده لتأمين حدود البلاد بما فيها البلاد التابعة لها فى المناطق الشمالية والغربية والجنوبية .

وقد تفرس رمسيس بشئون الحكم واكتسب خبرات سياسية وعسكرية ومعمارية رائعة ، أهله لأن يتبوأ المكانة العظمى التى عرف بها كحاكم عظيم شجاع فى تاريخ العالم القديم بأسره .. بل والتى ذاع صيته بها سواء فى عالم اليوم أو عالم المستقبل .. وقد انفرد رمسيس الثانى وحده بعرش البلاد ، فور موت والده سيتى الأول .. وكان ذلك فى عام ١٢٩٠ ق.م .

## ● فى السنوات الأولى من حكمه ..

كانت «النوبة» أولى البلاد التى زارها رمسيس بعد انفراده بالحكم مباشرة .. ولم يكن ذلك عفواً خاطراً ، وإنما كان طبقاً لخطة وضعها الملك الجديد لتأمين حدود البلاد وإعادة إخضاع المناطق التابعة لها ، والقضاء على أية قلاقل أو اضطرابات فى نظام الحكم الذى نظمته مصر فى تلك المناطق .. ومن أجل ذلك كانت أولى الحملات العسكرية لرمسيس موجهة نحو النوبة لإقرار النظام هناك ولتأمين حدوده الجنوبية .

ومن المحتمل جداً ، أنه حين كان يقود حملته فى المناطق النوبية فيما بين الجندين الأول والثانى جنوبى أسوان .. وقف فى منطقة رائعة عند منعنى واسع لنهر النيل ، يضم بين ذراعيه ربوة صخرية عالية ترتفع نحو مائة متر ، وهى بذلك تعتبر فى حد ذاتها ظاهرة نادرة وسط هذه الصحراء المترامية المستوية ، وهى الصفة التى تتميز بها الصحراء النوبية التى يجتازها النيل قبل أن يسمح على وجه مصر القبلى فى طريقه إلى الدلتا .. فى تلك المنطقة





والده العظيم سيتى الأول [ فى المقدمة ] وخلفه مباشرة أحد أبنائه من إخوة رمسيس ، بينما يظهر رمسيس نفسه وهو يخطو خطوة واسعة ، ويمسك بحبل يجرب به إحدى السفن المقدسة .

وقف رمسيس الأكبر، ونظر إلى تلك الربوة العالية وقال : هنا .. لابد أن ابني معبداً ضخماً ليصبح أروغ المعابد وليخلد اسمي على مدى الزمن .. !

هكذا وعلى الفور، شرع رمسيس في بناء معبد « أبوسمبل » .. ليؤكد سلطان مصر على تلك المناطق .. وليقف شامخاً في مواجهة أى أعداء قد يأتون من الجنوب .. ودليلاً على قوة وبأس الدولة المصرية التي قد يفكر هؤلاء الأعداء في الإغارة عليها ..

وفي السنة الثانية من حكمه توجه إلى أقصى شمال البلاد بمناطق الدلتا .. وطارد « شعوب البحر » حتى قضى عليهم تماماً .. وشعوب البحر هؤلاء هم من يطلق عليهم اسم « شردانا » بالهيروجليفيه ، ويقال إنهم جاءوا من جزيرة سردينيا ، وتسلكوا إلى المناطق الشمالية لدلتا النيل، وحاولوا الاستقرار هناك ..

وفي السنة الثالثة أكمل بناء مقصورته وأعمدته الرائعة بمعبد الأقصر .. وفي نفس السنة أيضاً ، قام بحملته العسكرية المظفرة إلى فلسطين وفينيقيا .. وهى بلاد كانت خاضعة للإدارة المصرية منذ مئات خلت من السنين .. وبذلك استطاع رمسيس أن يؤمن الحدود الشمالية للامبراطورية المصرية حتى حدود بلاد « الحيشين » شمال سوريا وقرب تركيا ..

كبان « الحيشيون » في ذلك الوقت هم القوة الوحيدة التى تسبب المتاعب لمصر، فقد كانوا دولة وليدة مازالت في عنفوانها وتشعر بمدى قوتها ، ولذلك فقد جرؤوا على عقد تحالفات مع بعض حكام الأقاليم التابعة للنفوذ المصرى لإثارة المتاعب ضد مصر، ولضم هذه الأقاليم إلى الدولة الحيشية بعد إخراج النفوذ المصرى منها .

وتدل الشواهد التاريخية على أن « سبتى الأول » — والد رمسيس — قد حارب الحيشيين وحلفاءهم في عقردارهم ، وانتصر عليهم تماماً وألحق بهم هزائم منكرة سجلتها الوثائق وجدران المعابد .. إلا أن الحيشيين عاودوا الكرة مرة أخرى في أوائل حكم رمسيس ، على ظن منهم بأن الأمور ربما تغيرت بعد حكم سبتى ، فأخذوا يعدون قواتهم مرة أخرى ، كما عاودوا الاتصال والتحالف مع بعض حكام الأقاليم التابعة للنفوذ المصرى ، لتأليبهم ودفعهم إلى عصيان الحاكم المصرى الجديد .. وقد وصل الأمر إلى أن عرف رمسيس — من خلال مخبراته الحربية — أن « مواتاليش » ملك الحيشيين يعد جيشاً جراًراً للهجوم على مصر .. !

وعلى هذا ، أمر رمسيس بتجهيز الجيوش المصرية وإعدادها للحرب .. فانتظم له على الفور أربعة جيوش أطلق على كل منها اسم إله .. جيش آمون ، وجيش رع ، وجيش بتاح ، وجيش ست .. وتعدادهم جميعاً نحو (١٨) ألف محارب ، منهم (٨) آلاف من حملة الرماح والسهام ، و (٥٠٠) عربية حربية تسع كل منها اثنين من المحاربين ، بالإضافة إلى حوالي (٩) آلاف من المشاة وغيرهم ..

وعلى رأس هذه الجيوش خرج رمسيس من مصر في بداية فصل الربيع مجتازاً حدودها الشمالية ، وغترقاً كل المناطق الخاضعة للنفوذ المصري .. وبعد نحو شهر من التحرك والتقدم شمالاً ، وصل إلى مكان يبعد نحو خمسة عشر ميلاً من مدينة « قادش » .. وهى مدينة قوية ومحصنة جيداً ، تقع جنوبى مدينة « حصص » الحالية ، وتمتد خلال زاوية بين نهر العاصى وأحد روافده .. وهى بهذا الموقع الاستراتيجى المحصن تتحكم فى الطريق الرئيسى لأية جيوش عابرة سواء نحو الشمال أو نحو الجنوب .. وهناك أمر رمسيس جيوشه بأن تعسكر استعداداً للمعركة القادمة ..

### ● موقعة قادش ...

كان سيئى الأول قد أعاد فتح مدينة « قادش » واحتلها بعد طرد الحيثيين منها ، إلا أن الحيثيين قد عادوا إلى احتلال المدينة ، الأمر الذى دعا رمسيس إلى وضع خطة لاعادتها مرة أخرى تحت السيادة المصرية .

وبالرغم من أن رمسيس لم يوفق فى تحقيق هذا الغرض ، إلا أن موقعة قادش كانت القاسم المشترك الأعظم فى النقوش التى دونها على معابده فى الأقصر والكرك والرمسيوم والعرابة المدفونة وأبوسمبل .. كما كتبت أحداث الموقعة فى برديات متفرقة تسجل تقريراً تفصيلياً شاملاً لأحداث الموقعة والمراحل التى مرت بها والنتائج التى انتهت إليها .. وجميع هذه الوثائق لاتدل على أن الجيش المصرى قد حقق نصراً حاسماً فى تلك الموقعة ، وإنما تدور كلها حول الشجاعة الفائقة التى أبدتها رمسيس فى تلك المعركة ، والتى قد تصعب على التصديق لشدة المغالاة فى وصفها .

ويمكن تلخيص وقائع تلك المعركة فيما يلى ، وذلك استناداً إلى النصوص المدونة فى البرديات والمنقوشة على جدران المعابد :

١ — إن الجيوش المصرية كانت مكونة من أربعة فيالق على النحو الذى أوضحناه آنفا .. وكانت مواقعها تبعد عن قادش بنحو (١٥) ميلاً .

٢ — كانت جيوش الحيثيين وحلفائهم تختفى خلف شمال شرقى قادش ، وكانت تتكون من نحو (٢٠) ألف مقاتل ، ومجهزة بحوالى (٢٥٠٠) عربة حربية تسع كل منها ثلاثة محاربين .. وهو عدد يفوق القوات المصرية من مشاة وفرسان ..

٣ — إن بعض الخونة من جواسيس البدو لجأوا إلى معسكر رمسيس وأفهموه أن جيش عدوه من الحيثيين يعسكر قرب « حلب » فى مكان بعيد جداً عن موقع قادش .. وقد انطلت خدعة هؤلاء البدو العملاء للحيثيين على رمسيس للأسف ، ومع ذلك فقد دونها بكل صدق معترفاً بالخطأ الذى وقع فيه ..

٤ — إن رمسيس قد ابتعد معه بعض حرسه الخاص عن جيوشه الأربعة ، وتقدم وحده نحو قادش لاستطلاع الأمر ، وللاستعداد لغزو المدينة بعد تجميع جيوشه طبقاً لخطة الهجوم المقررة سلفاً ، وعسكر رمسيس وحرسه على مرتفع قريب يشرف على المدينة ..

٥ — حين كان رمسيس يتناول عشاءه ، أبلغه الحرس بأنهم قد أسروا اثنين من جواسيس الحيثيين ، وأن الجاسوسين قد اعترفا بعد عقابها بشدة بأن جيش الحيثيين وحلفائهم بقيادة « مواتاليش » يختبئ خلف مدينة قادش نفسها ، وأن الجيش معد تماماً للهجوم الفورى على الجيوش المصرية .. وكان لهذا الخبر وقع الصاعقة على رمسيس ، إذ لم يكن لديه أى وقت كاف لإخطار جيوشه وتجميعها ، أو حتى لإرسال الرسل لتحذيرها من مغبة هجوم الحيثيين المتوقع بين لحظة وأخرى .

٦ — وبالفعل تسلل الحيثيون عند الفجر ، وعبروا نهر العاصى من ناحية جنوب المدينة ، واجتاحوا فيلق رعى ثم فيلق آمون من بعده .. وقد لاذ الفيلقان بالفرار بعد أن أخذوا على غرة .. بينما كان الفيلقان الآخران « بتاح وست » مازالا يتقدمان ببطء نحو قادش دون أن يعرفا ما لحق بالفيلقين رعى وآمون .

٧ — انصرف جيش الحيثيين تماماً إلى عملية الاستيلاء على معسكر الجيش المصرى ونهب كل ما فيه .. ويقول بعض المؤرخين العسكريين عن تلك اللحظة ، أنه بكل المعايير العسكرية اعتبر الجيش المصرى بقيادة رمسيس مهزوماً هزيمة منكرة لولا الشجاعة الفائقة التى أبداهها رمسيس حفاظاً على سمعته ومكانته القيادية .. فقد وجد القائد نفسه وحيداً منفرداً أمام جيش الحيثيين من مشاة وفرسان وراكبي العربات الحربية .. وفى مثل هذه



موقع معركة قادش .. كما يبدو الآن على ضفة نهر العاصي بسوريا .



لوحة رمزية تمثل رمسيس الثاني وهو يؤدب اعداء مصر من  
الآسيويين والنوبيين والليبيين .

اللحظات الخطيرة تظهر معادن الرجال ، ومدى قدراتهم على استيعاب الصدمة وإصرارهم على تجاهل اليأس ..

٨ — صلى رمسيس مناشداً إلهه آمون لكى يتدخل ويمنحه العون ليجتاز الأزمة .. وتدل نصوص هذه الصلاة أن الملك كان يخاطب الإله بقوة ، و يكاد يعاتبه على تخليه عنه في تلك المعركة .. ثم أمر رمسيس قائد عربته الحربية وحامل درعه وكان يسمى « مننا » بأن يستعد لاقتحام جيش العدو ..

( سأدخل بجلالتي على جيش المخنثين هذا .. وسوف أشبعهم قتلاً وذبحاً .. وسوف أطرحهم أرضاً .. وأدخل في قلوبهم الرعب فرداً فرداً .. )

وانخلع قلب « مننا » هلعاً .. فكيف يتأتى لفرد واحد أن يحارب جيشاً بأكمله .. وتقول النصوص المدونة أن « مننا » حامل الدرع قال للملكه :

( ياسيدى الطيب ويا أشجع الحكام .. يا حامى مصروقت الحرب وعند كل شدة .. أنظر .. إننا نقف وحدنا بعد أن انصرف عنك قوادك وفرسانك ومشاتك .. فدعنا ننجو ونخرج سالمين وننقذ أنفسنا ... فقال جلالته لحامل درعه : قف منتبهاً وثبت قلبك يا سائق عربتى .. سأنقض الآن عليهم كما ينقض الصقر وأشبعهم ذبحاً ... )

٩ — وتصف النصوص المدونة ذلك الإقدام المعجز لفرد واحد ضد جيش بأكمله فتقول : ( وكان جلالته وقتئذ شجاع القلب .. وسقط أمامه كل أجنبى .. وكان وجهه جذوة نار خارقة باللهيب المستعر .. فسقط الأعداء على وجوههم الواحد فوق الآخر .. )

وقد كثر رمسيس على جيش الحيثيين على هذا النحوست كرات .. وقد فرأمامه جيش العدو فعلاً حيث أصابه الرعب من الشجاعة الخارقة التى كان يهجم بها هذا القائد الفرد الذى يحارب وحده ، لدرجة أن العدو كان يجرى وهو على يقين أنه فى مواجهة شىء خارق لا مثيل له أبداً ..

١٠ — وفى الكرة السادسة .. وصلت طلائع من الجيش المصرى ، وانتظمت فى ميدان المعركة بعد أن شاهدت بنفسها جرأة قائدهم الجبار الذى حارب وحده جيشاً بأكمله .. وعندئذ اعتدل ميزان الحرب لصالح المصريين ، فشدوا هجوماً انتقامياً ضد جيش الحيثيين



تمثال نادر لرمسيس الأكبر.. منحوت من حجر البازلت الصلد، ويمثله جالساً،  
ممسكاً بيده صولجان الملك رمز السلطة والقوة، وعلى رأسه تاج الحرب .

وحلفائهم ، لاذوا على أثره بالفرار بعد أن وقعت في جانبهم خسائر فادحة ، وقتل منهم آلاف من الجنود والضباط ، بل وبعض أعضاء من أسرة « مواتاليش » ملك الحيثيين .. أما من استطاع الفرار من هيب تلك الهجمة المصرية ، فقد لاذ بالفرار نحو مدينة قادش ليتحصن بها ..

وهكذا انتهت تلك الموقعة دون أن يخرج أى من الطرفين بنصر حاسم .. وعاد رمسيس إلى مصر بسرعة ليدون تقريراً رسمياً عن أحداث الموقعة بتفاصيل شاملة ودقيقة جداً .. وكذلك لكى يحاسب قاداته ويجرى التحقيقات عن كل الأسباب والدوافع التى كانت وراء النتائج التى أسفرت عنها المعركة .

## ● معاهدة السلام والدفاع المشترك

بعد انتهاء موقعة قادش على النحو الذى ذكرناه ، تجرأ الحيثيون كثيراً وأخذوا يثيرون الفتن فى كافة المناطق التابعة للنفوذ المصرى ، الأمر الذى دعا رمسيس إلى إعادة فتح كل أملاك مصر فى المناطق الآسيوية من جديد ، لينهى كل فتنة وليخمد كل ثورة إلى أن عاد الهدوء تماماً إلى بلاد النهرين وسوريا ولبنان وفلسطين .. ومع ذلك فقد استمرت الحروب بين رمسيس وأعدائه الحيثيين حتى حارهم فى عقر دارهم ، وذلك على مدى استمر نحو ( ١٦ ) عاماً بعد موقعة قادش .

وقد أنهكت تلك الحروب الدولة الحيثية ، خصوصاً وأنها كانت تحارب فى جهات أخرى غير الجهة التابعة للنفوذ المصرى . لذلك فقد كان من مصلحة ملك الحيثيين أن يرسل إلى رمسيس الأكبر من يرجوه فى طلب الصلح ..

كان ملك الحيثيين فى ذلك الوقت هو « خاتوسيل » الذى تولى الملك بعد « مواتاليش » الذى مات أو اغتيل كما تقول بعض الروايات .. وقد أرسل إلى مصر بعضاً من الأمراء ورجال البلاط وضباط الجيش ليكونوا رسله فى التفاوض مع الجانب المصرى حول شروط الصلح وتدوينها فى معاهدة رسمية .

وقد تم تدوين هذه المعاهدة فى لوحات فضية وبرديات ، كما نقشت نصوصها على جدران المعابد ، كما دونت نسخ منها باللغة البابلية ، وهى اللغة التى فصلتها الدولة الحيثية لتكون لغة أجنبية . وقد تم العثور على هذه النسخ البابلية فى أطلال مدينة « بوغاز كوى » التى كانت عاصمة الحيثيين فى ذلك العهد .



إن الإنسان ليقف مذهولاً أمام الدقة المتناهية التي صيغت بها بنود المعاهدة ، واللغة الدبلوماسية الرفيعة التي عبرت عن الشروط ، والتنظيم المحكم من ناحية الشكل والمضمون .

هناك مقدمة ودياجة لافتتاح نص المعاهدة مع الإشارة إلى معاهدات سابقة أبرمت بين الدولتين في سنوات سابقة لحكم رمسيس الأكبر وحكم خاتوسيل .. كما ذكرت البيانات الخاصة بالطرفين ( فرعون مصر وملك الحيثيين ) من حيث المكانة والنسب والألقاب .. ثم تأتي بعد ذلك بنود المعاهدة تحت أرقام سلسلة .. وهذا الشكل الذي أفرغت فيه هذه المعاهدة الدولية المبرمة منذ حوالي ٣٢٠٠ سنة ، لا يختلف كثيراً عن شكل المعاهدات الدولية في عالم اليوم .. !

وتتضمن المعاهدة بنوداً وشروطاً لإقرار السلام بين الدولتين ، وإقرار مبدأ الدفاع المشترك بين كل من الدولتين في حالة وقوع اعتداء على أيٍّ منها ( وعلى حسب رغبة فرعون مصر في هذا الشأن ) .. كما تضمنت المعاهدة أيضاً بنوداً خاصة بالإجراءات الواجب اتخاذها ضد الرعايا الشائرين ودعاة الفتن والقتل والقتل ، وقواعد تسليم المذنبين والمجرمين ، وقواعد العفو عن بعض المذنبين الهاربين .. الخ .

وتدل جميع الشواهد على أن رمسيس الأكبر كان يعد هذه المعاهدة بمثابة نصر مؤزر لمصر ، ولذلك فقد كان يشير في مدوناته على جدران المعابد أنه قاهر بلاد « خيتا » — أي بلاد الحيثيين .

## ● زفاف في الستين .. !

بكل المعايير السياسية والعسكرية ، كانت نظرة رمسيس الأكبر إلى تلك المعاهدة نظرة صائبة ، وتدل على سعة أفق وحس سياسى استراتيجى على أعلى مستوى .

إن دولة الحيثيين القوية التسليح ، وذات الجيش المنظم القوى قد أصبحت برمتها — طبقاً لتلك المعاهدة — حائزاً منيعاً في مواجهة الدول الحديثة الأخرى التي نشأت في الشمال .. [ في المناطق الجنوبية الشرقية من أوروبا ومناطق غرب آسيا ] . وامتنع بذلك على تلك الدول أن تفكر في التوسع جنوباً تجاه الحدود المصرية أو حدود المناطق التابعة للنفوذ المصرى .

وبعد نحو (١٣) سنة من توقيع المعاهدة ، وعبر صداقة وطيدة أوضحتها النصوص التي دونها رمسيس على جدران معابده ، حيث كان يشير باستمرار إلى الهدايا القيمة التي يرسلها إليه ملك الحيثيين بين حين وآخر وفي مناسبة أو حتى بدون أية مناسبة .. حضر « خاتوسيل » ملك الحيثيين بنفسه ومعه ابنته الكبرى وفد كبير من الأمراء ورجال البلاط وقادة الجيش لزيارة مصر ومقابلة رمسيس الأكبر ، ليقدّم إليه الأميرة الجميلة زوجة ضمن زوجاته ..

وتقول النصوص أنه عندما وصل هذا الوفد الكبير إلى البلاد السورية ، أرسل الحاكم المصري المفوض في حكم تلك البلاد إلى سيده الأكبر كتاباً يقول فيه : [ إن ملك خيتا قد وصل إلى حدود جلالتك ومعه الأميرة ابنته الكبرى ، وعدد من الهدايا من كل نوع ، لقد وصلنا إلى هنا بعد أن قطعنا الجبال العديدة ، وقاسيا رحلة شاقة من بلاد نائية .. ونحن في انتظار تعليمات جلالتك ]

وعلى الفور أرسل رمسيس بعضاً من كبار رجال الدولة ومعهم جيش يليق باستقبال الملك والأميرة .. وفي حفل مهيب أقيم لتكريم الضيوف دخل الوفد الكبير وعلى رأسه ملك الحيثيين وابنته الأميرة وسط الجنود والفرسان المصريين والحيثيين الذين اصطحبوا الموكب حتى وصلوا إلى مقر الفرعون العظيم .. وتم زفاف الأميرة إليه في نفس اليوم .. وكان عمره آنئذ نحو ستين عاماً .

وقد أعطى رمسيس لتلك الأميرة قدرها الحق ، فقد منحها لقباً ملكياً « مات نفرو رع » — أى التى ترى جمال رع ، واعتبرها زوجة ملكية ، ولم يضمها إلى محظياته وكان عددهن بالمئات ، وإنما أصبحت ملكة كاملة الحقوق ، مثل باقى زوجاته الملكات وعلى رأسهن الملكة « نفرتارى » كبيرة الزوجات والمفضلة فوق الجميع .

وقد حرص رمسيس على تسجيل وتدوين جميع التفاصيل الدقيقة التى صاحبت هذا الزواج ، وكتب قصته على لوحات بجدران معابد أبوسمبل والكرنك والفنتين .. وصف فيها [ رحلة ملك الحيثيين ومعه كبرى بناته مع الجزية الثمينة من الذهب ، وفضة وطرائف عدة ، وخيول يخطئها العد وثيران وغنم بعشرات الألوف وكل محاصيل بلادهم قاطبة .. الخ ] .

ويبدو أن وقائع الاحتفالات الملكية بهذا الزواج كانت مبهرة للشعب المصرى الذى ظل يتداولها في « الحواديت » الشعبية التى ظلت تروىها الأجيال المتعاقبة عبر آلاف السنين .. !

## ● سيد البنائين ..

لا جدال في أن رمسيس يعتبر أعظم ملك مصرى أقام العديد من المباني الضخمة والرائعة في طول البلاد وعرضها .. فما من مجموعة أثرية من الجندل الثاني جنوباً حتى الدلتا ومصب النيل شمالاً إلا وتحمل اسم رمسيس الثاني أو تشير إلى ما صنعت يده . هذا بطبيعة الحال بالإضافة إلى آثاره التي تركها في البلاد الآسيوية . وقد يكون من العبث أن يحدّد المرء الأعمال والمباني التي أمر الملك بتشيدّها من معابد وتمائيل ومسلات ولوحات تذكارية ، إلا أنه من الممكن أن نستعرض أهم تلك المباني والآثار التي تم اكتشافها حتى الآن ..

في بلاد النوبة انتهج رمسيس نهجاً موحداً في بناء المعابد ، فبدلاً من الاعتماد في البناء والتشييد على الأحجار المقطوعة والمجهزة سلفاً ، قرر رمسيس نحت جميع هذه الآثار في الصخر نفسه .. ونلاحظ أن هذه الطريقة ليست من وحى رمسيس أو ابتداعه ، وإنما كانت طريقة متبعة منذ أيام الدولة القديمة وعصر بناء الأهرام ، بل وهناك آثار نحتت بهذه الطريقة في عصر الأسرة الأولى ، أى قبل أيام رمسيس بنحو ألفى عام .. !

ومن أهم المباني والآثار التي تركها رمسيس في بلاد النوبة « معبد بيت الوالى » وحجراته وردهاته منحوتة في الصخر في حفن واد جانبي ، وقد استعمل هذا المعبد ككنيسة في بداية العصر المسيحي .. و « معبد جرف حسين » واسمه الحقيقي برياح — أى بيت الإله بتاح — و « معبد السبوعة » واسمه الحقيقي برآمون — أى بيت الإله آمون — وقد تم بناء هذين المعبدين طبقاً لتصميم موحد وبطريقة واحدة هي النحت في الكتلة الصخرية التي ينبثق منها كل معبد .. و « معبد الدر » وهو منحوت في الصخر عند سفح تلال النوبة .. أما « معبد أبوسمبل » العظيم فسوف نفرد له عرضاً مفصلاً ، ونشير إليه هنا لمجرد ذكره ضمن الآثار التي خلفها رمسيس في بلاد النوبة . و « معبد حتحور » أو « معبد نفررتارى » الذى أقامه مجاوراً لمعبد أبوسمبل .. و « معبد محراب فرس » على الضفة الأخرى من نهر النيل ، وكذلك « معبد سرّة » المقام على الضفة اليمنى من نهر النيل على مسافة نحو ( ١٠ ) أميال شمال حلفا ، و « معبد نباتا » الذى وسعه رمسيس وأكمل مبانيه التي بدأ تشييدها في عهد توت عنخ آمون .

أما الآثار التي تركها رمسيس داخل القطر المصري فلا يمكن حصرها .. وإنما نشير هنا إلى بيان بأهمها لعلنا نتبين مدى الهمة والحرص الزائد من هذا الفرعون العظيم لكى يملأ بلاده كلها بآثار خلدها الزمن ..

معبد الكاب .. والتوسعات والإنشاءات الإضافية في معبد الأقصر ومعبد الكرنك ..  
ومقبرة رمسيس الثانى بواى الملوك .. ومعبد الرمسوم بالضفة الغربية للنيل غرب  
الأقصر .. ومعبد الإله تحوت في مدينة منف القديمة .. كما نشير إلى قيامه ببناء مدينة  
جديدة بأكملها هى مدينة بر رمسيس — أى بيت رمسيس — التى اتخذها عاصمة  
لامبراطوريته ، وتقع في شمال شرق الدلتا ..

وإلى جانب هذه المعابد ، هناك مئات من التماثيل والمسلات واللوحات التذكارية  
والآثار الأخرى الأقل ضخامة ، ولكنها كانت منتشرة في جميع أنحاء الامبراطورية المصرية  
على أيامه ..

في سرايت الخادم بسيناء .. وفي قنتير .. وفي الاسكندرية .. وفي تل أبوصيفه بجوار  
مدينة القنطرة .. وفي تل الفراعين .. وشديا .. وكوم الأبقعين .. وكوم الحصن ..  
ونبیشه .. وصفط الحنة .. وصان الحجر .. وهريبط .. وتل بسطة .. وتل الربع ..  
وبهيت الحجارة ، جنوبي مدينة المنصورة .. وتل طنبول بجوار السنبلاوين .. وتل مقدم  
ودنديت بجوار ميت غمر .. وبلجاي وتل أم حرب وتل مسطاي من أعمال زفتى ..  
والبرنوجي من أعمال دمنهور .. وكوم فرين المجاورة للدلنجات .. وكوم القلزم قرب  
السويس .. وتل المسخوطة .. وتل رطابه .. ومسطرد .. وبهيم .. ومنطقة هليوبوليس  
ومنشية الصدر .. وتل الحصن .. ومنطقة الجيزة .. وتل أتریب بجوار بنها .. وزاوية  
رازين .. وكوم أبوللو .. ومنطقة القاهرة .. وأهنا سيا المدينة .. وكوم العقارب القريب  
من أهناسيا .. وطلها الجبل من أعمال المنيا .. والأشمونين .. والشيخ عبادة .. والشيخ  
سعيد .. ومنطقة اسبوط .. والمطمر .. وطوخ نبت .. وقفط .. ونجع المدمود .. وأرمنت ..  
والكاب .. وجبل السلسلة .. ومنطقة أسوان وجزيرة الفنتين ...

## ● عمل يشبه المعجزات ..

هذه النهضة المعمارية التى شملت الديار المصرية بطولها وعرضها والتى امتدت أيضا  
إلى الأقاليم التابعة للنفوذ المصري في آسيا وأفريقيا ، تدل دلالة قاطعة على العبقرية الفذة  
التي كان يتمتع بها رمسيس الأكبر ، كما تدل على مدى القوة والجهروت والقدرة على  
السيطرة التي أتاحت له أن يقيم كل هذه الآثار ..

ولسنا أن نتصور مدى الجهد الهائل والتنظيم الإدارى المحكم الذى كان وراء كل هذه الإنشاءات ، ونتصور أيضاً أن هذه الأعمال الضخمة والعديدة ما كان من الممكن أن تقام أو توجد لولا جهود مئات الآلاف من أمهر المهندسين والحرفيين والبنائين وعمال المحاجر وعمال الشحن والتفريغ والبحارة وغيرهم ..

ويضرب المؤلف مثلاً على طريقة قدماء المصريين فى استخراج الكتل الحجرية الضخمة الهائلة من محاجر الجرانيت والديوريت والدوليرايت وغير ذلك من أصلد الأحجار وأصلبها وأقساها شدة .. فهناك فى أحد محاجر أسوان ترقد مسلة هائلة من حجر الدوليرايت الأخضر لم تنزل جزءاً لا يتجزأ من الصخرة الأم التى قادت منها ، أى أن المسلة نفسها قد جهزت من الأمام ومن الخلف ومن جوانبها الثلاثة وتحددت معالمها الأولية تماماً فيما عدا جانبها السفلى الذى لم يفصل من الصخرة الأم ، وقد توقف العمل فى استخراج تلك المسلة الهائلة من الصخرة الأم بعد اكتشاف عيب جوهري فى الصخرة نفسها ..

ولولا اكتشاف هذا العيب لكان العمل قد استمر فى تنفيذ المرحلة الأخيرة فى استخراج هذه الكتلة الهائلة وطولها نحو ( ١٣٨ ) قدماً — أى أكثر من أربعين متراً — وعرض كل ضلع من أضلاعها ( ١٤ ) قدماً ووزنها الكلى نحو ١١٦٨ طناً .. وكان ذلك سيتم بأن يحدد الخط المطلوب فصل الصخرة عنده ، ثم تحفر خلاله ثقوب متقاربة وعميقة فى قلب الصخر ، ثم تحشى هذه الثقوب بأسافين مناسبة من خشب الجميز المنقوع فى الماء ، وبعد مدة معينة يتمدد الخشب داخل الثقوب بضغط هائل يمكنه أن يفلق صخرة المسلة فى الحدود المطلوبة تماماً ويفصلها نهائياً عن الصخرة الأم ..

وتبدأ بعد ذلك عملية جبارة لإفساح وتمهيد طريق يمتد من هذا الموقع من الحجر حتى شاطئ نهر النيل .. وتسحب فيه مثل هذه الكتل الضخمة طبقاً لنظام هندسى للنقل مدروس تماماً من كل نواحيه العلمية والعملية .. وعندما تصل إلى شاطئ النيل يتم رفعها وشحنها فوق ظهر السفن الكبيرة التى كانت تقوم بالنقل النهري بين مواقع المحاجر ومواقع الإنشاءات فى مختلف أنحاء البلاد .. وتدلل شواهد الحال على أن مثل هذه السفن كانت تعد بالمئات .. وأن عمليات الشحن والتفريغ كانت متقنة ومنظمة إلى حد كبير ..

وبعد رحلة نهريّة قد تمتد من أقصى جنوب البلاد حتى أقصى مناطق الشمال حيث مواقع الإنشاءات ، يبدأ هنا العمل الجبار والجهد الهائل ، لتفريغ هذه الكتل الصخرية الضخمة ، ثم سحبها على طريق يمتد من شاطئ النهر حتى موقع الإنشاء ، وهذه فى حد

ذاتها عملية دقيقة تتوقف عليها سلامة وصول كتلة المسلة أو التمثال إلى النقطة المعينة لها طبقا للتصميم الهندسى الذى يجرى تنفيذه .

وتتجلى عبقرية المهندسين والبنائين المصريين فى الطريقة التى كانوا يتبعونها فى إقامة هذه المسلات أو التماثيل الضخمة من وضعها « الأفقى » الذى كانت عليه عند لحظة وصولها ، إلى الوضع « الرأسى » الذى ستبقى عليه خالدة مع الزمن .. ولم تعرف حتى الآن وعلى وجه اليقين أسرار الطريقة التى كان يتبعها هؤلاء المهندسون البناؤون لنصب هذه الكتل الهائلة من الصخر الصلد فى الوضع الرأسى .. وقد قيلت فى ذلك عدة نظريات هندسية .

وفى النهاية تم أعمال التشطيب والتلميع والإعداد النهائى لتلك المنشآت وتجهيزها للخلود .. وبمثل هذه الطريقة تم نقل أضخم تمثال فى العالم لرمسيس الأكبر .. وهو كتلة واحدة من الجرانيت الوردى ، من محاجر أسوان حتى أقيم بمعبد الرمسيم على الضفة الغربية للنيل أمام الأقصر .. وبالطريقة نفسها نقلت الأحجار والصخور التى استعملت فى بناء أهرامات الجيزة قبل عصر رمسيس بنحو ( ١٥ ) قرنا .. !!

## ● فى معبدى الأقصر والكرنك ..

قبل أن يولد رمسيس ، كان معبد الأقصر فى أوج نشاطه كمعبد مخصص للإله آمون ، وذلك منذ إنشائه فى عهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة .. لذلك فلم يستطع رمسيس أن يضيف أو يتوسع فى أبنية المعبد نفسها .. ولكن رغبة رمسيس فى إقامة الإنشاءات الضخمة ، تفتقت عن حيلة معمارية غيرت من معالم المعبد وتصميماته الهندسية .

أمام المعبد أقام رمسيس الأكبر قاعة للعمد العظيمة ، وأنشأ للمعبد بوابة ضخمة ذات برجين هائلين صور عليها جميع وقائع معركة قادش بتفاصيلها العسكرية الدقيقة .. وأمام تلك البوابة الرائعة أقام رمسيس لنفسه ستة من تماثيله الضخمة .. وحتى يكتمل هذا التكوين المعمارى الباذخ ، أقام رمسيس أمام التماثيل وبرجى البوابة مسلتين ضخمتين من حجر الجرانيت الوردى .. إحداها انتقلت إلى ميدان الكونكوردي بباريس ، والثانية مازالت فى مكانها حتى الآن !

أما معبد الكرنك ، فإن أهم جزء فيه هو قاعة الأعمدة العظمى التى اعتبرت إحدى عجائب الدنيا ..



مدخل بهو رمسيس الثاني بمعبد الأقصر

تتكون القاعة من (١٣٤) عاموداً ضخماً مقامة على مساحة نحو (٦٠٠٠) متر مربع ، وهى مساحة تبتلع مساحة كاتدرائية نوتردام بباريس بأكملها .. وتصطف الأعمدة الجبارة فى (١٦) صفاً ، وقطر كل عامود منها (١٢) قدماً .. أى نفس قطر عامود الفندوم بباريس أو عامود تراجان فى روما ..

وتتكاتف هذه الأعمدة كلها فى حمل السقف الحجرى الذى كان يغطى القاعة العظمى فيما مضى .. وما زالت بعض الأحجار الضخمة التى كان يتكون منها هذا السقف العظيم باقية فوق قم بعض الأعمدة تشهد على زميلاتها التى تهاوت إلى الأرض وتهشمت بفعل الزمن .. ويقدر طول كل كتلة حجرية من الكتل التى مازالت مرفوعة بين قم الأعمدة بنحو (٥٢) قدماً .

وتقف الأعمدة الضخمة شامخة فى قاعاتها .. وعليها نقوش غائرة مازالت بعض ألوانها الأصلية باقية ، تحكى أحداثاً من حياة رمسيس الأكبر وحياة والده سيتى الأول ، ومعاركها الحربية ، وانتصاراتها المجيدة فى آسيا وإفريقيا .. بالإضافة إلى مناظر العبادة والتقديس التى كان لابد من وجودها فى داخل هذا المعبد العظيم الذى كانت تحيطه القداسة من كل جانب وكل ركن فيه ..

ويقول المؤلف أن قاعة الأعمدة العظمى قد تم بناؤها على يد رمسيس الأكبر ، وذلك استناداً إلى الكتابات التى سجلها رمسيس بتلك القاعة ، والتى ادعى فيها أنها من إنشائه ونسبها إلى نفسه .. ولكن الرأى السائد الذى يقول به الكثير من المؤرخين ودارسى الآثار ، أن أول من بدأ البناء فى قاعة الأعمدة الكرنكية كان حورمحب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، ثم واصل البناء من بعده رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة ، ثم ابنه سيتى الأول من بعده .. وعندما جاء رمسيس كانت قاعة الأعمدة شبه كاملة ، وما كان عليه إلا أن يزيل الأتربة وينقش الأعمدة والجدران بنقوش وكتابات جديدة بعد أن أزال النقوش والكتابات السابقة .. !

وعلى أية حال فقد كان معبد الكرنك فى أيام رمسيس الأكبر درة بين معابد البلاد كلها .. ويكفى أن نشير إلى أملاك ومخصصات معبد الكرنك أيامئذ ، والتى كانت تتمثل فى (٧٠٠) فدان من أجود الأراضى الزراعية و(٨١) ألف من العبيد و(٤٠٠) ألف رأس من المواشى المختلفة و(٨٣) سفينة نهريّة وبحريّة ذوات حمولات مختلفة .. هذا بالإضافة إلى دخل سنوى ضخم من سبائك الذهب والفضة والنحاس ومن الطعام والشراب ( الجعة والأنبذة ) والملابس بأنواعها ..





جديد الراسين - بالبو القري بالأنص

## ● أبوسمبل .. سيد المعابد

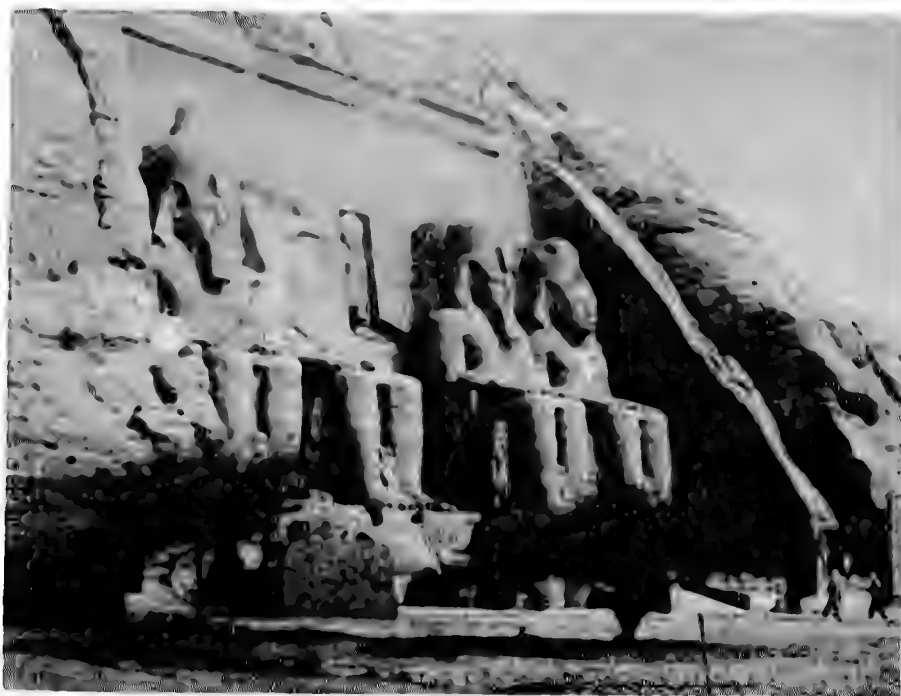
في سنة ١٨١٢ م أعاد « بورخارد » اكتشاف هذا المعبد الهائل الذى يطل على النيل فى الجنوب .. لم يكن ظاهراً من المعبد حينئذ سوى رأس واحد من التماثيل الضخمة المقامة على الواجهة ، أما المعبد بأكمله فكان مدفوناً فى كثيب هائل من الرمال الناعمة ، جرفتها الصحراء وحملتها الرياح لتحمى هذا الكنز المعمارى الضخم من عاديات الزمن والطبيعة والإنسان ، ولتبقية خالداً على مدى الزمن كما أراد له بانيه منذ نحو ٣٢٠٠ سنة مضت ..

و يقول المؤلف أن الزيارة الصحيحة لهذا المعبد لابد أن تبدأ عند الفجر، حين تكون الشمس لا تزال غائبة وراء الأفق ، وحين تتسلل الخيوط الأولى من هالات الضوء الكونى نحو الشرق ، عندئذ يمكن للعين البشرية أن تلمح الكتلة المعمارية الهائلة المنحوتة بأكملها فى الصخر ..

وعندما تعتلى الحافة الأولى من قرص الشمس خط الأفق ، تسقط شعاعات ذهبية فوق صف القروء الذى يزين و يزخرف واجهة المعبد عند أعلى خط فيها .. وقد نحتت هذه القروء ممثلة فى وضع الجلوس والابتهاال والتهليل لمشرق الفجر الجديد .. ولتكون أول من يخبر الفرعون الممثل فى تماثيله العظمى بأن الشمس قد عادت من رحلتها الليلية فى العالم السفلى ، وأن يوماً جديداً قد ولد ودون فى سجل الخلود بين أترابه من أيام الماضى الأزلى والمستقبل الأبدى ..

ورويداً .. تكسو أشعة الشمس واجهة المعبد التى ترتفع شامخة نحو ١٠٠ قدم ، كما تكسو التماثيل الضخمة التى تمثل رمسيس الأكبر جالساً ، والتى يرتفع الواحد منها نحو (٦٥) قدماً ، أى أكثر من عشرين متراً ، كما يقدر عرض المسافة بين كتفى كل تمثال منها بنحو (٢٥) قدماً .. وبهذا الضوء الذهبى الرقيق يلمع الزائر بوضوح مدى القوة والجلال الذى ينبعث من هذا الملك العظيم الذى يجلس هادئاً متيقناً من كل شيء ، والذى تعلو وجهه ابتسامة نبيلة دافئة تعبر عن صبر لاحد له فى مشاهدة خلود كون بأكمله ..

وما أن يكتمل قرص الشمس ملاسماً خط الأفق ، حتى تبدأ الأشعة الذهبية فى التسلسل عبر مدخل المعبد ، وتنعكس على صفحة الأرضية المنحوتة من الحجر الرملى ، فتعكسها بدورها إلى القاعة الداخلية للمعبد ، حيث توجد ثمانية تماثيل ارتفاع كل واحد



معبد أبوسمبل .. منحوت في قلب الجبل .. و يطل على بحيرة  
السد العالي بأقصى حدود مصر الجنوبية .



معبد الملكة نفرتارى [ زوجته ] .. بجوار معبد أبوسمبل .

منها نحو (٣٠) قدماً وتمثل رمسيس واقفاً في هيئة وجلال الآلهة ، وكأنه ينتظر هذا النور الذى يضيء وجهه كل يوم جديد .

ومن هذه القاعة الداخلية يستمر ضوء الشمس فى التسلل إلى قاعة أخرى ثم إلى قاعة ثالثة تنتهى بقدس الأقداس الذى يتعمق مكانه فى قلب الصخر بنحو (١٨٠) قدماً .. وقد وضع التصميم الهندسى لهذا المكان العميق طبقاً لقواعد فلكية دقيقة تتيح لأشعة الشمس أن تدخل إليه مرتين فقط كل عام .. فى اليوم الثالث والعشرين من شهر فبراير [يوم مولده] واليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر [يوم تتويجه] وهنا نرى التماثيل الأربعة المنحوتة فى كتلة واحدة ، والتي تمثل آلهة أربعة جالسين على قدم المساواة هم بالترتيب : بتاح وآمون رع ، ورمسيس الثانى ، ورع حور آختى .. ونلاحظ هنا أن رمسيس قد وضع نفسه فى صف واحد وعلى قدم المساواة مع ثلاثة من أهم الآلهة التى كانت تعبد فى عهده .. وإذا كان رمسيس قد أله نفسه وجلس بين الآلهة ، فإنه لم يكن يجسر على مثل هذا فى الديار المصرية داخل الحدود الرسمية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت .

ونلاحظ أن جميع القاعات الداخلية المنحوتة فى قلب الصخر تتحلى جدرانها برسومات ونقوش غائرة تعرض حياة كاملة بالألوان الطبيعية .. فازالت ظاهرة حتى الآن ألوان زرقاء وحمراء وبرتقالية وخضراء داخل النقوش الغائرة ، تتألق بدرجات لونية مبهمة نتيجة لتدرج الظل والنور الذى تصنعه أشعة الشمس المتسللة .

ولا تغطى النقوش الغائرة الملونة كل جدران القاعات الداخلية فحسب ، وإنما تغطى أيضاً كل بوصة فى جميع الجدران الداخلية والخارجية للمعبد .. وتمثل هذه النقوش لوحات فنية تحكى بنفسها تفاصيل حياة هذا الملك القائد العظيم ، كما تحكى بالنصوص المهيروغليفية مذكراته الحربية والاجتماعية والسياسية ، بل ومذكراته الشخصية عبر حياته العريضة الحافلة بالأحداث الجسام والتي استمرت (٩٧) عاماً ..

ونذكر على وجه الخصوص اللوحة الحربية الرائعة التى تمثل واقعة قادش ، حيث نشاهد الجيوش المصرية التى كان يقودها رمسيس .. صفوف المشاة .. وحاملى الرماح والدروع .. وصفوف الخيالة والفرسان والعربات العسكرية .. ورمسيس المنتصر يطلق السهام من فوق عربته المندفعة بقوة فى زمام المعركة ، ويندفع بجانبه الأسد الأليف الذى كان يصحبه فى المعارك ليبيت الرعب فى قلوب أعدائه .. ونشاهد أيضاً صفوف أسرى الحرب مكتوفة الأيدي .. ولوحات تعبيرية أخرى عن رمسيس وهويقبض على بعض الأسرى من شعور رؤوسهم .

## ● الرفيقة الجميلة .. المفضلة عنده !

الزوجة الملكية الممدوحة كثيراً .. سيدة الرشاقة وراحة الحب .. ووارثة الوجه القبلى والوجه البحرى .. وماهرة اليدين فى الضرب بالصاجات .. والحلوة الحديث والغناء .. نفرتارى مرموت .. زوجة الملك العظيمة ومحبوته .. العائشة مثل الساء أبداً ..

نفرتارى .. ومعناها الرفيقة الجميلة .. كانت الزوجة الأولى لرمسيس ، وقد تزوج بها فى السنة الأولى من حكمه .. ومنذ ذلك الوقت تبوأَت أسمى مكانة فى الأسرة بعد زوجها ، وظلت الزوجة الأثيرة عنده والمفضلة لديه حتى ماتت .. هذا بالرغم من أن رمسيس كان مزواجاً ومولعاً بالنساء إلى حد كبير .. فقد كانت لديه زوجات ملكيات أخريات ، تثبت النصوص أسماء بعضهن ، مثل الملكة إست نفرت ، والملكة مات نفروع [ بنت ملك الحيثيين ] ، والملكة توى ، والملكة مريت آمون .. وغيرهن من الزوجات الملكيات الرسميات والتي كانت كل واحدة منهن تحمل لقب الملكة .. أما المخططات التى كان يتكون منهن حريم الملك فعددهن بالمئات ، حتى بلغت ذريته رقماً مذهلاً [ ١١١ ولداً و٦٧ بنتاً ] !

ونظراً لتلك المكانة الرئيسية الرفيعة التى كانت تتمتع بها الملكة نفرتارى ، فقد أظهرها رمسيس معه على واجهة معبد أبوسمبل ، حيث تكرر ظهورها مع الملك ثلاث مرات ، كما أقام لها الملك معبداً صغيراً خاصاً بها ، مجاوراً لمعبد أبوسمبل الكبير ولا يبعد عنه أكثر من (١٤٠) متراً تجاه الشمال ..

وتتصدر واجهة معبد نفرتارى ستة تماثيل أربعة منها لرمسيس وإثنان للرفيقة الجميلة وهى واقفة فى شموخ بين تماثيل زوجها ، ومرتدية ثياباً شفافاً تسفر عن تفاصيل جسم أنثوى فى غاية الرشاقة والجمال ..

وبالإضافة إلى هذا المعبد الفخم الذى أقيم تكريماً للملكة نفرتارى ، بنى لها رمسيس مقبرة فخمة بجبانة وادى الملكات أو « ببيان الحرم » خلف وادى الملوك بالأقصر .. وتعتبر تلك المقبرة من أجمل مقابر وادى الملكات ، برغم أن جميع المقابر الأخرى تتميز بجمال النقوش ورقة التصميم وتنوع الألوان .. إلا أن مقبرة نفرتارى تتميز عن بقية المقابر الأخرى بنوع من « الفخفة » الزائدة عن كل حد ، والجوالنسوى الرقيق الذى يفوح من جميع



أبو سبيل في شموخه الخالد... والسباح يتوزعونه... من كل جنس ولون ودين..

أرجاء المقبرة منذ أول خطوة إلى داخلها ، والذي يُشعر الزائر بصفة مستمرة أنه في مقبرة  
الزوجة الملكية ، الرفيقة الجميلة المفضلة لدى رمسيس الأكبر .. سيد العالم !



وفي ميدان التحرير بقلب القاهرة ، بداخل إحدى قاعات المتحف المصرى ، يرقد  
جثمان هذا الملك العظيم فى سلام يحيطه جلال الموت ، فى إنتظار يوم البعث ، وهو يوم  
اعترف به وآمن به وعمل له ألف حساب .. وحين اعتورت الأمراض المومياء نتيجة لسوء  
الحفظ حالياً ، ذهب الملك للعلاج فى باريس .. حيث استقبلوه هناك باحتفال رسمى  
وعسكرى طبقاً لمراسم استقبال الملوك ورؤساء الدول العظام .. !

هذا هو تاريخ الملك العظيم الذى يقف تمثاله الجرانيتى الوردى الضخم ، محصوراً بين  
كبارى الحديد فى باب الحديد .. مذكراً الملايين التى تمر عليه فى كل يوم من المصريين  
وغير المصريين .. بأنه رمسيس الأكبر الذى لم يزل شاعراً ، والذى كان سيداً للعالم .. منذ  
٣٢٠٠ سنة !!







المؤسسة العسكرية المصرية

في عصر الامبراطورية

١٥٧٠ ق م - ١٠٨٧ ق م

**4. OFFICERS AND OFFICIALS  
IN THE NEW KINGDOM.  
BY: DR. AHMED KADRY.**



## تقديم

شاء الحظ الحسن أن يهدينى الدكتور أحمد قدرى نسخة من هذا الكتاب ، الذى يتضمن رسالته للدكتوراه ، التى قدمها إلى جامعة بودابست بالجر ، مكتوبة باللغة الانجليزية .

وكننت موشكا على القيام برحلة إلى أمريكا ، فاصطحبت الكتاب معى ، ربما من قبيل الرغبة فى استمرار قراءتى فى التاريخ المصرى ، ولوفى بلاد الغرب .

وهكذا أتيت لى الفرصة لى أعيش النقيضين ، فبالنهار كنت أرى أحدث ماوصلت إليه الحضارة والتقدم والمدنية ، وحين أهجع بالليل لأستريح ، أعيش هذا الكتاب الممتع الذى يجعل النفس تفيض بعظمة الحضارة المصرية القديمة ، باعتبارها أقدم وأعظم حضارة ومدنية فى تاريخ الإنسان على الأرض .

ولقد أصبح من المسلم به لدى كثير من المؤرخين العالميين وعلماء المصريات ، أن مصر هى أم الحضارات ، ومنها بدأ كل شىء .. حين وضع المصريون القدماء أسس العلوم الطبيعية وأسس الفن والدين ، ومبادئ الأخلاق والسلوك ، والتنظيم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للدولة .

وفى هذا الكتاب بحث مستفيض يثبت أن المصريين القدماء هم الذين وضعوا أيضا المبادئ والأسس التى قام عليها علم الاستراتيجية وعلم التكتيك وفنون الحرب وتنظيم الجيوش الكبرى ، ووضع خطط المعارك الحربية التى مازالت حتى الآن محل دراسة باكاديميات الحرب الحديثة فى كل مكان . بل والتى أعاد تطبيقها عتاة القادة العسكريين

في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، مثل الخطط المصرية القديمة التي استوحاها اللورد اللبني والفيلدمارشال مونتجومري .

وهناك عدة آلاف من الكتب والمؤلفات والبحوث الأجنبية والمصرية التي تتناول التاريخ المصري القديم بالدراسة . ولكن الأغلبية العظمى من هذه الكتب تتناول هذا التاريخ على أساس السرد والتقرير ، ومع ذلك فهناك من بينها بعض الدرر النادرة التي تتناول هذا التاريخ بالتحليل والتفسير .

وبطبيعة الحال فإن معظم — إن لم يكن كل — هذه المراجع النادرة في تحليل التاريخ المصري القديم وتفسيره ، من تأليف أئمة المؤرخين وعلماء المصريات الأجانب أمثال : بريستيد وجاردنر وويلسون وغيرهم من أعظم المحللين الذين كانت لهم رؤى ياهم العلمية الخاصة في تفسير الأحداث والنصوص المنقوشة على جدران المعابد والمقابر والنصب التذكارية والمسلات ، والنصوص المدونة بالبرديات .

وكتاب أحمد قدرى يعتبر من هذه الزاوية إضافة مصرية صميمة لتلك الدرر النادرة التي كتبها كبار علماء المصريات في شرح وتحليل وتفسير معالم التاريخ المصري القديم . كما أن موضوعه على جانب كبير من الخطورة والأهمية العلمية ، فهو يتناول طبقة الضباط العسكريين المصريين والدور الذي قامت به المؤسسة العسكرية المصرية في تكوين أول أكبر امبراطورية في تاريخ العالم القديم .. امبراطورية تمتد من الفرات وحدود آسيا الصغرى في الشمال ، وحتى الجندل الرابع في الجنوب .

## ● عبقرية العسكرية المصرية .

منذ نحو «٣٤٠٠» سنة خلت ، جمع الامبراطور تحوتمس الثالث — وهو من أعظم الملوك المحاربين الذين حكموا مصر طوال تاريخها القديم والحديث — ضباطه وأركان حربه من قادة فروع القوات المسلحة المصرية ، وعقد معهم «مجلساً للحرب» عشية الدخول إلى معركة «مجدو» في الأقاليم السورية ، وتباحث معهم في الخطوط العامة للخطة الحربية ، وكيفية مفاجأة العدو بالوصول إلى أرض المعركة من حيث لا يحتسب .

وتشااور الضباط ، وقرروا اختيار أحد طريقتين للوصول إلى ساحة القتال . ولكن عبقرية الامبراطور وعقليته العسكرية الفذة ، رأت اختراق طريق ثالث ، وهو الطريق



نحوتمس الثالث .. عبقرية عسكرية فذة .. أول من قسم الجيش إلى قلب وجناحين ..

الأصعب والأضيق والأقصر الذى يختصر المسافة ، حيث كان لا يمكن أن يتفتق ذهن العدو عن أن الجيش المصرى بعثاده الضخم قادر على اختراقه .

وصمم الملك على خطته بعد أن اختلف مع ضباطه ، وأعطاهم الأمر بالتحرك والتقدم ، ونفذ الخطة البارعة التى أعطته ميزة المبادرة وعنصر المفاجأة ، بحيث أصبحت المعركة الحربية مجرد عملية تكتيكية نتیجتها النصر الحاسم .

هذه الخطة هى نفسها الخطة الحربية التى نفذها الفيلد مارشال اللنبى فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ حين فاجأ جيوش الأتراك فى السهول السورية بعد اختراقه نفس الطريق الأضيق والأصعب الذى اختاره تحوتمس الثالث من قبله .

وقد قام عالم المصريات « هـ . جـ . بريستيد » بدراسة وتحليل الخطة الحربية التى وضعها تحوتمس الثالث للهجوم على « مجدو » والمناورة الحربية التى درب عليها جيوشه فى اليوم السابق على المعركة ، وقال عنها أنها كانت خطة متقنة ومناورة ناجحة ليس لها أية سوابق فى تاريخ الدول والشعوب الأخرى ، وتدلل على عبقرية تحوتمس الثالث كقائد حربى عظيم .

ويجمع المؤرخون العسكريون على أن هذا الملك العظيم هو أول من قسم الجيوش المحاربة إلى قلب وجناحين ، وأول من فرق بين الاستراتيجية والتكتيك فى ميدان القتال ، ووضع أسس ومبادئ هذين العلمين الهامين من علوم الحرب وفنونها .

## ● أول حرب تحرير فى تاريخ العالم

ولكن قبل أن تبلغ الجيوش المصرية مثل هذا المستوى الرفيع من التنظيم والإدارة والقيادة الماهرة ، كانت هناك خطوات على طريق التطور ، ترجع بداياتها إلى بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة [ ١٥٥٥ — ١٣٠٥ ق . م ] التى ينتمى إليها الامبراطور تحوتمس الثالث . بل وترجع أساساً إلى أيام حرب التحرير التى شنها المصريون لطرد الهكسوس الذين احتلوا مصر واستعمروها وأذلوا شعبها لمدة تقارب قرنين من الزمان ، إلى أن استطاع أمراء طيبة تجهيز الجيوش وتحميس النفوس ، وخاضوا معارك التحرير تحت قيادة « سقن رع » و « كاموسى » من بعده ، حتى تمكن « أحس » فى النهاية من طرد المستعمرين نهائياً من البلاد ، وطاردهم حتى فلسطين ، ثم شتتهم تماماً إلى حيث لم يعد لهم ذكر بعد ذلك فى التاريخ القديم .

وتولى «أحمس الأول» عرش البلاد، وأعاد إليها وحدتها القومية، وأسس الأسرة الثامنة عشرة، التى أصبحت أشهر أسرة ملكية فى التاريخ القديم والتاريخ الحديث على حد سواء.

والحقيقة أن تجربة المصريين مع المستعمرين الهكسوس كانت تجربة مؤلمة وقاسية جداً. وعلمتهم درساً لم ينسوه خلال تاريخهم التالى بعد انتصارهم فى حرب التحرير.

كان المصريون يشعرون بالخطر الكامن فى تلك القبائل الرعوية التى نظمت نفسها، والتى كانت تهدد الحدود الشرقية لمصريين حين وآخر.

وكان هذا الخطر وحده كافياً لإجبار فراعنة مصر من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، على إعادة النظر فى جميع النظم الحربية والإدارية التى كانت سائدة بمصر حتى ذاك الزمن، وظهرت بالتالى أفكار جديدة متحررة، وضع على أساسها نظام الحكم فى تلك الفترة.

لقد اعتنق سادة الحرب الجدد من أبناء وأحفاد المحاربين الذين قادوا حرب التحرير، مبدأ جديداً تبلور فى هدف رئيسى واحد، هو توجيه معظم موارد الدولة لإنشاء وتنظيم جيش قوى، اعتبر بكافة المعايير أعظم وأقوى الجيوش العسكرية التى ظهرت فى تاريخ العالم القديم كله.

وتقول «موسوعة كامبريدج فى التاريخ القديم» عن هذا الجيش: «.. كان جيشاً وطنياً هائل الحجم، يتألف معظمه من جنود محترفين، سواء من الجنود العاملين فى الخدمة العسكرية أو جنود الاحتياط، ويقوم على قيادته وتدريبه ضباط محترفون مدربون على أعلى مستوى، ويؤدون وظائفهم وواجباتهم الحربية فى إدارة الفرق والأسلحة المنوطة بهم قيادتها، بشكل منظم ومنسق ودقيق، كما لو كانوا حلقات مترابطة فى سلسلة القيادة العامة.. وكان المصريون هم أول من كون «هيئة الضباط» أو [هيئة أركان حرب] التى تؤدى وظيفة العقل الإدارى والتنظيمى والحربى فى الجيوش الحديثة حتى الآن».

## ● الاستراتيجية .. اكتشاف مصرى

كان من أهم الأهداف الاستراتيجية لهذا الجيش الجديد، إعادة السيطرة المصرية على أرض النوبة العليا التى تقع وراء حدود مصر الجنوبية.

ويقول أحد المؤرخين في دراسة له عن حرب التحرير التي شنها المصريون لتحرير بلادهم من الهكسوس : « حتى يتم القضاء نهائياً على الهكسوس الذين قدموا من آسيا بأساليب وفنون حربية جديدة ، كان لابد أن يتمسك المصريون بعمقهم الاستراتيجي في أفريقيا . لدرجة يمكن أن يقال معها أن الحرب التحريرية التي شنها المصريون ضد الهكسوس ، كانت بالفعل حرباً بين أفريقيا وآسيا . وبالتالي فقد أصبحت تلك الفكرة الاستراتيجية ضرورة حتمية اعتنقتها مصر حتى أواخر تاريخها الفرعوني القديم » .

وهكذا اختط ملوك الأسرة الثامنة عشرة منذ البداية نظاماً للحكم يتسم بالشمولية والمركزية ، ويخدم الهدف الاستراتيجي المتمثل في إنشاء المؤسسة العسكرية الكبرى ذات القوة الهائلة التي تهدف إلى توفير الأمن الاستراتيجي لمصر .

وكان من الضروري أن تستمر حالة التأهب العسكري والاستعداد الفوري التام لتجهيز وتوجيه الحملات الحربية للقضاء على أية قلاقل أو اضطرابات أو ثورات تحدث في بلاد النوبة أو في البلاد السورية التي تم فتحها وضمها لحكم الامبراطورية المصرية .

كما كان من الضروري أيضاً أن تستمر الدولة في إعداد الجيوش التي يتولى قيادتها الفراعنة بأنفسهم ، وتجهيز هذه الجيوش بكل ما يلزمها من عدة وسلاح وتموين ، الأمر الذي كان يتطلب حتماً وضع كل موارد الدولة في حالة شبكية بحالة التعبئة العامة والاستنفار المستمر .

وكان التصاعد المستمر في طبع المجتمع المصري بالطابع الحربي ، ضرورة حتمية لتحقيق هذا الهدف .

## ● تطوير الجيوش وتصنيع السلاح

وعلى أرض مصر ، ظهرت لأول مرة في تاريخ الإنسان على الأرض ، فكرة الاستخدام الاستراتيجي للقوات المسلحة ، على أساس تقسيم الجيوش المحاربة إلى ألوية وأجنحة مستقلة في حد ذاتها ، ولكنها في النهاية تعمل تحت قيادة مركزية واحدة .

ولا شك في أن هذا التطور كان منطقياً ، نتيجة للقدرة الإدارية الفذة التي كان يتصف بها نظام الحكم بمصر ، والتي اكتسبها من تراكم خبرات تاريخ طويل في تنظيم وإدارة دفعة الحياة على أرض وادي النيل .





صورة مركبة لطاير الجنود المصريين من عصور مختلفة .

وفي عصر الامبراطورية ، حين اتسعت الفتوحات ، وترامت الممتلكات المصرية في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، أصبحت الحاجة ملحة إلى تزويد الجيش المصرى بأسلحة جديدة ، كما بدأ استخدام هذه الأسلحة بطريقة تعتبر ثورة غير مسبقة في التكتيك الحربى ، حتى أصبحت جميع وحدات هذا الجيش تتمتع بقوة ضاربة هائلة ، الأمر الذى نتج عنه في النهاية تغييرات عميقة في مفاهيم التكتيك والاستراتيجية . كما أدى أيضاً إلى ضرورة إقامة المنشآت الصناعية المتخصصة في صناعة المركبات الحربية ، وصناعة أنواع الأسلحة المختلفة التى تتطلبها ألوية الجيش وفرقه ، بالإضافة إلى الرصيد الهائل المتمثل في احتياطي القوى البشرية بداخل البلاد .

## ● سلاح الفرسان والمركبات الحربية

ومن المنجزات الهائلة التى حققتها المؤسسة العسكرية المصرية استخدام « الخيل » كأداة من أدوات الحرب ، كما بدأت في استخدام « المركبات الحربية » التى تجرها الخيول . وأرجح الآراء الآن تقول بأن مصر قد شرعت في استخدام الخيول والمركبات الحربية ، في فترة سابقة على حرب التحرير ، حين أخذ المصريون يتدربون على هذا السلاح الجديد لاكتساب القدرة على محاربة المحتلين وطردهم من البلاد .

ويرى الدكتور قدرى أن العبرة ليست في بداية استخدام الخيول أو المركبات الحربية ، وإنما في الطريقة الجديدة الفذة التى ابتكرها المصريون في تطويع تلك الأداة لمقتضيات المعارك الحربية .

وتعتبر هذه الطريقة المصرية الجديدة ، ثورة حقيقية في تاريخ الفكر والأداء العسكرى . وتدل بشكل قاطع على أن المصريين هم أصحاب هذا التطوير في استخدام المركبات في المعارك الحربية . ولم يكن المصريون قادرين على مثل هذا التطوير ، لولا مواهبهم المتأصلة في عمليات التنظيم والإدارة .

وهذا الاستخدام المصرى الجديد للمركبات الحربية ، أعطى للجيش الامبراطورى المصرى قدرة هائلة على الهجوم والسيطرة في جميع المعارك التى خاضها .

وكان سلاح الفرسان والمركبات الحربية قادراً على العمل وحده في خوض المعركة ، بالإضافة إلى قدرته على التعاون الوثيق مع سلاح المشاة ، ليخوض معه المعارك جنباً إلى جنب .

ولأول مرة في تاريخ العالم يستخدم سلاح الفرسان والمركبات الحربية بكثافة وأعداد كبيرة تتجاوز عدة آلاف ، بحيث أصبح هذا السلاح قادراً على سحق مقاومة العدو ، بقوة ضاربة هائلة . وبذلك تمكن الجيش المصرى من فتح بلاد شاسعة الأرجاء . وكانت وظيفة سلاح المركبات الحربية ، ماثلة تماماً لوظيفة سلاح الدبابات فى الجيوش الحديثة .

## ● الكتاب والمتقنون العسكريون

ومنذ بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وضع نظام صارم لتجنيد الرجال وتعبئة كل الموارد الاقتصادية للدولة .

كان هذا العمل الاستراتيجى الكبير يتم بفضل « هيئة عسكرية » جديدة التكوين ، تعمل داخل الإطار العام للجيش المصرى ، وهى « هيئة كتاب إمدادات الجيش » .

ويمكن القول بأن هذه الهيئة المتخصصة هى أول هيئة من نوعها ظهرت فى التاريخ الحربى للقوات المسلحة فى العالم . حيث أن الاختصاصات التى كان يمارسها « الكتاب العسكريون » المصريون القدماء ، هى نفسها الاختصاصات التى تمارسها « هيئة كبار الضباط » أو « هيئة أركان حرب » فى أى جيش من الجيوش الحديثة .

وقد لوحظ أن جميع الرجال الذين كانوا يعملون فى تلك الهيئة ، كانوا مدربين تدريباً خاصاً لإجادة « فنون الكتابة » جنباً إلى جنب مع « الفنون العسكرية القتالية » . وكانوا يبدؤون حياتهم فى السلك العسكرى عادة باعتبارهم « جنوداً كتاباً » بالقسم الإدارى بوحدة الجيش . ثم يتدرجون فى سلم الترقى للرتب العسكرية الأعلى من هذا المنطلق وكان بعضهم يصل إلى رتبة « رئيس الكتاب العسكريين » أو رتبة « كاتب الجيش » بل وايضا إلى رتبة « قائد الجيش » .

وكان من أهم اختصاصات هؤلاء الضباط الكتاب ، العمل على تجنيد الشباب من مختلف البقاع والأقاليم المصرية ، وتدوين أسمائهم فى سجلات تبين أعمارهم وتخصصاتهم القتالية التى تدربوا عليها ، وإعداد الجنود والضباط والمقاتلين ، وجميع العاملين فى الخدمة العسكرية ، بالإضافة إلى السجلات الأخرى التى تتضمن الإحصائيات الخاصة بالموارد الاقتصادية للدولة ، والتى كانت خير عون للسلطات العليا عند الحاجة إلى اتخاذ قرار بالتعبئة الجزئية أو التعبئة العامة للجيش الامبراطورى المصرى .

وكانت هذه السجلات هى الوسيلة الفعالة لمعرفة مدى قوة ووزن مايمكن أن نسميه «الجهة الداخلية» بمفهوم المصطلحات السياسية والعسكرية المعروفة فى العصر الحديث . ومعنى ذلك أن المصريين القدماء فى العصر الامبراطورى كانوا أول من استخدم مصطلح «الجهة الداخلية للدولة» بهذا المضمون .

## ● اختيار الضباط وتدريبهم

وكان المصدر البشرى للضباط الجدد الذين يندرجون فى السلك العسكرى المصرى هو «الشباب» . حيث كان يتم اختيار النابهين من الشبان أبناء الشعب ، ثم يجرى تعليمهم وتنشئهم فى البلاط الملكى جنباً إلى جنب مع الأمراء من أعضاء الأسرة المالكة ، والذين كانوا يشتركون معهم فى جميع مراحل نظم التعليم والتدريب الصارمة .

ولاشك أن هذه المعاشة بين الشباب والأمراء المصريين ، والامثال لهذا التدريب الموحد ، كان يضمن إخلاص هؤلاء الشبان للجيش الامبراطورى المصرى ، عندما يتم تعيينهم فى المناصب العسكرية ، كما كان يقوى الروابط بين هؤلاء الضباط وبين الملوك أنفسهم ، بالإضافة إلى أمراء البيت المالك .

وهذا كله يبين لنا بوضوح أننا بصدد فئة جديدة من الضباط المصريين الذين باشرُوا مسئوليات على أعلى مستوى من الأهمية الاستراتيجية ، ويختلفون تماماً عن غيرهم من الضباط المصريين الذين تولوا مناصب القيادة فى الجيش المصرى فى عصور سابقة على عصر الأسرة الثامنة عشرة .

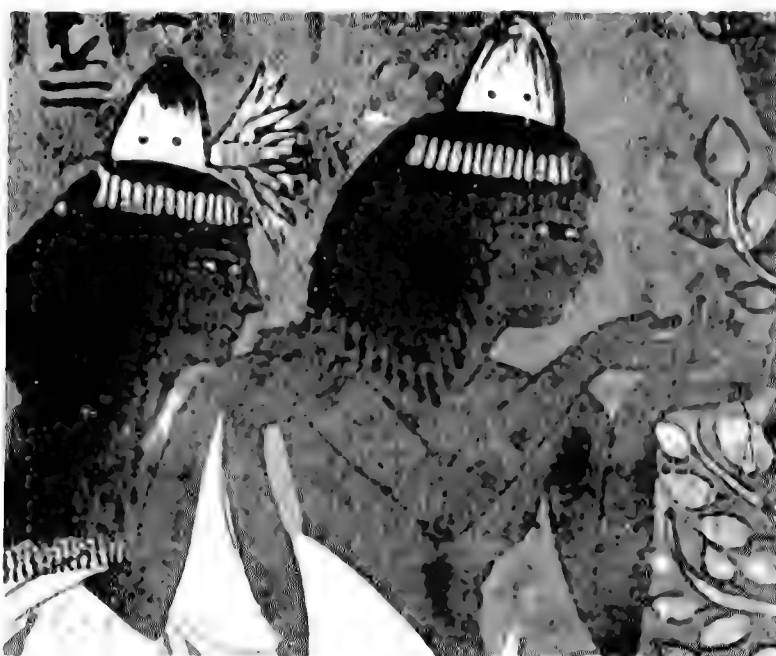
وهكذا تبوأَت الطبقة العسكرية الجديدة مكانة رفيعة فى المجتمع المصرى ، وأصبحت تتطلع إلى المزيد من السلطة والنفوذ والسيطرة والهيمنة على كل مقدرات الدولة .

## ● سيطرة الطبقة العسكرية

وقد بلغت الطبقة العسكرية أوج سلطتها فى عهد «تحوتمس الرابع» . وعلى قمة هذه الطبقة ، كانت هناك مجموعة من الضباط المتفوقين أصحاب المواهب الخاصة ، فكان منهم المثقفون والسياسيون ورجال الاقتصاد والتكنوقراطيون والإداريون .



مسوف و زوجته .. [ أحد رجال المنحوت الثالث ] .



مسوم و زوجته .. [ من كبار رجال الدولة في عصر الاسرات ] .



ولم يكن تغلغل نفوذ هذه الطبقة الجديدة في كل ركن من أركان الدولة ، إلا نتيجة لانتصارها في صراعها المبرر ضد طبقة رجال الدين والكتبة التقليديين في طيبة .

كذلك فقد كان الجنود العاديون الذين كانوا يعملون تحت قيادة الضباط ، لهم امتيازات خاصة جعلتهم بدورهم طبقة شعبية متميزة ، بالمقارنة بمجاهير الشعب من الفلاحين والعمال والحرفيين . وعلى ذلك فيمكن القول بأن طبقة الضباط العسكريين ومن هم تحت قيادتهم من الجنود المحاربين ، كانوا يتولون مقاليد جميع الأمور الخاصة بالثروة القومية في مصر .

أما الضباط الذين كانوا يحاولون إلى المعاش أو الاستيداع بعد خدمتهم العسكرية ، فقد كانوا يعينون في وظائف عليا باعتبارهم من الأفراد الذين يعتمد عليهم الفرعون .

وكان بعضهم مقرباً إلى الملك إلى حد بعيد ؛ كأن يشغل وظيفة « الياور الملكي » أو « ساقى الملك وخادمه الخاص » أو « المشرف على إدارة القصور الملكية » أو « المشرف على إدارة الأراضي والممتلكات الملكية » أو « المعلم في البلاط الملكي » .

لقد انعكست الروح العسكرية في عصر الامبراطورية ، على جميع أوجه الأنشطة الداخلية بالدولة . وأصبح الجيش هو المهيمن على جميع الإنشاءات المعمارية الطموحة التي تقيمها الدولة . بالإضافة إلى سيطرة الضباط في النهاية على جميع مرافق الدولة ، بما في ذلك المرافق الدينية والمعابد ، إلى أن سيطروا في النهاية على عرش مصر وجلسوا عليه .



ولكن ماذا كانت نتيجة كل ذلك .. وهل من الصحيح ما يشاع من أن اخناتون قد انغمس في عبادة الله الواحد وانصرف عن الاهتمام بالجيش .. ومن هو الضابط الذي أنقذ عرش مصر من مؤامرة نسائية دبرتها أرملة توت عنخ آمون .. وماذا فعل رمسيس الأكبر حين تولى عرش الامبراطورية .. وكيف أصبحت خيرات البلاد عندما تعاطفت ، مطعماً لمن حول مصر شعوب جائعة .. ؟ !

إن من أكثر الأمور صعوبة ، محاولة الاختيار من بحر زاخر بالمعلومات الجديدة . وتزداد هذه الصعوبة شدة ، عند محاولة تبسيط المعلومات المختارة وإخراجها من دائرة الدراسة الأكاديمية ، لعرضها على مستوى النطاق العام سهلة مبسطة بقدر الإمكان . وهذا هو ما واجهته على وجه التحديد عند عرض هذا الكتاب ، الذي لا يتخلو صفحة واحدة منه من

إضافة معلومات جديدة، أو من رؤية المعلومات المعروفة من زاوية وجهة ذكية ومبتكرة.

## ● تمجيد الشجاعة

أدت الروح الحربية التي سادت المجتمع المصرى فى عصر الامبراطورية، إلى ظهور نعمة التفاخر والزهور بشرف الانتماء إلى الخدمة العسكرية وإلى السلك العسكرى بصفة عامة.

وقد منحت الألقاب والرتب والأنواط والميداليات إلى الضباط وإلى الجنود على حد سواء. كما وزعت عليهم الأراضى الزراعية، وذلك تمجيداً لشجاعتهم وتفانيهم فى أداء الخدمة واجباتهم العسكرية. بل وقد ابتكر الجيش رتبا وألقابا وأنواطاً جديدة مثل «شجعان الملك» و«النوط الذهبى للمجد» و«النوط الذهبى للشجاعة».

كما ظهرت أساليب وأوصاف جديدة وردت فى التقارير العسكرية التى نقشت على جدران أضخم المعابد، مثل النص المكتوب على جدران مدينة هابو حيث يصف الملك جنوده وكيفية ومستوى أدائهم القتالى بأنهم: «.. كانوا يزارون كالأسود فى الجبال»..!

ولا شك فى أن منح ألقاب الشرف العسكرية للضباط والجنود على حد سواء، يعتبر خير دليل على سيادة الروح الامبراطورية التى سادت ذلك العصر.

ولا جدال فى أن تمجيد وتكريم الجنود العاديين والإشادة بشجاعتهم على هذا النحو، يعتبر بوضوح منهجاً جديداً فى المفاهيم التقليدية المصرية، التى كانت تغزو الإنجازات والانتصارات الحربية إلى الملك وآبائه من الآلهة.

ويشير الدكتور أحمد قدرى فى رسالته إلى حصر تم إنجاز عدد الألقاب والرتب العسكرية التى استخدمت فى الجيش المصرى فى عصر الامبراطورية، وقد بلغت نحو «٦٣» رتبة ولقباً.

وهذه الرتب تمثل التسلسل الهرمى للمناصب العسكرية فى كل من سلاح المشاة وسلاح الفرسان والمركبات الحربية والأسطول الحربى.



## ● الضباط يتفخرون بالعلم

وهناك رسالتان طريفتان مكتوبتان على أوراق البردى و يرجع تاريخها إلى عصر الامبراطورية . الرسالة الأولى أرسلها الضابط الكاتب العسكرى « حورى » إلى ضابط آخر بالجيش اسمه « امنوبى » . وتتضمن الرسالة الثانية رد « امنوبى » عليه .

وفي الرسالة الأولى يسخر « حورى » بشدة من الأهمية التى يعطيها « امنوبى » لنفسه ، وإحساسه الزائد بذاته . و يتكلم فيها أيضا على جهل « امنوبى » وادعائه العلم والمعرفة .

وتعتبر هذه الرسالة فى عمومها دليلاً على وجوب توفر المعرفة العلمية الواسعة لكل من يتولى منصباً من فئة الكتاب العسكرين .

كما تعكس الرسالة أيضا صورة صادقة من افتخار الضابط الكاتب العسكرى « حورى » بنفسه وبمنصبه العسكرى باعتباره ضابطاً بسلح الفرسان الملكى ، وباعتباره أيضا كاهنا بمعبد مدينة « حنو » — وهى حالياً مدينة الأشمونين بمحافظة المنيا — ومشرفاً على أكاديمية تعليم فنون الكتابة ، ومشرفاً على المكتبة الملحقة بالمعبد ، وأستاذا ذا مواهب ممتازة .

أما فى الرسالة الثانية فيرد الضابط « امنوبى » على زميله « حورى » فخراً بفخر . وأخذ يعدد باعجاب المناصب التى يشغلها والمستوى العلمى الرفيع الذى يتمتع به ، فهو أستاذ معلم ، و يشغل منصب « الفارس الأول للملك » ، ويحمل رتبة القائد المساعد بسلح المركبات الحربية ، كما يفخر بأنه كان « رسول الملك » للتفاوض مع أمراء سوريا ، من منطقة « ثارو » حتى منطقة « يوبا » قرب دمشق .

وهذا الفخر العظيم بالانتماء إلى طبقة ضباط الفرسان والمركبات الحربية يعطينا صورة واضحة للمستوى الطبقي الرفيع الذى ارتقى إليه الضباط فى عصر الامبراطورية ، حتى أصبحوا طبقة أرسقراطية متميزة .

ومن الرسالة التكمية التى أرسلها « حورى » نتبين أبعاد الصفات والدرجات العلمية التى يجب أن تتوافر فى الضباط طبقاً لطبيعة العصر . لقد أكد « حورى » ضرورة أن يكون الضباط متمكنين من « فن المراسلات الرسمية » وأن يكون على أعلى مستوى فى علوم الجغرافيا والطبوغرافيا والهندسة والمعمار والكيمياء والعلوم الرياضية .

ونثنين من رد « امنوبى » مدى الخبرة العالية والقدرات العلمية والشخصية التى يجب أن تتوافر فى الضباط الذى يقوم بدور « رسول الملك » الموفد إلى البلاد الأجنبية للقيام بمهمات ذات طبيعة دبلوماسية .

وهناك العديد من الدلائل الواضحة تؤكد ارتفاع المستوى الثقافى لطبقة الضباط العسكريين ، أعلى الأقل بالنسبة لبعض منهم والذين يمكن وصفهم بالعابرة ذوى الثقافة الموسوعية .

## ● ملكة من بنات الشعب

فى عهد « امنحتب الثالث » — والد اخناتون — أخذ الصراع بين طبقة الضباط العسكريين وبين طبقة كهنة آمون يأخذ شكلاً أكثر سفوراً وأكثر علانية .

بل إن زواج امنحتب الثالث من الملكة « تى » — وهى فتاة تنتمى طبقياً إلى أسرة شعبية يشغل رجالها بعض المناصب العسكرية ، حيث كان أبوها « يويا » وأخوها « آى » من كبار الضباط والقادة بسلح المركبات الحربية — كان ضربة قاصمة ضد كهنة آمون الذين كانوا غير مستريحين لهذا الزواج بحجة علنية هى أن الفتاة التى أصبحت ملكة على مصر ليست سليلة أسرة تجرى فى عروقها الدماء الملكية .

أما الدافع الحقيقى لاعتراض الكهنة على هذا الزواج فيمكن فى أنه وقوف من جانب الملك فى صف ضباط الجيش ، فى صراعهم الحفى والعلنى ضد الكهنة ورجال الدين .

كذلك فقد قام امنحتب الثالث بتعيين بعض كبار ضباط الجيش فى مناصب كهنوتية دينية كانت قاصرة من قبل على رجال الدين على وجه العموم ، وعلى كهنة آمون على وجه الخصوص .

## ● اخناتون يحسم الموقف

أما الطامة الكبرى التى وقعت على طبقة الكهنة ورجال الدين ، فكانت على يد « اخناتون » حين أعلن « ديانة التوحيد » وأغلق بالتالى جميع المعابد المشتركة بالله ، وألغى جميع عبادات الآلهة الأخرى بما فيها الإله آمون ، بكل ما كان له ولكهنته من سيطرة وهيمنة ، ولم يسمح إلا بعبادة إله واحد لاشريك له .

بل وقد تهادى « اخناتون » في حسم هذا الموقف بأن هجر طيبة عاصمة البلاد والمركز الرئيسى لكهنة آمون ، واختار عاصمة جديدة بناها في موقع جديد طاهر ، لم يعبد فيه إله آخر من قبل ، وهى مدينة « آخت آتون » — تل العمارنة — على البر الشرقى للنيل بمحافظة المنيا — وقد تم بناء وتشيد هذه المدينة الكاملة بكل قصورها وبيوتها ومعابدها ومقابرها وشوارعها وجميع مرافقها الأخرى في فترة زمنية قياسية .

وثمة نظرية شائعة بين المؤرخين وعلماء المصريات مؤداها أن اخناتون قد انصرف تناماً إلى التفرغ لتدعيم ديانة التوحيد التى كان يدعو إليها ، وانشغل بالتالى عن الجيش وأمور الامبراطورية المصرية ، سواء بداخل الأراضى المصرية ، أو بالدول والأقاليم الآسيوية والافريقية التى كانت خاضعة للحكم المصرى .

### ● اخناتون والجيش

غير أن الدكتور أحمد قدرى يعارض هذا الاتجاه الشائع بين المؤرخين ، و ينظر إلى اخناتون من زاوية جديدة .

فكيف كان يتأتى لهذا الملك الشاعر صاحب الدين التوحيدي الجديد أن يقف أمام كل هذه التيارات التى كانت تعارضه وحاولت مناهضته والوقوف ضده هو شخصياً ، وضد ديانة التوحيد التى كان يدعو إليها .. ؟ !

وماهى القوى التى اعتمد عليها في فرض مبادئ الدين الجديد ، وتحقيق سياساته الدينية والإدارية .. ؟ !

الإجابة الوحيدة في مثل تلك الظروف كانت تنحصر في كلمة واحدة هى « الجيش » . فقد كانت طبقة العسكريين التى رسخت جذورها واتسع نفوذها هى « الترسانة » التى أمدت اخناتون بكل من كان يحتاجهم من رجال عهده الجديد .

وهكذا فقد كان من المحتم على اخناتون أن يختار رجال دولته من بين كبار الضباط والموظفين العسكريين ، الذين هيمنوا تماماً على جميع مقدرات الدولة وممتلكاتها من الأقاليم الآسيوية .

وهذه الفكرة الجديدة التى يقول بها الدكتور قدرى ، يصبح من الصعب علمياً قبول وصف عهد اخناتون بالاتجاهات والميول السلمية ، والتهوين من شأن أية أنشطة عسكرية تكون قد حدثت في ذلك العهد .

## ● دليل من رسائل العمارنة

ويؤكد الدكتور قدرى رأيه بما أشارت إليه بعض رسائل العمارنة من أن هناك مركزاً لعبادة الإله الواحد «آتون» كان قد أقيم في أحد الأقاليم السورية التي كانت تابعة لمصر كما ثبتت بعض الرسائل أيضاً وجود العديد من الوحدات والبعثات العسكرية في مناطق مختلفة في النوبة . وفي بعض الاقاليم الآسيوية .

كذلك فقد ثبت ببعض المدونات المحلية المصرية التي يرجع تاريخها إلى عهد اخناتون ، أن عملية تجنيد الجنود وتكوين الوحدات العسكرية لم تنقطع ، واستمرت قائمة في معظم الأقاليم والمقاطعات المصرية ، كما ثبتت إحدى رسائل العمارنة أن أحد قواد الجيش المصرى كان يخاطب أحد أمراء الأقاليم السورية بلهجة أمرة .

وهناك شواهد أخرى كثيرة نتبين منها عدم صحة الرأى الذى يقول به البعض من أن اخناتون وضباطه العسكريين ، قد أقلعوا عن التفكير في شئون الأقاليم التابعة للامبراطورية المصرية .

والتحفظ الوحيد على تلك النظرة الجديدة لتقييم عهد اخناتون من الناحية العسكرية ، أورده الدكتور قدرى بنفسه ، حيث يقول إن كل الظواهر والشواهد تدل على أن أخناتون قد انهمك بالفعل في نشر وتدعيم عقيدة التوحيد التي آمن بها . وقد استغرق ذلك كل جهده الفكرى ، بحيث لم يتبين حقيقة التغييرات الخطيرة التي حدثت على أطراف الامبراطورية المصرية بشمال سوريا ، حيث ظهرت إلى حيز الوجود امبراطورية عسكرية جديدة هي دولة «الحيتيين» .

## ● الشرطة .. والأمن القومى

وقد حدثت مشكلة «أمن» عويصة في عهد أخناتون ، بسبب طبعى هو دعوة الناس إلى ترك دياناتهم التقليدية التي يتمسكون بها ، واعتناق ديانة التوحيد الجديدة . وما ترتب على ذلك من الأوامر بإغلاق المعابد ووضعها تحت سيطرة « الشرطة » .

وهذه المشكلة في حد ذاتها شكلت عبئاً جديداً يقع على عاتق الجيش والقوات المسلحة المصرية ، التي كانت مشغولة باستمرار عن إقرار واستتباب الأمن القومى والقيام بجميع

أعمال الشرطة في كل المدن والأقاليم المصرية والمدن والأقاليم التابعة للحكم المصري . وذلك بالإضافة إلى حراسة وتأمين الطرق العامة والطرق التجارية الممتدة في الصحاري وعلى تخوم وحدود الامبراطورية المصرية .

وكذلك حراسة وتأمين مناجم الذهب بالمناطق الصحراوية والجبلية ، وبالإضافة إلى المسؤولية عن حراسة المدافن الملكية وما تحتويه من كنوز تحدد قيمتها بأرقام فلكية .

وكانت مراكز الشرطة الرئيسية والفرعية منتشرة في طول البلاد وعرضها . وكان جميع جنود وضباط ورؤساء الشرطة يختارون من الرتب العسكرية بالقوات المسلحة .

وقد عثر على كثير من الشعارات الرسمية التي كانت تتخذها مراكز الشرطة كرمز خاص بها . وذلك مثل « العلم » الذي عثر عليه بطيبة وعليه صورة « غزال » . وكان هذا العلم رمزاً لأحد مراكز الشرطة الرئيسية . كما عثر بتل العمارنة على درع عليه رسم يمثل الفرعون وهو يقوم بتأديب رجل من الأعداء . وكان ذلك أيضاً رمزاً لأحد مراكز الشرطة بالعاصمة الجديدة .

وقد ثبت أن مراكز الشرطة في عهد اخناتون ، كانت مكلفة أيضاً بالتعاون التام مع وحدات الجيش المختصة لتسهيل عمليات تجنيد الشباب للخدمة العسكرية ، وذلك إلى جانب القيام بالمهام البوليسية المعتادة .

وفي مقبرة « ميجو » رئيس الشرطة بعاصمة أخناتون الجديدة بتل العمارنة ، عثر على نص يسجل فيه « ميجو » أنه قد عمل على سحق « مؤامرة » ضد الملك والعرش . ومن الطبيعي أن يتهدد الخطر هذا الملك الذي كان يريد أن ينشر ديناً توحيدياً جديداً ، بين دوائر محافظة متمسكة بدياناتها التقليدية ، الأمر الذي أغضب هذه الدوائر ودفعها إلى التآمر .

## ● الجيش والملك الصغير

ومن المؤكد على وجه اليقين أن كبار ضباط الجيش المصري قد هيمنوا تماماً على جميع مقدرات الدولة في أثناء عهد أخناتون . وقد ازدادت هذه الهيمنة أكثر وأكثر بعد موت اخناتون وجلس الملك الصبي الصغير « توت عنخ آمون » على عرش البلاد .

وبعد الموت المفاجيء لهذا الملك الصغير الذى لم يدم حكمة إلا سنوات قليلة .  
وقع العرش الامبراطورى فى مصر فى ورطة سياسية خطيرة .

لقد انقطع نسل المذكور فى الأسرة المالكة . وأصبح من المحتم الآن أمام  
« آى » وهو أكبر وأقوى رجل بالدولة وبالقوات المسلحة المصرية ، أن يرتقى  
عرش البلاد . وأن يستوزر الضابط التالى له فى الرتبة والنفوذ ، ليتولى شئون  
الدولة والجيش ، وهو الضابط « حورحوب » الذى ارتقى بدوره عرش البلاد بعد  
موت الملك « آى » .

### ● المؤامرة

وكان هذا الإجراء الذى اتخذته القوات المسلحة المصرية بتولية الضابط « آى »  
عرش مصر ، هو الوسيلة القومية لإنقاذ العرش من المؤامرة النسائية التى دبرتها أرملة توت  
عنخ آمون ، الملكة « عنخ اسن آمون » .

فقد سارعت هذه الملكة الصغيرة بمجرد موت الملك ، فى إرسال رسالة سرية لملك  
الحيتيين « شوبيلولوما » تطلب منه فيها أن يرسل إليها بأحد أبنائه لتتزوج ويجلس معها  
على عرش مصر .

وقد وافق « شوبيلولوما » فوراً على الإسهام فى هذه المؤامرة ، وأرسل بالفعل ابنه الأمير  
« زنانزا » ليتزوج الأرملة المتأمة التى كانت تريد أن تستمر فى الملك ولولبالاعتماد على  
قوى خارجية . كما كانت هذه المؤامرة فرصة ذهبية لملك الحيتيين لكى يسيطر على مصر ،  
باعتبارها أكبر القوى المنافسة لدولته الجديدة ، كما يسيطر بالتالى على جميع الأقاليم التابعة  
للحكم المصرى فى مناطق العراق وسوريا ولبنان وفلسطين .

ولحسن الحظ ، فقد وقعت هذه الرسالة السرية فى أيدى « المخابرات » التابعة للقوات  
المسلحة المصرية . وقام الجيش المصرى بالقضاء على الأمير الحيتى الذى كان يجهز نفسه  
للزواج الملكى والجلوس على عرش مصر ، وذلك أثناء رحلته المشؤمة وقبل أن يدخل  
الحدود المصرية .

وبذلك أصبح من منطق التاريخ أن يجلس على عرش مصر ، أحد أبناء الشعب ، وهو  
الضابط « آى » الذى كان فى الوقت نفسه شقيقاً للملكة « تى » بنت الشعب التى  
تزوجها امحتب الثالث .

## ● مجتمع الطبقات المفتوحة

ولا شك أن انتقال أحد الضباط من أبناء الشعب ليصبح فرعون مصر— وإن كان في الغالب أمراً نادر الحدوث في التاريخ المصري— إلا أنه يماثل من ناحية أو أخرى إمكانية انتقال أبناء الأسر البسيطة ذات الأصول المتواضعة إلى مصاف الضباط العسكريين ، وما أخذوا يمثلونه من أرستقراطية جديدة .

وهذا يمكن القول بأن المجتمع المصري في العصر الامبراطوري كان يتكون من طبقات مفتوحة ، بمعنى إمكانية جواز الانتقال من طبقة اجتماعية إلى طبقة أعلى ، دون أية عقبات أو موانع قانونية أو دينية . وقد سبقت مصر بهذا التطور الاجتماعي جميع المجتمعات الإنسانية الأخرى في التاريخ القديم .

وبعد أن تولى الضباط حورمحب عرش مصر ، قام بالعديد من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . كما وضع نصب عينيه أمر تقوية الجيش المصري وتدعيمه بالرجال والعتاد ، ليصبح جاهزاً لمواجهة التحديات التي حدثت في الأقاليم السورية ، والتحديات التي أعلنتها امبراطورية الحيثيين الجديدة ضد النفوذ المصري في تلك الأقاليم .

كذلك فقد اشتد حورمحب في إقرار القانون والنظام العام بالدولة ، والضبط والربط في القوات المسلحة . فأصدر مرسومه الشهير بفرض العقوبات الرادعة على كل من تسول له نفسه سبل التسبب واستغلال النفوذ ، أيأ كان مركزه في الدولة أو المجتمع .

ويجمع المؤرخون على تسمية عهد حورمحب « بالنظام العسكري الصارم » . وهي تسمية لاجدال في صحتها شكلاً ومضموناً .

ومات حورمحب دون أن يخلف للعرش وريثاً من صلبه . ولذلك فقد تحتم أن يرتقى العرش أحد الضباط الكبار من رجال الجيش ، وهو « بارعمسيس » الذي أسس أسرة ملكية جديدة هي الأسرة التاسعة عشرة ، وسمى نفسه باسم « رمسيس الأول » .

وهكذا بدأ عصر جديد في مصر ، أشرقت فيه قوتها وازدهرت نهضتها ، كما هبت فيه العواصف السياسية العاتية . وهو العصر التاريخي الشهير الذي يعرف « بعصر الرعامسة » .

## ● قم الفن العسكرى المصرى

وصل الفن العسكرى المصرى إلى قته فى عصر الرعامسة . وخاصة أثناء الأسرة التاسعة عشرة ، إذ تعتبر « معركة قادش » نموذجاً رائعاً لتكتيكات الكر والفر ، وهى المعركة الكبرى التى استخدمت فيها الاستراتيجية الجديدة والمناورات التكتيكية للمركبات الحربية .

كما أن المعارك الدفاعية الكبرى التى وقعت فى شمال الدلتا تحت قيادة « رمسيس الثالث » ضد شعوب البحر ، تعتبر أول عملية حربية كبرى لمواجهة « الإبرار البحرى » للعدو فى التاريخ القديم .

كذلك فقد كانت الحياة بأكملها — طوال تلك الفترة — تنضج بالروح العسكرية الواضحة . ونتيجة للحروب الطويلة فى ذلك العصر ، أخذت مصر تظهر « الدولة العسكرية » .

وكان التجنيد إجبارياً فى الجيش ، لا تعفى منه أية شريحة اجتماعية ، وكان مفروضاً كخدمة عامة بلامتياز ، بالإضافة طبعاً إلى « التطوع الاختيارى » للعمل فى صفوف الجيش .

## ● رمسيس الأول وابنه العظيم سيتى الأول

و يتناول الدكتور قدرى عصر الرعامسة بكثير من التحليل والتفصيل ، وإن كان يركز بصفة أساسية على الطابع العسكرى الذى ساد كل تصرفات الدولة المصرية ، طوال عصر الأسرة التاسعة عشرة والجزء الأول من عصر الأسرة العشرين .

فى ذلك العصر ، تسيدت طبقة العسكريين من الضباط والجنود ، وتربعت على جميع شئون الدولة العسكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية . وذلك بعد أن وصل كبار قادة الجيش إلى ذروة سيطرتهم على كل ميادين النشاط بالدولة ، وأصبحوا يسيطرون على القطاع الكهنوتى ، كما أن مصير العرش الملكى قد أصبح فى أيديهم بصفة نهائية .

وتدل « لوحة الأربعمئة عام » التى عثر عليها فى « تانيس » على أن الضابط « بارعمسيس » الذى أسس الأسرة التاسعة عشرة ، وتولى عرش مصر باسم « رمسيس »





سیتی الأول یوڈیب السیر

الأول» كان ينتمى إلى أسرة عسكرية محترفة ، من المثقفين المنتمين إلى الصفوة الممتازة من طبقة العسكريين ، خدم أعضاؤها — ومنهم بارعمسيس نفسه — كضباط مقاتلين في الجيش المصرى .

أما الملك « سبتى الأول » الذى تولى الملك بعد وفاة والده رمسيس الأول ، فقد كان بدوره ضابطاً مقاتلاً اشترك فى عدة معارك حربية منذ أيام الملك حور محب .

وقد رفع « سبتى الأول » شعار « إعادة الميلاد » بمعنى « النهضة بالبلاد » .. وكرس نفسه لتوطيد وتدعيم هيبة مصر التى كانت قد تدهورت أيام أزمة العمارنة . واتخذ كل ما من شأنه ضمان أمن مصر ضد أى خطر محتمل فى فلسطين ، وفرض السيطرة على الطرق الاستراتيجية والتجارية مع لبنان وماوراء لبنان .

ويقدم النصب التذكارى الذى أقيم فى « بيسان » والذى يتضمن سجلاً بأحداث العام الأول من حكم « سبتى الأول » صورة واضحة لاتجاه العمليات الحربية . فنجد أن « فرقة آمون » قد وجهت صوب « حماه » . وأن « فرقة رع » كانت معسكرة فى بيسان [ وهى مركز عسكري مصرى منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ] . أما « فرقة ست » فكانت مكلفة بصدد أى هجوم مضاد من جانب الحيثيين ، يحتمل أن يأتى من جهة الشمال .

ونعرف من نقوش الكرنك أن « سبتى الأول » فى السنة الثانية من حكمه ، استأنف عملياته الحربية فى اتجاه الشمال . فهاجم « قادش » المدينة الاستراتيجية الهامة على نهر العاصى . ونجح فى إعادة فتح الطرق المؤدية إلى وادى العاصى الأعلى .

ثم قام « سبتى الأول » بحملة ثالثة ضد الحيثيين أكدت على الأقل سيطرته على معظم الأقاليم السورية . وعقدت معاهدة بينه وبين الحيثيين تم الاعتراف فيها بمناطق النفوذ المصرى فى تلك الأقاليم .

ومع ذلك فقد استمرت المناوشات والاحتكاكات العسكرية بين جيش مصر وجيش الحيثيين لفترة طويلة من حكم « رمسيس الثانى » الذى تولى العرش بعد وفاة أبيه سبتى الأول .

## ● قادش .. الحرب والدبلوماسية

ونظراً لما تتمتع به معركة قادش من أهمية بالغة ، باعتبارها نقطة تحول فى الموقف

السياسى والعسكرى فى الشرق الأدنى ، وقفة للفن الحربى فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، فقد أفرد لها الدكتور قدرى دراسة تحليلية موثقة ، تستند إلى تحليل وشرح المدونات والتقارير التى أثبتت وقائع تلك المعركة سواء بالنقش على جدران المعابد المصرية ، أو التقارير المكتوبة على البرديات المصرية وفى « ألواح بوغازكوى » التى سجل عليها الحيشيون وقائع المعركة من وجهة نظرهم .

كما استندت الدراسة أيضاً إلى جميع التحليلات التى قال بها المؤرخون المشهورون الذين تناولوا تاريخ تلك الفترة من الناحية التاريخية والسياسية والعسكرية . هذا بالإضافة إلى الرؤية الخاصة التى قال بها الدكتور قدرى فى رسالته تلك للحصول على درجة الدكتوراه .

وتقول المصادر المصرية أن القوات التى اشتركت — من الجانبين — فى معركة قادش ، كانت كبيرة العدد لدرجة تعطينا شعوراً وتصوراً لما سبق المعركة من « التعبئة الوطنية العامة » فى كل من دولتى الجانبين المتحاربين .

وقد شاركت فى المعركة عشرون ولاية من الولايات والمحميات التابعة للحيشيين فى مناطق آسيا الصغرى وعلى سواحل البحر الأيونى . وكانت هذه القوات جميعاً تحت قيادة « مواتاليش » ملك الحيشيين .

وتقدر المصادر المصرية أن الموجة الأولى من الهجوم الذى شنه سلاح المركبات الحربية لجيش الحيشيين ، قد شاركت فيها ٢٥٠٠ مركبة حربية . كما اشتركت فى الموجة الثانية ١٠٠٠ مركبة حربية .

و يقدر بعض المؤرخين عدد المشاة الحيشيين بأنه كان يتراوح ما بين ١٦ ألفاً و ١٨ ألف جندى . بينما يقدرهم مؤرخون آخرون [ السير آلان جاردنر مثلاً ] بنحو ٣٧ ألفاً .

أما القوات المصرية فكانت تتكون من أربع فرق كل منها يحمل اسم إله من آلهة المصريين الرئيسيين وهم : رع وآمون وبتاح وست . و يبلغ عدد قوات هذه الفرق نحو ٢٠ ألف محارب ، باعتبار أن كل فرقة كانت تتكون من خمسة آلاف جندى طبقاً للتنظيم المعهود الذى كان معمولاً به فى تكوين الفرق والوحدات العسكرية فى عصر الرعامسة .

وقد سجلت معركة قادش عدة مرات وبروايات مختلفة فى المصادر المصرية ، مما يعكس الأهمية التى كان ينظر بها المصريون إلى أهدافها الاستراتيجية . فقد كانت المشكلة الكبرى المتعلقة بإحياء الامبراطورية المصرية فى آسيا ، والتى تأجلت رغم إرادة

المصريين منذ أزمة العمارنة ، لا يمكن أن تحل — في نظر حكام مصر العسكريين — إلا عن طريق حشد الإمكانيات القومية المصرية على نحو هجومي .

وكان هدف الخطة المصرية هو القضاء على قوة الحيثيين بهجوم مفاجيء يتم فيه الاستيلاء على قادش ، وهى المركز الاستراتيجى بالقرب من مخرج وادى البقاع بين لبنان وسوريا . وتدل على ذلك السرعة الهائلة التى تقدمت بها الجيوش المصرية ، حيث وصلت إلى التلال المشرفة على قادش بعد شهر واحد من عبورها حدود مصر الشرقية .

وبعد تحليل دقيق لوقائع التحركات العسكرية التى تناوبها الفريقان المتحاربان أثناء المعركة ، يعلق الدكتور قدرى على مجمل النتائج التى أسفرت عنها جميع المعارك الحربية التى وقعت بين المصريين والحيثيين والتى تغطى فترة زمنية استمرت نحو ٣٥ سنة خلال حكم كل من سيتى الأول ورمسيس الثانى . ويقول إن الدولتين الكبيرتين توصلتا فى النهاية إلى ضرورة وضع حد للعداوة والعمليات الحربية . وعقدا معاهدة للسلام تحدد العلاقات فيما بينهما . ولا جدال فى أن التفاهم الضمنى على تقسيم مناطق السيادة والنفوذ بين الامبراطوريتين المصرية والحيثية ، والشروط المتبادلة فى المعاهدة التى وقعت بينهما فى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى ، إنما يعكس التوازن الاستراتيجى العام بين الجانبين . كما أن هذه المعاهدة تعد من الناحية الدبلوماسية أكثر من مجرد ميثاق بعدم الاعتداء . فقد رتبت على الطرفين التزامات بالمساعدة العسكرية المتبادلة فى حالة تعرض أحدهما لعدوان خارجى .

## ● سيطرة رجال الدين العسكريين .. وانهيار الامبراطورية المصرية .

وهكذا يستمر الكتاب فى عرض كل المظاهر العسكرية والحربية فى عصر الرعامسة الذى استمر فى الأسترتين التاسعة عشرة والعشرين . مبينا بالتفصيل ما بلغه هذا العصر من العظيمة والمجد عندما ازدهر وارتقى ، وما بلغه من همود وخود عندما أوشكت شمس على المغيب .

كما تناول شرحاً لجميع التحصينات العسكرية المصرية التى أنشأها العصر على طول الساحل الغربى للبلاد ، كما شرح الطبيعة العسكرية التى سادت البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، كما أوضح الحالة الاجتماعية التى كان يعيشها أفراد الطبقة العسكرية من

ضباط وجنود كطبقة مميزة ، والعوامل التي أدت إلى تقلد الضباط للوظائف الإدارية والكهنوتية في المعابد ، مما أدى بالتالى إلى نشأة ونمو طبقة جديدة لها طابعها الخاص المميز ، وهى « الطبقة الكهنوتية العسكرية » التي واصلت سيطرتها حتى استولت على عرش مصر ، وأقامت الحكم الدينى فى أواخر الدولة الحديثة . الأمر الذى ساعد — بالإضافة إلى عوامل أخرى — على انهيار الامبراطورية المصرية فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد .



## المؤلف:

- وكيل الوزارة بقطاع النقل البحرى سابقا . من مواليد باب الشعرية بالقاهرة عام ١٩٣٣ . ليسانس فى القانون والاقتصاد ١٩٥٥ ، ودبلوم عال فى القانون البحرى ١٩٧٥ .
- محاضر فى الاقتصاد والعلوم البحرية والنقل الدولى ، فى مراكز التدريب والتنمية الادارية بمصر والدول العربية . وتعتبر مؤلفاته و مترجماته فى علوم النقل البحرى من الكتب الرائدة غير المسبوقه باللغة العربية .
- كتب العديد من سيناريوهات الأفلام الثقافية التسجيلية عن التاريخ المصرى القديم ، والآثار الاسلامية بمصر ، وأعلام العرب ، وقصص القرآن . . بالاضافة إلى العديد من البرامج الثقافية بالتلفزيون والإذاعة المصرية وهيئة الاذاعة البريطانية بلندن
- نشرت له عشرات من القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينيات وحتى الآن فى مجلات : روزاليوسف وصباح الخير ونصف الدنيا والكاتب والقوات المسلحة والاذاعة والتلفزيون وكتب للجميع ومجلة حورس التى تصدرها مصر للطيران . . كما كتب عشرات المقالات المتخصصة فى مجلات الهلال والعربى والمسرح والقاهرة والثقافة والأوبرا وإدارة الأعمال ، وجرائد الأهلى والوفد والجمهورية والأخبار والأهرام .

## كتب للمؤلف :

### ● في الاقتصاد والعلوم البحرية :

- ١ - اقتصاديات النقل البحرى .
- ٢ - أساسيات النقل البحرى والتجارة الخارجية .
- ٣ - المصطلحات الفنية البحرية .
- ٤ - المصطلحات التجارية الدولية .
- ٥ - دراسة تحليلية عن عقد البيع البحرى « فوب » [ محاضرات ] .
- ٦ - عمليات نقل البضائع على سفن الخطوط المنتظمة [ محاضرات ] .
- ٧ - عمليات نقل البضائع على السفن المستأجرة [ محاضرات ] .
- ٨ - عمليات الموانى وعمليات الشحن والتفريغ [ محاضرات ] .
- ٩ - سند الشحن « دراسة تحليلية » [ محاضرات ] .
- ١٠ - قطاع النقل البحرى فى مصر .
- ١١ - محاضرات فى البيوع البحرية .
- ١٢ - القانون البحرى « ترجمة » - تأليف : إيمانويل دفورسكى .
- ١٣ - تأجير السفن « ترجمة » - تأليف : بيرجر نوسوم .
- ١٤ - انتاجية الرصيف « ترجمة » - تأليف : دى مونيه .
- ١٥ - الرقابة على الأعمال البحرية عن طريق الميزانية « ترجمة » تأليف : ج سيموندز .
- ١٦ - سفن الحاويات والموانى المعدة لاستقبالها « ترجمة » - تأليف : أ . إيفانس .
- ١٧ - مصطلحات التجارة الدولية والنقل البحرى وأنواع النقل الدولى الأخرى .



١٩ - حساب الوقت والعوامل المؤثرة فيه [ في عمليات شحن وتفريغ السفن ] -  
تحت الطبع .

### ● في الأدب والفن :

- ٢٠ - ألوان من النشاط المسرحي في العالم .
- ٢١ - خيال الظل والعرائس في العالم .
- ٢٢ - الرقص والحضارة « دراسة تاريخية . فولكلورية . إثنولوجية » .
- ٢٣ - زرع النوى « رواية أدبية » .
- ٢٤ - مسافر من العاصمة والأقاليم « مجموعة قصصية » .
- ٢٥ - عذراء سراييوم « مجموعة قصصية » - تحت الطبع .
- ٢٦ - الضحك بسبب « من الأدب الساخر » .
- ٢٧ - الضحك بالراحة « من الأدب الساخر » .
- ٢٨ - الضحك علينا « من الأدب الساخر » - تحت الطبع .
- ٢٩ - روائع الأدب العالمي في كبسولة - الجزء الأول .
- ٣٠ - روائع الأدب العالمي في كبسولة - الجزء الثاني .
- ٣١ - روائع الأدب العالمي في كبسولة - الجزء الثالث .
- ٣٢ - روائع الأدب العالمي في كبسولة - الجزء الرابع .

### ● روايات ومسرحيات مترجمة :

- ٣٣ - أوليفر تويست - تأليف : تشارلس ديكنز .
- ٣٤ - الآمال الكبرى - تأليف : تشارلس ديكنز .
- ٣٥ - ثورة على السفينة بونتي - تأليف : وليم بلاي .
- ٣٦ - نوم سوير - تأليف : مارك توين .
- ٣٧ - مغامرات هكلبري فين - تأليف : مارك توين .

٣٨- رجال عظام ونساء عظيمات - تأليف : ليزلى ليفيت .

٣٩- دافيد كوبر فيلد - تأليف : تشارلس ديكنز .

٤٠- جزيرة الكنز - تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .

٤١- دكتور جيكل ومستر هايد - تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .

٤٢- كنوز الملك سليمان - تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٣- نجمة الصباح - تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٤- مون فليت - تأليف : ميد فوكنر .

٤٥- المفتش العام - تأليف : نيكولاي جوجول .

٤٦- روبنسون كروزو - تأليف : دانييل ديفو .

#### ● في الآثار والتاريخ المصري القديم :

٤٧ - المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية « مترجم » تأليف الدكتور أحمد قدرى [ بالانجليزية ] . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار - نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٨ - فن الرسم عند قدماء المصريين « مترجم » تأليف : وليم بك . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى - نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٩ - مصر والنيل [ فى أربعة كتب عالمية ] - نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٠ - مراكب خوفو [ حقائق لا أكاذيب ] - نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥١ - الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة « مترجم » - تأليف : سيريل ألريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى - نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٢ - نفرتيتى : الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد « مترجم » - تأليف : جوليا سامسون . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار - نشرته الدار المصرية اللبنانية .

- ٥٣ - مجوهرات الفراعنة « مترجم » - تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى - نشرته الدار الشرقية .
- ٥٤ - صفحات من تاريخ الاسكندرية - تحت الطبع .
- ٥٥ - كليوباترا - تحت الطبع .
- ٥٦ - دراسات في الآثار والتاريخ المصري - تحت الطبع .



## محتويات الكتاب

٧	■ تقديم الطبعة الأولى : الأستاذ محمد العزب موسى
١٣	■ تقديم الطبعة الثالثة : بقلم الأستاذ سامح كريم
١٧	■ مقدمة الطبعة الثالثة : بقلم الأستاذ مختار السويفى
٢١	■ النيل : النهر والناس
٢٣	المؤلف والكتاب
٢٤	تقديم :
٢٦	رحلة النهر عبر المكان
٢٦	المنبعان الأزرق والأبيض
٢٧	معروف فى الشمال مجهول فى الجنوب
٢٩	نحو الجنوب صعودًا مع النهر
٣٣	رحلة النهر عبر الزمان
٣٤	نيل غريب اسمه النيل النوبى
٣٥	هل مصر حقاً هبة النيل
٣٦	اسمها باليونانية : دلتا
٣٧	كانت منارة العالم
٣٨	اختراق الدلتا مكاناً وزماناً

٤١	عاصمة النيل
٤٢	حين كان الهرم يطل على النيل
٤٣	الزراعة دون الاعتماد على المطر
٤٩	الرى بالحياض وعلم قياس الأرض
٤٩	تخزين المياه لم يعد مشكلة
٥١	الانفجار السكاني مشكلة المشاكل
٥٢	مخزن البروتين غير المستغل
٥٧	النوبيون في مصر والسودان
٥٨	عاصمة النيلين
٥٨	مع النيل الأزرق حتى تانا
٦٠	مع النيل الأبيض حتى منطقة السدود
٦٢	بحر الغزال . . بحر الزراف . . بحر الجبل
٦٣	منابع النيل كانت أسراراً مغلقة
٦٤	الذين وصلوا إلى منابع النيل
٦٧	البحيرات الافريقية العظمى
٧٢	النيل والانسان الأول
٧٣	تعقيب :
٧٣	النهر المعلم
٧٤	أقدم عيد في العالم
٧٤	خرافة عروس النيل
٧٥	المستول ونص الخرافة
٧٦	أكذوبة عاشت ألف سنة
٧٦	دلائل الكذب والتخريف

٨٠	علاقة عاطفية وواقعية
٨٠	من هي عروس النيل
٨١	الحجة الشرعية من أيام الفراعنة
٨٢	اغتناب العيد من المصريين
٨٣	نابليون يحتفل بوفاء النيل
٨٤	سبب الأفراح والأحزان
٨٥	■ مشرق القوة
٨٧	تقديم
٨٨	الإجيتومانيا
٨٩	شفاء لكل مرض
٨٢	الحضارة المصرية تغزو أوروبا
٩٣	لماذا خلدت آثارهم
٩٥	أم الحضارات
٩٦	متى تم توحيد الوجهين
٩٧	وأشرق شمس الحضارة
٩٧	الملوك العظام بناء الأهرام
١٠٠	تأكيد الذات المصرية
١٠١	ممنوع السخرة
١٠٢	أول ثورة اجتماعية في العالم
١٠٤	الانقلاب الطبقي
١٠٥	العصر الذهبي للأدب
١٠٩	عودة النظام والرخاء
١٠٩	خطط لزيادة الانتاج

١١٠	أدب النعيم وأدب الشقاء .....
١١١	الهجوم خير وسيلة للدفاع .....
١١٢	قصر التيه .....
١١٢	٢١٦ سنة هكسوس .....
١١٣	سيدنا يوسف في عهد الهكسوس .....
١١٥	شهيد التحرير .....
١١٥	أول بطل تحرير في العالم .....
١١٦	مطاردة خارج الحدود .....
١١٦	أشهر أسرة ملكية في العالم .....
١١٧	امنحتب الأول : العادل .....
١١٧	تحوتمس الأول : المحارب .....
١١٩	تحوتمس الثانى : المتأنق .....
١١٩	حتشبسوت : سيدة النساء الشريفات .....
١٢١	تحوتمس الثالث : الامبراطور وأول فاتح عظيم فى تاريخ العالم .....
١٢٤	أمنحتب الثانى : الرياضى .....
١٢٤	تحوتمس الرابع : الدبلوماسى .....
١٢٤	أمنحتب الثالث : ملك الملذات .....
١٢٥	اخناتون : أول الموحدين .....
١٣١	توت عنخ آمون : أشهر ملك فى العالم .....
١٣٢	الأسرة التاسعة عشرة .....
١٣٢	سيتى الأول .....
١٣٣	رمسيس الأكبر .....
١٣٥	فرعون موسى .....



١٣٦	آخر الملوك العظام
١٣٧	أول اضراب فى التاريخ
١٣٧	عصر الاضمحلال الثالث
١٣٨	تحت حكم الليبين
١٣٨	تحت حكم النوبيين
١٣٩	صحوة الموت
١٤٠	الفرس قادمون
١٤١	لحن الختام الحزين
١٤٣	■ رمسيس الأكبر . سيد العالم
١٤٥	المؤلف والكتاب
١٤٦	تقديم : كلمة فرعون ليست شتيمة
١٤٦	رمسيس فى قلب باريس
١٤٨	إسم رمسيس
١٥٠	مقارنة بين أشهر فرعونين
١٥٢	اسلافة المباشرين وانتقال السلطة
١٥٣	كيف أصبح ملكا
١٥٤	فى السنوات الأولى من حكمه
١٥٧	موقعة قادش
١٦٢	معاهدة السلام والدفاع المشترك
١٦٣	زفاف فى الستين
١٦٥	سيد البنائين
١٦٦	عمل يشبه المعجزات
١٦٨	فى معبدى الاقصر والكرنك

١٧٢	أبوسمبل : سيد المعابد
١٧٥	الرفيقة الجميلة المفضلة عنده
	<b>■ المؤسسة العسكرية المصرية</b>
١٧٩	في عصر الامبراطورية
١٨١	تقديم
١٨٢	عبقريّة العسكرية المصرية
١٨٤	أول حرب تحرير في تاريخ العالم
١٨٥	الاستراتيجية اكتشاف مصري
١٨٦	تطوير الجيوش وتصنيع السلاح
١٨٨	سلاح الفرسان والمركبات الخريّة
١٨٩	الكتاب والمثقفون العسكريون
١٩٠	اختيار الضباط وتدريبهم
١٩٠	سيطرة الطبقة العسكريّة
١٩٤	تمجيد الشجاعة
١٩٥	الضباط يتفأخرون بالعلم
١٩٦	ملكة من بنات الشعب
١٩٦	اخناتون يحسم الموقف
١٩٧	اخناتون والجيش
١٩٨	دليل من رسائل العمارنة
١٩٨	الشرطة والأمن القومي
١٩٩	الجيش والملك الصغير
٢٠٠	المؤامرة
٢٠١	مجتمع الطبقات المفتوحة

- ٢٠٢ ..... قمم الفن العسكرى المصرى
- ٢٠٢ ..... رمسيس الأول وابنه العظيم سيتى الأول
- ٢٠٤ ..... قادش : الحرب والدبلوماسية
- ٢٠٦ ..... سيطرة رجال الدين العسكريين وانهايار الامبراطورية المصرية
- ٢٠٩ ..... المؤلف .. وكتب للمؤلف





الكتاب

Bibliotheca Alexandrina



0365770

